

موسوعة العصور الوسطى

337.09

Z391A

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

« بحث في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية
في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ق ١٣ - ١٤ م »

الدكتور عادل زيتون

مدرس تاريخ العصور الوسطى بجامعة دمشق



المحتوى

صفحة	
١١	- المقدمة
١٦	- دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

الباب الاول

عوامل ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية
في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

٢٧	الفصل الاول
	ظهور القومونات الإيطالية

- إيطاليا ظاهرة اقتصادية متميزة - ظهور طبقة التجار وقيادة
الحركة القومية - العوامل التي ساعدت على ظهور القومونات الإيطالية -
نشأة القومونات (في البندقية وجنوة وبيزا) وسماتها المشتركة .

٣٥	الفصل الثاني
	التنظيمات التجارية وأثرها في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

- ظهور الشركات التجارية - الشركات العائلية - العقود التجارية
وانواعها - طوائف التجار - الاسواق التجارية الكبرى وأثرها في النشاط
التجاري .

٤٥	الفصل الثالث
----	--------------

انواع النقود والتنظيمات المصرفية وأثرها في النشاط التجاري
للجمهوريات الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

- استخدام المدن الإيطالية للنوميسما والدينار - البندقية تسك
عملة فضية - المدن الإيطالية تسك عملات ذهبية - أسباب انتشار

Li45-13087

مقوق الطبع محفوظة

لدار دمشق

الطبعة الاولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م



دار دمشق - شارع بور سعيد هاتف ١١١.٤٨
١١١.٢٢

الفلورين والدوكات في مدن وموانئ شرق البحر المتوسط - ظهور
المصارف - القروض وأنواعها - الحوالات .

الفصل الرابع

تطور الملاحة وأثره في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

- نماذج السفن التجارية في المدن الإيطالية - حمولة السفن - أعداد
الملاحين - تنظيم القوافل التجارية البحرية - أصحاب السفن والتجار -
الأهمية التجارية لاستخدام البوصلة والخرائط البحرية .

الباب الثاني

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الدولة البيزنطية
خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الأول

دور المدن التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م

الامتيازات التجارية التي منحت للمدن الإيطالية في بيزنطة على عهد
آل كومنين - اعتقال البنادقة ومصادرة ممتلكاتهم في الامبراطورية عام
١١٧١ م - مذبحه اللاتين في القسطنطينية عام ١١٨٢ م - أحوال النشاط
التجاري للمدن الإيطالية في ظل آل انجيلوس - الحملة الصليبية الرابعة
تتجه الى القسطنطينية - مكاسب البندقية من الاستيلاء على القسطنطينية
وتقسيم الدولة البيزنطية - أحوال الجنوية والبيازنة في بيزنطة في ظل
الاباطرة اللاتين .

الفصل الثاني

امبراطورية نيقية وأزمة التجار الإيطاليين ١٢٠٤ - ١٢٦١ م :

قيام امبراطورية نيقية والمصالح التجارية البندقية - معاهدة عام
١٢١٩ م بين البندقية وتيودور لاسكارس - السياسة الاقتصادية

والعسكرية التي اتبعتها حنا الثالث وأثرها على النشاط التجاري للمدن
الإيطالية في نيقية - معاهدة عام ١٢٦١ م بين جنوه وميخائيل الثامن
باليلوغوس - أهمية هذه المعاهدة وأثرها على النشاط التجاري للمدن
الإيطالية - استرداد البيزنطيين للقسطنطينية (١٢٦١ م) وبداية التفوق
التجاري الجنوبي في الامبراطورية .

الفصل الثالث

٩١

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في بيزنطة ١٢٦١ - ١٤٠٠ م

المعاهدات التجارية بين جنوه وآل باليلوغوس والتفوق التجاري
الجنوبي في الامبراطورية - المعاهدات التجارية بين البندقية وآل باليلوغوس
والانحطاط التجاري البندقي في الامبراطورية - السلع والمتاجر المتبادلة بين
المدن الإيطالية والامبراطورية البيزنطية - الاخطار التي المت بالنشاط
التجاري للمدن الإيطالية في الامبراطورية ١٢٦١ - ١٤٠٠ م .

الفصل الرابع

١١٤

أحوال المستوطنات التجارية الإيطالية في القسطنطينية ١٢٠٤ - ١٤٠٠ م

الاحياء التجارية الإيطالية في القسطنطينية : البندقية - الجنوية -
البيزاوية - ادارة هذه الاحياء وتنظيماتها - الأهمية التجارية لهذه الاحياء .

الباب الثالث

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في المدن والامارات الصليبية
في القرن الثالث عشر الميلادي

الفصل الأول

١٢٩

الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والأمراء
الصليبيون للجمهوريات الإيطالية

المدن التجارية الإيطالية والحركة الصليبية - الأمراء الصليبيون
والتجار الإيطاليون - أحوال الصليبيين في القرن الثالث عشر والوحدة
الموضوعية للامتيازات - أهم الامتيازات التي منحت : للجنوية والبيازنة

والبنادقة في اماره انطاكية ومملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس - السمات الرئيسية لهذه الامتيازات .

الفصل الثاني

١٤٤

التنافس التجاري بين الجمهوريات في المملكة الصليبية

في القرن الثالث عشر

- ارتباط النشاط التجاري للايطاليين بمسألة الاستقرار السياسي - أثر النزاع بين كونراد مونتفرات وجاي لوزنجيان على النشاط التجاري للبيازنة والجنوية - أثر الصراع بين الجولفيين والجيليين على النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الامارات الصليبية - حرب دير القديس سابا وأثرها على تجارة الايطاليين ومستقبلها في المدن الصليبية - التنافس بين المدن الإيطالية ونهاية الدويلات الصليبية .

الفصل الثالث

١٥٤

الاحياء التجارية الإيطالية في المدن والامارات الصليبية

في القرن الثالث عشر

- العوامل التي تحكمت بقيام الجاليات الإيطالية في المدن الصليبية - تركز الجاليات التجارية الإيطالية في المدن الساحلية وبروز عكا - استقرار التجار الايطاليين في عكا - موقع الاحياء الإيطالية في عكا وحدودها - العلاقة بين الجاليات الإيطالية والحكومة الصليبية - البابلو ادارة الحي البندقي - القنصل وادارة الحي البيزاوي - تطور الادارة الجنوية - من القنصل الى البودستا - الاحياء التجارية الإيطالية في انطاكية وطرابلس وجبيل وبيروت وصور - أهميتها التجارية .

الفصل الرابع

١٦٩

أنواع السلع والمتاجر المتبادلة بين الجمهوريات الإيطالية

والامارات الصليبية بالشام في القرن الثالث عشر

تنظيم المدن الإيطالية لرحلات أساطيلها التجارية - مواعيد القوافل التجارية بين المدن الإيطالية والموانئ الصليبية - حماية المدن الإيطالية

لسفنها وتجارها في المدن والموانئ الصليبية - السلع والمتاجر الشامية والمصرية التي صدرها الايطاليون من الموانئ الصليبية - العلاقة بين التجار المسلمين والتجار الايطاليين - سلع ومتاجر الشرق الأقصى التي نقلها الايطاليون من الموانئ الصليبية - السلع والمتاجر التي جلبها الايطاليون الى المدن الصليبية - الضرائب والرسوم الجمركية التي دفعها التجار الايطاليون في المدن والموانئ الصليبية - الموازين والمكاييل والمقاييس .

الباب الرابع

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية مع القوى الإسلامية

في مصر والشام خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر

١٨٧

الفصل الاول

تطور العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية ومصر والشام

المصالح الاقتصادية والتجارية للايطاليين في مصر والشام - المعاهدات التجارية بين البنادقة والايوبيين - العلاقات التجارية بين البندقية ومصر والشام (ما بين ١٢٥٤ - ١٢٩١) - أثر سقوط مملكة بيت المقدس على تجارة البنادقة مع المماليك - « الامان الشريف » - النشاط التجاري للبنادقة في عهد السلطان الناصر قلاوون - البابوية وتجارة البندقية مع المسلمين - أثر حملة بطرس على العلاقات التجارية بين البندقية والمماليك - العلاقات التجارية بين البيازنة والفاطميين - تجارة البيازنة في مصر والشام في عهد الايوبيين - النشاط التجاري للبيازنة على عصر سلاطين المماليك - النشاط التجاري للجنوية - ازدهار تجارة جنوة في عهد الظاهر بيبرس - معاهدة ١٢٩٠ بين الجنوية والسلطان المنصور قلاوون - الجنوية والاشرف خليل - تجارة جنوة في عهد السلطان الناصر قلاوون - أثر حملة بطرس على تجارة جنوة - الجنوية والسلطان برقوق - ضعف تجارة جنوة في مصر والشام في أواخر القرن الرابع عشر .

التنظيمات التجارية والمعاملات المالية

تنظيم الاساطيل التجارية - انواع السلع والمتاجر المتبادلة بين المدن الإيطالية ومصر والشام - التأمين على التجار وسلعهم - الضرائب والرسوم - الاعفاءات الضريبية - اصول المعاملات التجارية وانواعها - التجار الإيطاليون وتجار الشام .

الفصل الثالث

الجاليات التجارية الإيطالية في مصر والشام ونظمها

الفنادق وادارتها - القنصل ومهامه - الحرية الدينية - الاستقلال القضائي - العلاقة بين الجاليات والسلطات المحلية .

الباب الخامس

النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في جزر الحوض الشرقي

للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الاول

النشاط التجاري للبندقية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

النشاط التجاري للبنادقة في جزيرة قبرص : موقع قبرص وأهميتها التجارية بالنسبة الى المدن الإيطالية - الامتيازات التجارية والاقليمية والقضائية للبنادقة في جزيرة قبرص . امتلاك البندقية لجزيرة كريت وادارتها - أهمية كريت التجارية بالنسبة الى البندقية - امتلاك البندقية لجزيرة نيقربونت وادارتها - أهمية نيقربونت التجارية بالنسبة الى البندقية - امتلاك البندقية لمودون وكورون .

النشاط التجاري للجنوية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

الامتيازات التجارية والاقليمية والقضائية التي منحت للجنوية في جزيرة قبرص - امتلاك الجنوية مدينة فماجوستا وأثره على النشاط التجاري الجنوبي - النشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس : اشتهار خيوس بالمصطكى - بداية النشاط التجاري الجنوبي في خيوس - ادارة آل زكريا الجنوية لخيوس واحتكارهم تجارة المصطكى - احتلال جنوه لجزيرة خيوس - بروز آل جستنياني - أهمية خيوس التجارية بالنسبة للجنوية - الادارة الجنوية في خيوس .

الخاتمة

المصادر والمراجع

- أولا : المصادر الاوربية .
- ثانيا : المراجع الأوربية .
- ثالثا : المصادر العربية .
- رابعا : المراجع العربية .

المقدمة

يعتبر موضوع النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، من الموضوعات ذات الأهمية البالغة في التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى الشرقية والغربية ، واكتسب هذا النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية أهمية خاصة لأنه كان تجسيدا للعلاقات الاقتصادية والحضارية التي قامت بين الشرق والغرب في حقبة من انشط حقبة العصور الوسطى . يضاف الى ذلك ان النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في شرق البحر المتوسط هو في حقيقته تجديد للنشاط التجاري الذي قامت به المدن والموانئ العربية في شرق البحر المتوسط في الغرب الاوروبي قبل حركة الفتوح العربية الاسلامية وبعدها .

وتبرز أهمية النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين ، في أنه كان نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والحضارية التي اجتاحت الغرب الاوروبي منذ أواخر القرن الحادي عشر . كما أنه ألقى ضوءا على الكثير من القضايا التجارية وغيرها المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتظهر أهمية هذا الموضوع أيضا في كشف الاصول التي قام عليها الاقتصاد الاوروبي في العصر الحديث .

ولما كانت دراسة التاريخ الاقتصادي من أعقد فروع الدراسات التاريخية وأصعبها ، فضلا عن أنها ما تزال بكرة ، فان الدراسات الحديثة التي تناولت بعض جوانب النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط لا زالت قليلة وتفتقر في معظمها الى العمق . يضاف الى ذلك ان معظم الذين قاموا بهذه الدراسات هم من الباحثين الاوربيين الذين نظروا الى مسألة النشاط التجاري للمدن الإيطالية في شرق البحر المتوسط من وجهة نظر أوربية أو من وجهة نظر الجمهوريات الإيطالية ومصالحها التجارية الكبرى في بلدان الحوض الشرقي للبحر

المتوسط . ولهذا اخترت دراسة موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » من وجهة النظر الشرقية ، ولكشف مغاليقه وأهميته لا بالنسبة الى المدن الإيطالية فحسب وانما بالنسبة الى بلدان شرق البحر المتوسط في فترة من أخصب فترات التاريخ الاقتصادي للعصور الوسطى .

وكان من الصعوبة بمكان دراسة النشاط التجاري لكافة الجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولهذا فقد قام هذا البحث على دراسة النشاط التجاري لأبرز هذه الجمهوريات وأكثرها أهمية وهي : البندقية وجنوة وبيزا . وذلك لأن هذه المدن الإيطالية الثلاث كانت من أقدم المدن التجارية الإيطالية التي أقامت علاقات تجارية منظمة مع بلدان شرق البحر المتوسط . وكانت في مقدمة المدن الإيطالية التي تحولت الى قومونات تجارية حرة وتطورت تنظيماتها التجارية والمالية والبحرية لتلبية متطلبات التجارة مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . كما هيمنت البندقية وجنوة وبيزا على تجارة شرق البحر المتوسط ، حتى أن استمرار وتطور التجارة بين الشرق والغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كان مرهونا بالعلاقات التجارية التي أقامتها هذه الجمهوريات التجارية الثلاث مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط من جهة وبالعلاقات التي قامت بين هذه الجمهوريات الثلاث من جهة ثانية .

واتبعت في دراستي لهذا الموضوع منهاجاً علمياً قائماً على الوصف والتحليل للحقائق التاريخية . ومقارنة روايات المؤرخين المعاصرين ، ومراعاة قرب كل منهم أو بعده عن الواقعة التاريخية . ولم تكتف الدراسة بعرض الحقائق التاريخية وانما اتبعت منهج النقد والتحليل والتفسير في محاولة لربط الحقائق التاريخية ووضع الوقائع في أماكنها الصحيحة بغية الوصول الى الحقيقة التاريخية .

واقترضت منهج البحث دراسة كل جمهورية إيطالية، من الجمهوريات الثلاث : البندقية وجنوة وبيزا ، على حدة ، كوحدة مستقلة لها مصالحها التجارية الخاصة ولها نظرتها الخاصة في فهم الأمور التي تخدم هذه المصالح ، ولها أساليبها وسياساتها الخاصة للوصول الى أهدافها

الاقتصادية الكبرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ومهدت لهذه الدراسة ببحث تطور النشاط التجاري لكل مدينة من المدن الثلاث والظروف التي احاطت بهذا النشاط التجاري والعوامل التي ادت الى ازدهاره او انحطاطه . واقترضت البحث دراسة أحوال الجاليات التجارية الإيطالية التي عاشت في مدن وموانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، والمعاملات التجارية والمالية السائدة وقتذاك .

واقترضت طبيعة دراسة هذا الموضوع أن ينقسم البحث الى خمسة أبواب يتلوها خاتمة . درست في الباب الأول موضوع « عوامل ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » وانتهى بحث هذا الموضوع الى أن هناك أربعة عوامل رئيسية كان لها دور كبير في ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية التجارية وهي : ظهور القومونات الإيطالية ، وتطور التنظيمات التجارية والتنظيمات المصرفية والمالية اضافة الى تطور الملاحة في المدن الإيطالية وأثره على النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

وفي الباب الثاني عالجت موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الدولة البيزنطية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » موضحاً فيه أن هذا النشاط قد ارتكز على أربع مسائل رئيسية وهي دور الجمهوريات التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية الرابعة وامبراطورية نيقية وأزمة النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في هذه الامبراطورية ، والنشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في بيزنطة فيما بين ١٢٦١ - ١٤٠٠ م ، وأحوال الأحياء التجارية الإيطالية في القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٤٠٠ م) وأهميتها الاقتصادية .

واقترضت في الباب الثالث على دراسة موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في المدن والامارات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي » وألقت الدراسة الكثير من الضوء على الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والامراء الصليبيون للمدن التجارية الإيطالية وأبرزت أثر التنافس التجاري الذي نشب بين المدن الإيطالية في المملكة الصليبية على النشاط التجاري لهذه المدن . ودرست في هذا الباب الأحياء التجارية الإيطالية في المدن الصليبية وادارتها وأهميتها التجارية ، والتنظيمات

التجارية للمدن الإيطالية في المدن الصليبية وأنواع السلع والمتاجر التي تم تبادلها بين المدن الإيطالية والمدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر الميلادي .

وفي الباب الرابع تناولت موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية مع القوى الإسلامية في مصر والشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر » . واقتصر هذا الباب على دراسة تطور العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية ومصر والشام ، مفسرا تلك المعاهدات التجارية التي تم توقيعها بين الطرفين ، والظروف التي أحاطت بالنشاط التجاري للمدن الإيطالية على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وعالج الباب الرابع أيضا موضوع التنظيمات التجارية والمعاملات المالية التي اتبعتها المدن الإيطالية في نشاطها التجاري في مصر والشام ، وأحوال الجاليات التجارية الإيطالية في موانئ مصر والشام والامتيازات التجارية التي حظيت بها المدن التجارية الإيطالية .

ويبحث الباب الخامس موضوع « النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط » وذلك بغية استكمال صورة نشاط الجمهوريات في الحوض الشرقي للمتوسط . وشرح هذا الباب النشاط التجاري للبندية في جزيرة قبرص والامتيازات التجارية . التي حصل عليها البنادقة في هذه الجزيرة . وناقش الباب موضوع استيلاء البندقية على جزر كريت ونيقروبول ومودون وكورون وأهمية هذه الجزر التجارية بالنسبة إلى النشاط التجاري للبندية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتناول الباب الخامس أيضا موضوع النشاط التجاري للجنوية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط مبينا الامتيازات التجارية التي حصل عليها الجنوية في جزيرة قبرص ، واستيلائهم على مدينة فماجوستا . وانتهى هذا الباب بدراسة موضوع النشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس ، ثم احتلال جنوة لهذه الجزيرة منذ أواسط القرن الرابع عشر . وفي الخاتمة : عرضت لأهم النتائج والاستنتاجات التي توصل إليها البحث .

وبعد لا يسعني إلا أن أسدي الشكر خالصاً إلى استاذي الفاضل الدكتور حسنين محمد ربيع واستاذي الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لتشجيعهما ونصائحهما العلمية القيمة .

كما أتقدم بالشكر إلى أعضاء هيئة التدريس بمدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن لاستضافتهم لي لمدة عام ، وكذلك للسادة أمناء مكتبات دار الكتب المصرية ، مكتبة جامعة القاهرة ، ومكتبات البودليان وكمبردج والمتحف البريطاني بإنجلترا .

والله أسأل أن أكون قد وفقت ، فيما ذهبت إليه ، والله ولي التوفيق .

القاهرة ١٩٧٨/٨/١٥

عادل زيتون

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث :

اعتمد البحث على ثلاث مجموعات رئيسية من المصادر هي : المصادر اللاتينية والمصادر اليونانية والمصادر العربية .

أولا - مجموعة المصادر اللاتينية ، وتنقسم بنورها الى ثلاثة أقسام :

٢ - الكتابات التاريخية :

وهي كتابات ابرز المؤرخين اللاتين المعاصرين الذين دونوا الحوادث كشهود عيان ، أو نقلوها عن الباحثين السابقين . ويعتبر المؤرخ وليام الصوري William of Tyre من أبرز المؤرخين الصليبيين في القرن الثاني عشر الميلادي . وعرض هذا المؤرخ في مؤلفه : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحر (١) (A History of deeds done beyond the Sea, 2 vols) أحداث مملكة بيت المقدس منذ عام ١٠٩٩ م حتى عام ١١٨٤ م . وذكر وليام الصوري معلومات هامة عن الامتيازات التجارية التي منحت للايطاليين في المدن والامارات الصليبية حتى عام ١١٨٤ م ، وعن أحوال الجاليات التجارية الإيطالية في المدن الصليبية والعلاقات السياسية والاقتصادية التي قامت بين الايطاليين والصليبيين .

وتلى كتاب وليام الصوري في الاهمية كتابات المؤرخ الصليبي يعقوب دي فترى Jacques de Vitry ، الذي يعتبر مؤرخ مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر . وكان يعقوب اسقفا على مدينة عكا في عام ١٢١٧ م ، ثم أصبح بطريركا لمملكة بيت المقدس وقد أفادنا في كتابه المسمى : تاريخ القدس (The History of Jerusalem) عند دراسة النشاط

(١) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني :

William of Tyre, Hist. of deeds. , 2 vols. Trans. By E. A. Babcock and A. C. Kery, Newyork, 1943.

التجاري للمدن الإيطالية في المدن والامارات الصليبية وأمدنا بمعلومات قيمة عن التنافس التجاري الذي نشب بين المدن التجارية الإيطالية في القرن الثالث عشر ، وأثره على مستقبل مملكة بيت المقدس (٢) . كما تحدث ديفتري في كتابه عن أحوال الجاليات التجارية الإيطالية في مملكة بيت المقدس ، وأشار الى أنه اعتمد على المؤرخ وليام الصوري في تأريخه للحوادث المتعلقة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

ويعتبر فيليب نوفار Philip de Novar مؤرخ مملكة بيت المقدس وقبرص في القرن الثالث عشر . وكتب فيليب مؤلفة (٣) المسمى : حروب فردريك الثاني ضد آل ايبيلين في سورية وقبرص فيمابين عامي ١٢٤٣-١٢٤٦ م . (The wars of Frederick 11 against the Ibelins in Syria and Cyprus) وكان فيليب فارسا تابعا لآل ايبيلين Iblin أصحاب بيروت . وأمدنا فيليب نوفار بمعلومات هامة عن الامتيازات التجارية التي منحها حنا ايبيلين للجنوية في بيروت وقبرص عام ١٢٢١ م ، وعن الامتيازات التجارية التي منحت للجنوية والبنادقة في تلك الفترة أيضا . وتحدث فيليب نوفار في كتابه عن الانقسام الذي حدث بين المدن الإيطالية في المملكة الصليبية عند وصول الامبراطور فردريك الثاني ، والصراع بين الجولفيين والجبليين في المدن الصليبية وأثر ذلك كله على النشاط التجاري للمدن الإيطالية في المملكة الصليبية وقبرص . ويظهر المؤرخ نوفار تعاطفا واضحا مع الجنوية ضد البيازنة وربما السبب في ذلك أن الجنوية وقفوا الى جانب أسياده من آل ايبيلين ضد الامبراطور فردريك الثاني في حين أن البيازنة ظللوا انصار الامبراطور ومؤيديه .

ومن كتابات المؤرخين اللاتين المعاصرين التي أفادت البحث كتاب جوفري قيل هاردوان : فتح القسطنطينية

(٢) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني في مجموعة :

Palestine pilgrims Text Society , vol. XI, London, 1896

(٣) اعتمدت على الترجمة الانجليزية للاصل اللاتيني :

Philip de Novar, The Wars of Frederick 11 against the Ibelins in Syria and Cuprus, Trans. By J. L. Lamonte , Newyork, 1936.

(Villehardouin, G. The Conquest of Constantinople,)

وفي هذا الكتاب (٤) أشار هاردوان الى دور المدن التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م وأثر سقوط القسطنطينية بأيدي اللاتين على تجارة المدن الإيطالية في بيزنطة والبحر الاسود والقى هذا الكتاب الضوء على أحوال البيازنة والجنوية في بيزنطة وامبراطورية نيقية بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية وتبرز أهمية ما أفادنا به فيل هاردوان أنه كان واحدا من الذين خططوا للحملة الصليبية الرابعة وشاركوا فيها . ويلي كتاب هاردوان في الاهمية كتاب روبرت كلاري : فتح القسطنطينية . : (٥) Clari, R., The Conquest of Constantinople ومن المعروف أن روبرت كلاري شارك في الحملة الصليبية الرابعة كصليبي عادي ، وأمدنا بمعلومات قيمة عن دور المدن الإيطالية في هذه الحملة وتقسيم الدولة البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤ م .

ب - كتابات الرحالة والحجاج اللاتين :

وتعتبر كتابات الرحالة والحجاج اللاتين الذين زاروا بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين من أهم مصادر البحث لما احتوت عليه من معلومات هامة لانجدها في كتب التاريخ المعروفة . وابرز هؤلاء يأتي الرحالة الألماني بركارد : Burchard الذي زار بلاد الشام ومصر عام ١٢٨٠ ، وأقام عشر سنوات في جبل صهيون في فلسطين والف كتابه وصف الأرض المقدسة (Adescription of the Holy land) ١٢٨٣ (٦) . وقد أمدنا هذا الرحالة بمعلومات طيبة

(٤) اعتمدت على الترجمة الانجليزية :

Clari, R., The Conquest of Constantinople, Newyork, 1936 .

(٥) اعتمدت على الترجمة الانجليزية :

Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople (Eng. Trans.), Londn 1976 .

(٦) اعتمدت على الترجمة الانجليزية الموجودة في مجموعة :

P. P. T. S., vol., X11, London, 1897

عن ثروات المدن الشامية والمصرية التي كانت موضع اهتمام التجار الإيطاليين ، وتحدث في رحلته عن أحوال الجاليات التجارية الإيطالية المتناثرة في المدن الصليبية وعلاقات هذه الجاليات فيما بينها . ومما يؤخذ على كتاب الرحالة بركارد أنه لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها فيما أمدنا به من معلومات ، إلا أن النقد التاريخي يثبت أنه نقل كثيرا من كتابات وليام الصوري ويعقوب دفتري فيما كتبه عن مملكة بيت المقدس في الفترة التي لم يعاصرها .

أما الرحالة الألماني لادولف Ludolph فقد قام برحلته الى مصر والشام في عام ١٣٤١ م . وكتب مؤلفه المسمى وصف الأرض المقدسة . (Description of the Holy land) عام ١٣٥٠ م (٧) . وأفادنا هذا الرحالة عند الحديث عن الجاليات التجارية الإيطالية في المدن الصليبية والصراع الذي اندلع بين الجوافيين والجيليين في أواسط القرن الثالث عشر في مملكة بيت المقدس وأثره على النشاط التجاري للمدن الإيطالية ، كما أمدنا بمعلومات قيمة عن الجاليات التجارية الإيطالية في أواسط القرن الرابع عشر ، ومما يؤخذ على هذا المؤرخ أنه حمل مسؤولية سقوط مملكة بيت المقدس في أيدي العرب المسلمين (١٢٩١ م) الى المدن التجارية الإيطالية التي انهمكت في البحث عن الارباح والسلع دون الاهتمام بمصالح المملكة والصليبيين .

واستفاد البحث كثيرا مما كتبه الرحالة الإيطالي نيقولا Niccolo الذي زار مصر والشام فيما بين سنتي ١٣٤٦ - ١٣٤٨ م . وسجل نيقولا مشاهداته في المدن الشامية والمصرية . وأشار الى الجاليات التجارية الإيطالية التي كانت تعيش في موانئ مصر والشام ، وأمدنا بمعلومات طيبة عن أحوال هذه الجاليات وفنادقها وأنواع السلع والمتاجر التي كانت موضع اهتمام التجار الإيطاليين . وبالرغم من أن نيقولا لم يحدد مصادر معلوماته بدقة إلا أنه كان يشير الى أن هذه المعلومات أخذها من التجار الإيطاليين أو التجار الفرنجة بصفة عامة ، الذين كان يلتقي بهم أثناء رحلته في موانئ مصر والشام .

(٧) اعتمدت على الترجمة الانجليزية الموجودة في مجموعة :

P. P. T. S., vol., X11, London, 1895

وهناك كتابات بعض الرحالة اللاتين المعاصرين الذين زاروا بيزنطة والشرق الأقصى بمهمات رسمية من قبل البابوية أو ملوك أوروبا . فقد استفاد البحث من كتابات الرهبان الفرنسيين مثل الراهب كاربيني Carpini الذي بعثه البابا انوسنت الرابع الى بلاط خان المغول عام ١٢٤٥ م ، وكتابات الرحالة الراهب روبروك الذي بعثه الملك لويس التاسع الى خان المغول عام ١٢٥٣ . وأمدنا هذان الراهبان بمعلومات قيمة عن سلع ومتاجر الشرق الأقصى التي كان ينقلها التجار الايطاليون من بيزنطة والبحر الاسود الى الغرب الاوربي .

ج - مجموعات الوثائق :

نشر تافيل وتوماس Tafel and Thomas ، مجموعة الوثائق التي تتعلق بتجارة مدينة البندقية في بيزنطة ومصر والشام (٨) وقد زود توماس وتافيل هذه الوثائق بملاحظات نقدية هامة توضح الظروف السياسية التي واكبت توقيع كل وثيقة .

واعتمد البحث على مجموعة الوثائق التي نشرها ماس لاتري : Mas Latrie (٩) والتي تتعلق بتاريخ جزيرة قبرص . وفي الجزء الثاني من مجموعته نشر ماس لاتري المعاهدات التجارية المعقودة بين حكام المدن الإيطالية والملك القبارصة ، منذ اعتلاء آل لوزجنان العرش في قبرص حتى عام ١٤٣٢ م . ونشر ماس لاتري مجموعة أخرى تحت اسم : Traité des paix et de Commerce وهي المعاهدات التي عقدتها البندقية مع السلاطين الايوبيين والمماليك وتتكون هذه المجموعة من ١٤ / وثيقة باللغة اللاتينية اشتملت على الامتيازات التجارية التي تمتع بها البنادقة في مصر . كما اعتمدت الدراسة على مجموعة الوثائق التي نشرها ميخائيل آماري (١٠) : Micheal Amari في دراسة العلاقات التجارية بين بيزا ومصر والشام ، وبصفة خاصة المعاهدات التجارية التي

(8) urkunder zur alteren Handels-und Staatsges
3 vols. (1856—57).

(9) Hist. de L'île de Chypre , 3 vols. , Paris, 1861.

(10) Amari, M. DILOMI ARABI de R. Archivio Florentino, 1863 .

وقعها البيازنة مع الخلفاء الفاطميين وسلاطين الايوبيين . وألقت هذه المعاهدات ضوءا على احوال الجاليات التجارية البيزاوية في مصر والشام والامتيازات التجارية التي تمتعت بها . واستفاد البحث من مجموعة الوثائق التي نشرها فيليب أرجنتي Philip Argenti والتي تتعلق باستيلاء الجنوية على جزيرة خيوس والادارة الجنوبية لهذه الجزيرة منذ أواسط القرن الرابع عشر والمجموعة The Genoese مؤلفة من ثلاثة أجزاء ، احتوى الجزء الاول على وثائق باللغة اللاتينية وبعضها بالاطالية القديمة في حين احتوى الجزء الثاني والثالث على دراسة الباحث أرجنتي لهذه الوثائق .

ثانيا : المصادر اليونانية :

واستفاد البحث من عدد من المصادر اليونانية التي تعود الى الفترة موضوع البحث خاصة ما كتبه المؤرخ نيقفوروس جريجوري (١١) N. Gregorae (١٢٩٥ - ١٣٦٠ م) فقد كان كاتباً موسوعياً ، وكتب تاريخاً يمتد من ١٢٠٤ الى عام ١٣٥٩ م . قدم فيه ملخصاً عن تاريخ امبراطورية نيقية والسنوات الاولى من تاريخ الامبراطورية البيزنطية في القسطنطينية بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م .

وقد افدنا في البحث من مؤلفه في دراسة النشاط التجاري للمدن الإيطالية في بيزنطة خلال عهد الامبراطور اندريق الثاني والثالث بصفة خاصة ، وفي لقاء الضوء على احوال الجاليات التجارية الإيطالية في بيزنطة . وفي بحث التنافس التجاري الذي قام بين الجنوية والبنادقة في الامبراطورية البيزنطية والبحر الاسود . ومما يؤخذ على هذا المؤرخ الكره الشديد الذي يكنه للاتين عامة وللتجار الايطاليين بصفة خاصة .

واستفاد البحث من مصدر يوناني آخر هو تاريخ الامبراطور حنا كنتاكوزينوس (١٢) Kantakouzenos الذي ولد عام ١٢٩٥ م ، واعتلى

(11) Gregorae, N., Byzantine Historia, in C. S. H. B., 3 vols. Bonn, 1829, 1830, 1855 .

(12) Kantakouzenos, Historiarum, 3 vols. in C. S. H. B., Bonn, 1828 — 32 .

العرش البيزنطي عام ١٣٤٧ م والف كتابه بعد أن خلع عن العرش عام ١٣٥٤ م وقبل وفاته في ١٣٨٣ م . وقد أوجز المؤرخ في مقدمة كتابه تاريخ الامبراطورية البيزنطية منذ عام ١٣٢٠ الى عام ١٣٤٧ م ، ثم توسع في كتابته عن الاحداث التي عاشتها بيزنطة من عام ١٣٤٧ م حتى عام ١٣٨٢ م . والقى تاريخ الامبراطور حنا ضوعا على الصراع الذي دار بين الجنوية من جهة وبيزنطة والبندقية من جهة ثانية فيما بين عامي ١٣٤٩ - ١٣٥٢ م كما استفاد البحث كثيرا من تركيز المؤرخ الامبراطور حنا على النفوذ الاقتصادي والمالي الكبيرين اللذين تحققا للجنوية في الامبراطورية البيزنطية عامة ومستوطنة غلطا بصفة خاصة .

ومن المصادر اليونانية الهامة التي استفاد منها البحث ، مؤلف المؤرخة البيزنطية آنا كومنين ، ابنة الكيسوس كومنين المسمى The Alexiad وفي هذا الكتاب تحدثت آنا كومنين عن الامتيازات التجارية التي حصلت عليها البندقية في بيزنطة بموجب معاهدة عام ١٠٨٢ م . واعتمدت على كتاب المؤرخ حنا كناموس J. Kinnamos في بحث النشاط التجاري للايطاليين في بيزنطة في عهد الامبراطور حنا كومنين وابنه الامبراطور مانويل . كما اعتمدت على كتاب المؤرخ نيقتاس كونيائس Nicetas Choniates في دراسة النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الامبراطورية البيزنطية منذ عام ١١٨٠ م حتى عام ١٢٠٥ م .

ثالثا : المصادر العربية :

وأمدتنا المصادر العربية المعاصرة بمعلومات هامة لدراسة النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وتعتبر مخطوطة الحنبلي « شفاء القلوب في مناقب بني أيوب » من أهم المصادر العربية التي تحدثت عن النشاط التجاري للمدن الإيطالية في مصر والشام في عهد الايوبيين وبخاصة في عصر السلطان الملك العادل الاول .

أما كتاب محي الدين بن عبد الظاهر « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » فقد ألقى الضوء على العلاقة بين الجنوية والسلطان الظاهر بيبرس والتنافس بين الجنوية والبنداقية في مصر والشام . وترجع أهمية كتاب شافع بن علي « الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور »

الى انه اشار الى نشاط المدن الإيطالية في مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون والسياسة الاقتصادية التي اتبعها قلاوون تجاه التجار الإيطاليين واهتمام السلطان بحماية التجار الإيطاليين وفنادقهم في مصر . أما كتاب بيبرس المنصوري « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » فقد ألقى ضوعا كبيرا على النشاط التجاري للمدن الإيطالية في بيزنطة والبحر الاسود فضلا عن مصر والشام في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ومن المصادر العربية التي أمدت البحث بمعلومات قيمة عن النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط كتاب القاضي عبد الباسط « نيل الامل في ذيل الدول » الذي كتبه ليكون تكملة لكتاب الحافظ شمس الدين الذهبي « دول الاسلام » . وكتاب « صبح الاعشى في صناعة الانشا » للقلقشندي ، ومجموعة مؤلفات أحمد بن علي المقريري خاصة : « ثغر دمياط » و « اغانة الامة في كشف الغمة » و « كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » و « كتاب السلوك لمعرفة الملوك » . وكتابي ابن اياس « جوهر السلوك في اخبار الخلفاء والملوك » و « نشق الازهار في عجائب الاقطار » . وكتاب ابن حجر « بذل الماعون في فوائد الطاعون » . وكتاب « الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين » . وكتاب « الانتصار لواسطة عقد الامصار » لابن دقماق . وكتاب ابن صصري « الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية » . وكتاب ابن ظهيرة « الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة » . وكتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتي . و « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » لابن واصل . وكتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » لابن شاهين . و « المنهاج في علم خراج مصر » للمخزومي . وكتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للدمشقي . و « تاريخ بيروت » لصالح بن يحي . وبالإضافة الى ذلك كله اعتمد البحث على ما كتبه الصيرفي والعمرى والصفدي وابن القلانسي وابن العديم وابن بطوطة وابن جبير وبنيامين التطيلي وابن سعيد المغربي وابن المجاور والادريسي والبلوي والنويري السكندري وغيرهم .

البَابُ الْأَوَّلُ

عَوَامِلُ ازدهار النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية

في الحوض الشرقي للبحر المتوسط

من القرنين الثالث عشر والاربع عشر

الفصل الأول

ظهور القومونات الإيطالية

عاش الغرب الاوربي منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في اواخر القرن الخامس الميلادي ، وحتى بداية القرن الحادي عشر فترة انهيار تجاري ، وذلك لان التنظيم الاقتصادي الذي فرض نفسه ، على امتداد هذه الحقبة التاريخية ، في الغرب الاوربي ، كان تنظيما زراعيا ، شكل النظام الاقطاعي فيه القاعدة الاساسية ، في حين لم يكن للتجارة والصناعة الا دور محلي ضئيل (١) .

وخلال الحقبة نفسها ، كانت ا لصورة في الدولة البيزنطية مغايرة تماما لما كان يجري في الغرب الاوربي ، حيث استمرت القسطنطينية قوة بحرية وصناعية كبرى في عالم البحر المتوسط ، ومركزا رئيسيا للتجارة الدولية وسوقا مزدهرا لمتاجر روسيا والهند والصين وفارس والشام ومصر وشمال افريقية (٢) .

وفي ظل هذا التباين ، بين اقتصاد الغرب الاوربي واقتصاد الدولة البيزنطية ، شكلت شبه الجزيرة الإيطالية ظاهرة اقتصادية متميزة ، مكنتها في النهاية من أن تلعب دورا هاما في اقتصاد العصور الوسطى ، وذلك لان إيطاليا لم تصل الى قمة النظام الاقطاعي الذي وصلته البلاد الواقعة خلف جبال الالب ، كما استمرت التجارة والصناعة فيها اكثر ازدهارا ونشاطا من أية بقعة أخرى في الغرب الاوربي (٣) . وربما كان

(1) Latouche, R. the birth of western economy (London, 1961), P. 301 ; Pirenne, H., History of Europe (London , 1961) P. 20 .

(2) Atiya, A.S., Crusade, Commerce and culture (Bloomington, 1962) , P. 164 ; Pirenne ; Med. Cities (Princeton, 1939) , PP. 84 — 85.

(3) Thompson, J. W. , Economic and social history of the middle ages (Newyork , 1959) , vol. 1, P. 317.

مرجع ذلك الى أن إيطاليا كانت ، لقرون طويلة ، قلب الإمبراطورية الرومانية وحضارتها ، فانهيار التراث الروماني فيها كان أكثر بظنا مما كان عليه في غاليا واسبانيا (٤) ، فقوانين الرومان وتقاليدهم كانت في إيطاليا أكثر صلابة ورسوخا من أي مكان آخر ، والطرق التجارية الرومانية فيها لم تندثر كلية ، كما أن غزوات القوط واللومبارديين لم تدمر كل معالم الحياة المدنية فيها ، بل سرعان ما استأنفت معظم المدن الإيطالية تطورها كمراكز رئيسية للتبادل الاقتصادي ، فضلا عن ذلك كله فقد استمرت طبقة التجار والصناع الحرفيين تمارس نشاطها في المدن الإيطالية في الوقت الذي انعدمت فيه هذه الطبقة في الغرب الأوربي قاطبة آنذاك (٥) .

وإذا أضفنا الى العوامل السابقة الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الإيطالية ، الذي مكنها من أن تفرض نفسها كقوة بحرية تجارية في عالم البحر المتوسط (٦) ، يمكننا أن نفسر لماذا كانت إيطاليا رائدة الأحياء التجاري في القرن الحادي عشر ، ومنطلق الحركة القومونية .

ويلاحظ أن حركة الأحياء التجاري ونمو المدن التجارية الإيطالية عامة ، والبندقية وجنوه وبيزا خاصة ، أدى الى تغيرات كبيرة في البناء الاجتماعي والسياسي لهذه المدن ، وكانت القوة الرئيسية الفاعلة في هذه التغيرات هي ظهور طبقة التجار .

إن عقائد المجتمع الإقطاعي وتقاليد حددت دور كل إنسان والطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، فسكان المدينة الإيطالية كانوا - قبل حركة الأحياء التجاري - من رجال الدين والنبلاء والأقنان وحكومتها كانت إقطاعية كهنوتية ، ومقياس الثروة فيها ملكية الأرض ومواردها ، وفي الوقت الذي كانت فيه السلطة السياسية والاقتصادية في المدينة بأيدي الطبقة الأولى ، أي رجال الدين والنبلاء ، كانت الطبقة الثانية ، أي الأقنان ، تعتبر ارتباطها بالأرض قدرها ، وخدمتها للطبقة الأولى المهمة الأساسية لوجودها ، ولهذا عمل رجال الدين والنبلاء على إبقاء النظام

- (4) Pounds, N. G. , An Economic history of Med. Europe (London, 1974), PP. 103 — 104.
- (5) Ibid. ; Bautire, R. H. The Economic development (London, 1971), P. 65 ; Pirenne ; Med. cities ; P. 112.
- (6) Bautire, Op. cit., P. 65.

القائم للأشياء ، حفاظا على مصالحهم السياسية والاقتصادية (٧) .

وأثار ظهور طبقة التجار تغييرا كبيرا في المجتمع الأوربي الوسيط ، إذ نظر رجال الدين (٨) الى التجارة على أنها خطر على روح الإنسان وحياته لما بها من الربا الفاحش (٩) ، واعتبر النبلاء التجار أعداء النظام الإقطاعي القائم وتنظيماته (١٠) ، في حين رأى الأقنان في التجار منقذين لهم من العبودية وفي التجارة مثالا أعلى للحرية الاجتماعية والاقتصادية .

ولم يرغب التجار ، في البداية ، في تحطيم النظم القائمة داخل المدينة الإيطالية ، وإنما أن تعترف الطبقة الأولى بحقوقهم في المساهمة في وضع قوانين مدينتهم ونظمها ، وفي الحصول على امتيازات ضرورية لطبيعة حياتهم التجارية (١١) ، إلا أنه لم يكن باستطاعة رجال الدين والنبلاء فهم التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها حركة الأحياء التجاري في المدينة الإيطالية ، وما واكب ذلك من ظهور « الطبقة الوسطى » من التجار ، فقد حاولوا تطبيق النظم المفروضة على الأقنان على هذه الطبقة الجديدة من التجار (١٢) ، وصموا آذانهم عن مطالب التجار ، ومن هنا بدأ النزاع بين الطرفين ، في القرن الحادي عشر ، والذي تجسد بالحركة القومونية ، التي قادها التجار ومن خلفهم سكان المدينة ضد القوى السياسية والاقتصادية السائدة أو بتعبير آخر ضد الاساقفة والنبلاء ومن خلفهم الإمبراطورية والبابوية (١٣) .

- (7) Pirenne, Hist. of Europe, P. 220 ; Idem, Med. Cities, PP. 224 — 25.

(٨) كان رجال الدين من كبار ملاك الأرض ، وقد قدرت ثروة الرهبان وخدمهم بثلاث ثروة الدولة في بعض الأحيان ، كما كان الرهبان والاساقفة وغيرهم من رجال الدين يفتنون الأقنان اقتناءهم للأرض كما هو حال العلمانيين ويتصرفون بالعبيد بالبيع والشراء . انظر : كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، الترجمة العربية ، ص ١١٧ .

- (9) Atiya, crusade, Commerce., P. 165.
- (10) Pirenne, Hist. of Europe, P. 210.
- (11) Idem, Med. Cities, PP. 126, 169 — 70.
- (12) Ibid., PP. 173 — 74 ; Idem, Hist. of Europe, P. 220.
- (13) Bautire, op. cit. p. 106.

ان اصطلاح قومون Commune يعني المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي ، وفقا لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة التجارية ، ويختار أهلها حكامهم وموظفيهم بأنفسهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجي يتحكم فيها (١٤) .

واختلف الباحثون في شرح جذور الحركة القومونية ، فاعتبرها البعض ارثا جرمانيا وأرجعها البعض الآخر الى جذور رومانية (١٥) ، إلا أن ما يهمننا أن نؤكد هو أن ظهور الحركة القومونية في المدن الإيطالية كان تحت تأثير حركة الأحياء التجاري من جهة وظهور طبقة التجار من جهة أخرى ، ولم يكن تحت تأثير ارث جرمانى أو رومانى .

وبالرغم من مقاومة النبلاء ورجال الدين لمطامح التجار وأهدافهم فإن هؤلاء ، حتى بداية القرن الحادي عشر ، لم يقوموا بأي أعمال عنف ضد النظام القائم ، فإذا كانت مدينة ميلان قد تحولت ، عام ١٠٥٧ م الى قومون عن طريق استخدام القوة ضد رئيس أساقفتها (١٦) ، إلا أن العنف لم يكن عاملا أساسيا في تحول المدن التي تعيننا في البحث وهي البندقية وجنوة وبيزا ، الى قومونات مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، وذلك لان الحركة القومونية التي قادها التجار في المدن الأخيرة هذه كانت تطورا مسائرا للتطور السياسي والاقتصادي لهذه المدن الإيطالية نتيجة للأسباب التالية :

أولا : لقد أفادت الحركة القومونية في هذه المدن من الفوضى التي دبت في النظام الإقطاعي نتيجة حركة الأحياء التجاري (١٧) ، ومن التمزق الاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تعانيه طبقة الاقنان (١٨) ، وأدت حركة

(14) Pirenne : Med. Cities, PP. 171, 212 .

انظر أيضا : عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(١٥) انظر مناقشة هذه المسألة في :

Hutchinson, oriental trade and the rise of the lombard commuens' PP. 413 — 14.

(16) Pirenne, Med. cities, PP. 171 , 175.

(17) Bautire, op. cit., P. 106.

(١٨) لقد انضم الى الحركة القومونية عدد من الرهبان ورجال الدين للتخلص من فساد

الكنيسة والاساقفة . كما يعتقد هنري بيرين : انظر :

Pirenne, Med. cities, P. 174.

— ٣٠ —

الأحياء التجاري وقيام المدن الى تحرير الاقنان ، بحيث أخذت أعداد كبيرة منهم في مغادرة أراضي أسيادهم واللاحق بالمدن ، خاصة وأن المشاريع التجارية أدت الى استخدام أعداد من طبقة الاقنان في العمل التجاري مقابل أجر نقدي (١٩) .

ثانيا : قاوم النبلاء الحركة القومونية أول الامر ، وتمكنوا من اعاقه تقدمها حيناً ، إلا أنهم لم يتمكنوا من كبح جماحها وبالتالي خضعوا للتغييرات الجديدة خوفاً من أن معارضتهم للحركة القومونية سوف تؤدي بهم الى خسارة كل شيء ، ولهذا سرعان ما بدأ العديد من النبلاء في العمل التجاري والانخراط في صفوف التجار ، بل لم يتوان بعضهم عن مد أيديهم الى أكياس التجار للحصول على قروض للاشتراك في النشاطات التجارية (٢٠) ، وهذا أعطى الحركة القومونية دفعا قويا الى الامام ولعل أبرز مثال على ذلك هو تحول نبلاء مدينة جنوة الى رجال أعمال (٢١) .

ثالثا : لقد أفادت الحركة القومونية من الازمات التي كانت تعانيها الامبراطورية الغربية ومن الصراع بين هذه الامبراطورية والبابوية وذلك لان هذه الصراعات وتلك الازمات كانت فرصة أمام القومونات الإيطالية لتطور أهدافها ، فبعد أن كانت مطامح التجار — وهم قادة الحركة القومونية ، أن تعترف الطبقة الأولى بشرعية وجودهم كطبقة متميزة لها أهدافها ومصالحها الخاصة ، أخذوا يطالبون باستقلال مدينتهم وبأن تحكم نفسها بنفسها وفق أنظمة وقوانين تخدم مصالحهم التجارية وهذا أدى في القرن الثاني عشر والثالث عشر الى صراع طويل بين الإباطرة من جهة والقومونات من جهة أخرى ، وخرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع (٢٢) .

(19) Lopez, R. S., The Dollar of the Middle Ages' JEH, XI (1951) . P. 220 .

(20) Waley, D., The Italian city - Republics (London, 1972), P. 20 ; Hodgett, Asocial and Economic History of med. Europe, PP. 60 — 61 .

(21) Lopez, ' Market expansion ' , P. 448.

(22) Hutchinson, op. cit., PP. 431 — 32 .

— ٣١ —

لقد كانت البندقية ، وحتى مستهل القرن الحادي عشر ، تعتبر مدينة بيزنطية ، ويحكمها مندوب يعينه الامبراطور البيزنطي ، يطلق عليه اسم الـ Dux (٢٣) ، وهو الذي حولته اللهجة البندقية الى دوج Doge (٢٤) ، الا أن الضعف الذي دب في أوصال الدولة البيزنطية ، في أواخر القرن الحادي عشر ، أعطى الفرصة لسكان البندقية ، وبصفة خاصة الطبقة التجارية فيها ، لمعالجة مشاكلهم بأنفسهم دون العودة الى ممثل الامبراطور أو القسطنطينية ، وبالتالي لم يعد الدوج يعين من قبل الامبراطور البيزنطي وإنما أصبح ينتخب من قبل سكان المدينة (٢٥) .

وبالرغم من أن منصب الدوج لم تحتكره عائلة بندقية بذاتها لفترة طويلة ، الا أن مجلس القومون البندقي (السناتو) ، الذي تشكل لأول مرة عام ١١٤٣ م ، كان في معظمه بأيدي العائلات البندقية الثرية (٢٦) ، ولكن اتساع هذا المجلس واختصاصه - فيما بعد - جعله يضم في عضويته كل رجال الاعمال البنادقة ، ومن هذا المجلس انبثقت كل التنظيمات التجارية والإدارية والسياسية والعسكرية ، التي حكمت البندقية ومستوطناتها التجارية في الخارج ، وشكل القومون البندقي خلية اجتماعية متماسكة تمثلت فيها فكرة الوحدة البندقية (٢٧) .

وكان للبراءات والامتيازات التي منحها الاباطرة الالمان ، لكل من مدينتي جنوه وبيزا ، دورا هاما في توطيد تطور الحركة القومونية فيهما ،

(23) McNeill, Venice, P. 4 .

(٢٤) قال ابن سعيد « وملكم يدعى بالدج » ، وقال أبو الفداء والقلقشندي « وملكمهم من أنفسهم يقال له الدوك » . انظر : ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص ١٨٢ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢١١ ، القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

(25) Hyde, J. K. , Society and politics in Med. Italy (London, 1973) , P. 59.

(26) Ibid. , P. 59 .

(27) Brown, H. F. , Studies in the history of venice (London, 1907) , PP. 336 — 37.

فمنذ عام ١٠٥٦ م حصل أهل جنوه على امتياز امبراطوري أكد حقهم في الحصول على الرسوم الجمركية من اسواقهم (٢٨) . ويعتبر هذا الامتياز خطوة هامة نحو تشكيل القومون الجنوبي ، بحيث لم يكد ينتهي القرن الحادي عشر حتى شكلت جنوه قومونا تحت قيادة القناصل المنتخبين من سكان المدينة (٢٩) . وفي عام ١١٩١ م أنهى الجنوية نظام اختيار القناصل (٣٠) من العائلات القديمة ، وقاموا بانتخاب البودستا (٣١) من النبلاء الجنوية لمدة سنة واحدة (٣٢) ، وشكل القومون الجنوبي كتلة اجتماعية واقتصادية واحدة (٣٣) .

ولقد حصل أهل بيزا أيضا على براءة من الامبراطور هنري الرابع عام ١٠٨١ م ، منحهم بموجبها حقهم في السيادة الكاملة على مدينتهم ، كما وعدهم بالآ معين أي مركز في تسكانيا دون موافقة القناصل الاثني عشر الذين ينتخبهم البيازنة لحكم مدينتهم (٣٤) ، وبعد أربع سنوات من هذه البراءة (١٠٨٥ م) شكلت مدينة بيزا قومونا مستقلا (٣٥) ، واتخذ القناصل مكانهم في ادارة المدينة بدلا من السادة الاقطاعيين (٣٦) .

وبالرغم من أن ظروفًا وعوامل عديدة قد ساهمت في ظهور القومونات في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، الا أنها جميعا اتصفت بسمات عامة مشتركة : أولا : ان قيام القومونات في هذه المدن لم يحدث نتيجة قرارات

(28) Waley ; op. cit. ; P. 20 ; Hyde , op. cit., P. 50 .

(٢٩) قال بنيامين التيطلي أن جنوه « لا يحكمها ملك بل شيوخ ينتدبهم الاهلون للقضاء » بنيامين ، الرحلة ، ص ٥٨ .

(30) Hyde, op. cit. , PP. 51 — 52.

(٣١) تحدث القلقشندي عن حكام جنوه قائلا أنهم « جماعة متفاوتو المراتب وهم : البودشطا والكبطان والمشايع » انظر : القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٨ ، ص ٤٦ .

(32) Reynold, ' Business Class' , P. 8.

(33) Ibid., P. 4 .

(34) Bautire, P. 106 ; Hyde , PP. 49 — 50 .

(٣٥) قال بنيامين ان البيازنة : « لا يدينون بطاعة لملك وإنما يمنحون السلطة لشيوخ ينتدبونهم للحكم » . انظر : بنيامين ، ص ٥٨ .

(36) Beazley , The dawn of modern Geography, 11, P. 427 ; Hyde op. cit., P. 50.

الفصل الثاني

التنظيمات التجارية وأثرها في النشاط التجاري للجمهورية

ومن أهم عوامل الازدهار التجاري للمدن الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، هو التطور الكبير الذي حدث في التنظيمات التجارية للقومونات الإيطالية (البندقية وجنوه وبيزا) ، وذلك بظهور الشركات التجارية وتطور أشكال العقود التجارية . فقد خضعت التجارة الإيطالية عبر البحر المتوسط الى بعض الظروف ، أبرزها الاخطار الناتجة عن القرصنة في البحر والحروب والمنافسات التجارية بين الدول التجارية نفسها أو بينها وبين سواها ، وهذا كله منع التجار من المتاجرة كأفراد فيما « وراء البحار » بأنفسهم^(١) ، ولهذا ظهرت أنواع من الشركات التجارية استهدفت تمويل التجارة الخارجية خاصة عبر البحر المتوسط ، وتوزيع المسؤوليات بين الافراد المشتركين في هذه المشاركة أو الشركة : Partnership وسمحت ، بالتالي ، باستخدام اكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال في العمل التجاري^(٢) .

ويعتبر التجار الايطاليون من اوائل التجار الاوربيين الذين استخدموا الشركات التجارية ، ويعود ذلك الى ازدهار النشاط التجاري في المدن الإيطالية ، حتى أننا نستطيع أن نتلمس البدايات الاولى لمثل هذه الشركات التجارية في البندقية منذ القرن التاسع وفي مدينة جنوه منذ اواسط القرن الثاني عشر^(٣) .

وخلال القرن الثاني عشر حل التاجر المقيم محل التاجر المتجول في المدن التجارية الإيطالية ، فعندما انتظمت الرحلات التجارية البحرية وتأسست مستوطنات تجارية للمدن الإيطالية في بلدان الحوض الشرقي

- (1) Lopez, The Commercial Revolution, P. 73.
- (2) Miskimin, The Economy of Early Renaissance , P. 118 ; Byrne , commercial contracts, P. 135 .
- (3) Hodgett, op. cit., P. 62

بابوية أو امبراطورية ، وانما نبعت من الاحوال الواقعية والمبادرات المحلية^(٣٧) . ثانيا : ان تطور القومونات في هذه المدن كان نتيجة تطور القوى الاقتصادية عامة والتجارية خاصة في كل منها^(٣٨) . ثالثا : لقد هيمنت ، عمليا ، على مجالس القومون ، في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، العديد من العائلات الثرية ، ففي البندقية احتكرت حوالي ٢٧ / عائلة نصف مقاعد المجلس الاعلى للقومون ، وفي بيزا احتكرت حوالي ٣٠ / عائلة ثرية الحكم والمناصب الادارية العليا التابعة للقومون^(٣٩) . رابعا : ان القومونات في المدن الالفية الذكر : اتصفت ، كما يقول المؤرخ يعقوب ديفتري ، de Vitry بأن أعضائها « يضعون قوانينهم الخاصة بأنفسهم ويحكمون أنفسهم تحت قيادة رئيس ينتخب من بينهم ويحافظون على تقاليدهم وقوانينهم بدقة وحرص شديد »^(٤٠) .

وبذلك لم يواجه التجار الايطاليون ، اثناء سعيهم لتحويل مدنهم الى قومونات مستقلة ، واثناء صراعاتهم مع النبلاء والاساقفة ، أي تمييز عرقي أو ديني معاد لهم كما واجه التجار اليهود ، ولم يكن التجار الايطاليون بعيدين عن البحر المتوسط ، الذي كان قلب التجارة بالنسبة الى الشرق والغرب ، كما هو الحال بالنسبة الى الاسكندنافيين كما انهم لم يكونوا مقيدين بنظم اقتصادية قديمة أو بقوانين تجارية مفروضة عليهم من السلطات الامبراطورية أو الحكومات المحلية ، كما هو الحال بالنسبة الى التجار البيزنطيين ، ولهذا سرعان ما تحلوا من القيود التي كانت تربطهم بالسلطة القديما ، وتخلصوا من القوانين التي لا تخدم مصالحهم التجارية ، وشكلوا قومونات حرة في مدنهم ، هي في حقيقتها : حكومات للتجار وبواسطتهم ومن أجلهم ، قومونات قادت تجارة عالم البحر المتوسط وتحكمت بثرواته خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

- (37) Hyde, op. cit., P. 54 .
- (38) Hutchinson, op. cit. , PP. 431 — 32.
- (39) Gies, F., Life in a med. city ; P. 200 .
- (40) Devitry, J., The Hist. of Jerusalem, P. 57.

للبحر المتوسط ، لم يعد أمرا ضروريا أن يسافر التاجر بنفسه لجلب السلع والمتاجر ، وإنما استخدم بعض هؤلاء التجار وكلاء أو مندوبين عنهم مهمتهم البحث عن المشترين والسلع والمتاجر ، إلا أن المسألة التي واجهت التاجر المقيم في هذه الحالة ، هي إيجاد من يثق به في الأسواق التجارية النائية ، ومن هنا كان الحل الأول لهذه المسألة هو ظهور الشركة العائلية^(٤) .

لقد كانت الشركة العائلية Family Partnership أقدم التنظيمات التجارية التي عرفتها المدن الإيطالية^(٥) ، وبالتالي القاعدة الأساسية للحياة التجارية وتطورها في إيطاليا بصفة عامة والبنديقية بصفة خاصة^(٦) . واستمد هذا الشكل من التنظيمات التجارية أصوله من طبيعة الحياة العائلية ذاتها ، فالأخوة كانوا يعيشون ، في معظم الأحيان في منزل واحد ، ولهذا اتفقوا على استثمار أموالهم أو منتجاتهم في مشروع تجاري مشترك^(٧) ، فأخذ الأخوة مثلا كان يعيش في البنديقية ، في حين كان يعيش الأخوة الآخرون فيما وراء البحار ، ويتبادلون فيما بينهم الصفقات التجارية^(٨) ، ولدينا مثال على ذلك ، يعود إلى أواسط القرن الرابع عشر ، وهو أن ثريا بنديقا اسمه فديريكو كورنر F. Corner ومعه أخويه الاثنين ، أحدهما عاش في قبرص وأخذ يشحن التوابل والقطن والمتاجر الشرقية الأخرى إلى مدينة البنديقية ، في حين قام الأخ الآخر بتسويق هذه السلع والمتاجر في البنديقية نفسها ، وأرسل بعد ذلك إلى أخيه في قبرص أموالا نقدية للحصول على مشتريات أخرى ، وكان يرسل له بعض المتاجر لكي تباع في قبرص ، وفي مثل هذه الحالة فإن كل أخ مسؤول مسؤولية كاملة عن ديون أخيه^(٩) .

وقد شاع هذا النوع من الشركات العائلية في البنديقية بصفة خاصة ، حيث اشتركت العديد من العائلات الثرية في البنديقية في هذه الشركات^(١٠) ،

- (4) Lane F., *Amaritime Republic*, P. 137.
- (5) Mcneill, *op. cit.*, P. 17 .
- (6) Lane, 'Family Partnerships', P. 178.
- (7) Ibid., PP. 178 — 80
- (8) Idem, *Amaritim Republic*, P. 138.
- (9) Ibid., P. 138.
- (10) Ibid., P. 138.

ولقد اثبت لين Lane أن العديد من عائلات البنديقية قد عاشت في ظل هذا التنظيم « كوحدة تجارية متكاملة » وقامت بنشاطاتها التجارية كشركاء بدون أية عقود رسمية فيما بينهم وسرعان ما أصبحت الشركات العائلية أبرز أشكال التنظيمات التجارية انتشارا في البنديقية^(١١) .

وتطلب الازدهار التجاري في المدن الإيطالية ، وما تبعه من تعدد المشاريع والنشاطات التجارية استخدام رؤوس أموال كبيرة ، ولهذا اتسعت التنظيمات التجارية وتعددت ، فبعد أن كانت ضمن العائلة الواحدة - كما رأينا - اتسعت لتشتمل على رؤوس أموال من خارج نطاق العائلة الواحدة^(١٢) . وبذلك ظهرت تنظيمات تجارية اشتملت على أفراد من عائلات عديدة ، وساهم هؤلاء الأفراد بمبالغ كبيرة بهدف القيام بمشاريع تجارية مشتركة^(١٣) . واتخذت هذه المشاريع أو التنظيمات التجارية ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، شكل مشاركة بفقود تجارية رسمية ، تم توقيعها بين طرفين أو أكثر لتنفيذ مشروع تجاري معين ، وحددت في هذه العقود التجارية مدة المشروع ورأس المال ومسؤولية كل طرف من الأطراف الموقعة عليه ونسبة الأرباح التي يجب أن يتقاسمها كل منهما ، وكانت العقود التجارية هذه النواة الأولى لقيام الشركات الحديثة .

وكانت العقود المسماة في البنديقية الـ Colleganza وفي بقية المدن الإيطالية الـ Commenda أي بمعنى زمالة^(١٤) ، من أبرز العقود التجارية التي استخدمتها المدن الإيطالية بصفة عامة والبنديقية وجنوه بصفة خاصة^(١٥) ،

- (11) Idem, 'Family partnerships', P. 179.
- (12) Atiya, *crusade, Commerce* ; P. 196.
- (13) Lane, 'Family Partnerships', P. 178.

(١٤) يقابل نظام الكومندا هذا ، في تاريخ التجارة عند المسلمين ، نظام « القراض والمقارضة » . وبالتالي لم يكن الإيطاليون هم الذين ابتدعوا هذا النظام التجاري وإنما وجد في العالم الإسلامي قبل أن تعرفه أوروبا . بل من المؤكد أن التجار الإيطاليين قد استفادوا من التجربة الإسلامية في هذا الميدان . انظر : نجات الباشا : التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ، ص ٧٣ - ٧٥ .

- (15) Mcneill, *op. cit.*, P. 17 ; Lopez ; *commercial Revolution* , P. 76. Byrne ; 'Commercial contracts' P. 152.

لتمويل مشاريعها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وهي عقود تجارية رسمية تم توقيعها بين تاجرين ، أولهما : مقيم في المدينة - كجنوه أو البندقية مثلا ، ويسمى الـ Stans ويساهم بكامل رأس مال المشروع التجاري ، وثانيهما الشريك المسافر ويسمى الـ Tactator وهو لا يساهم بأي مبلغ في رأس المال وإنما مهمته ، استثمار الأموال فيما وراء البحار بعمل تجاري يحدده له الطرف الأول (١٦) ، وكان الطرف الثاني يتحمل مسؤولية كل الأضرار والمخاطر الناتجة عن الرحلة ، في حين كان الطرف الأول يتحمل مسؤولية كافة الخسائر التي تلحق برأس المال (١٧) . وبعد العودة كان يتقاسم الطرفان أرباح المشروع التجاري بينهما وفقا لنسب اتفقا عليها مسبقا ، إلا أن الدراسات التي قام بها عدد من أبرز المتخصصين في التاريخ الاقتصادي حول هذه المسألة ، أمثال بيرن Byrne ولين Lane ولوبيز Lopez وباوندس Pounds وهودجت Hodgett وغيرهم ، أثبتت أن الأرباح في مثل هذه العقود كانت تتوزع بين الطرفين ، بحيث يأخذ الطرف الأول $\frac{3}{4}$ الأرباح في حين يأخذ الطرف الثاني الـ $\frac{1}{4}$ الباقي (١٨) .

وهناك نوع آخر من العقود التجارية ، انتشر استخدامه في المدن الإيطالية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، سميت بالعقود البحرية Societas Maris وقد تم توقيعها بين طرفين أولهما الـ Stans وهو يقيم في الوطن ، ويساهم بـ $\frac{2}{3}$ من رأس المال اللازم للمشروع التجاري ، وثانيهما الـ Tactator وهو الذي سيقوم بعملية استثمار الأموال فيما وراء البحار ويساهم بـ $\frac{1}{3}$ الباقي من رأس المال اللازم (١٩) ،

- (16) Hodgett, op. cit., P. 62., Pounds, op. cit., PP. 420 — 21.
 (17) Lopez, The commercial Revolution, PP. 76 — 77.
 (18) Byrne ; commercial contracts ' , PP. 152 — 53 ; Lane .
 Amaritime , PP. 138 — 39 ; Lopez, The commercial Revolution, PP. 76 — 77 ; Pounds, op. cit., PP. 420 — 21 ; Hodgett, op. cit. ; P. 62 ; Mcneill, op cit., P: 17: Gies, op: cit., P: 214
 (19) Byrne, ' Commercial contracts ' , P. 136 .
 Miskimin , op. cit., P. 118 .

وفي هذا النوع من العقود يحق للطرف الأول ، أي المستثمر ، أن يقرر المكان الذي يجب أن يتجه اليه الشريك الثاني وأنواع المتاجر التي يجب أن يجلبها معه ، في حين يجب على الشريك الأول نفسه أن يتحمل مسؤولية بيع كل المتاجر التي يجلبها الشريك الثاني معه من رحلته ، وفي هذه النماذج من العقود تكون الأرباح مناصفة بين الشريكين المتعاقدين (٢٠) وقد كشف بيرن Byrne أن معظم العقود التجارية التي استخدمها الجنوي في شرق البحر المتوسط بصفة عامة والشام بصفة خاصة ، كانت من هذا النوع من العقود ، كما أوضح بيرن أن رأس المال اللازم في هذه العقود قد يكون سلعة أو قد يكون مبالغ نقدية (٢١) .

ولقد تطورت العقود التجارية تطورا ملموسا ، بحيث أصبح بالإمكان إشراك رؤوس أموال كثيرة لاستثمارها في مشاريع تجارية (٢٢) ، ولهذا نجد أن الإيطاليين قد استخدموا أنواعا أخرى من العقود التجارية ، اشتملت على عدة أطراف ، وليس على طرفين ، كما هو الحال في عقود « الزمالة » والعقود البحرية ، ولكن كانت هذه العقود محددة بفترة زمنية معينة أو لرحلة تجارية واحدة . وكانت الأرباح والخسائر توزع في النهاية بين المساهمين جميعا في هذا المشروع (٢٣) ، فمثلا كان يجمع عدد من الأشخاص مبلغا كبيرا من المال لشراء المتاجر من ما وراء البحار ، كسواء الفلفل من سلطان مصر ، وبعد أن ينفذ العقد يتم توزيع الأرباح بين المساهمين في المشروع كل وفقا للمبلغ الذي شارك به (٢٤) .

كما انتشرت في البندقية وجنوه بصفة خاصة ، عقود تجارية أطلق عليها اسم عقود السفينة ، وهي أن يقوم عدد من التجار باستئجار سفينة تجارية من حكومة المدينة (البندقية أو جنوه) ، لرحلة تجارية واحدة (٢٥)

- (20) Hodgett, op. cit., PP. 62 — 63.
 (21) Byrne , Commercial contracts ' , PP. 136 — 37 , 144.
 (22) Lopez, ' The Dollar ' , P. 224 .
 (23) Byrne, ' Commercial contracts ' , PP. 142 — 43 .
 (24) Lane , Amaritime ., P. 138
 (25) Ibid., P. 138 .

أو أن يقوم عدد من التجار بشراء سفينة تجارية عن طريق المشاركة ، وفي هذه الحالة فإن التجار ، وهم ملاك السفينة أو مستأجروها ، سيعملون على تأمين الحماية لأنفسهم وسفينتهم ومتاجرهم ، وبذلك تضاعفت نسبة الخسائر في مثل هذه العقود التجارية ، لأن الخسائر كانت توزع في حال حدوثها ، وفقا لاسهم المشتركين في السفينة (٢٦) .

وفي أواخر القرن الثالث عشر ومستهل القرن الرابع عشر حدث تطور في العقود التجارية ، فبعد أن كان عقد المشاركة صالحا أو محددا برحلة تجارية واحدة ، ظهرت نماذج أخرى من العقود التي تستمر الشركة بين أطرافها لعدة سنوات أو لا تنتهي الشركة بمثل هذه العقود إلا بموت أحد الشريكين المتعاقدين (٢٧) .

وبلاحظ أن السجلات المتعلقة بكافة العقود التجارية أو عقود الشركات التي استخدمتها المدن التجارية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أشارت إلى الفئات الاجتماعية التي استثمرت أموالها في مشاريع تجارية عبر البحر المتوسط ، بحيث اشتملت على التجار المحترفين والنبلاء ورجال الدين والصناع والحرفيين والارامل واصحاب الحوانيت (٢٨) .

وكانت طوائف التجار أولى التنظيمات التجارية التي أقامها تجار المدن الإيطالية (٢٩) ، ورغم أن هذه الطوائف تمثل في حقيقتها غريزة التضامن للمحافظة على الذات إلا أنها كانت في الوقت نفسه جهدا بناء واعيا (٣٠) . وتعود أصول الطوائف التجارية إلى حصول تجار المدن الإيطالية على براءة من سادة هذه المدن أو بعض الإباطرة انطوت على حقهم في تشكيل تنظيمات تجارية (٣١) . وبالرغم من أننا لا نستطيع أن نحدد التاريخ الدقيق لظهور

طوائف التجار في المدن الإيطالية ، إلا أن معظم المؤرخين قد اتفقوا على أن الطوائف التجارية المنظمة كانت موجودة في بعض المدن الإيطالية التي كانت تابعة للدولة البيزنطية في العصور المبكرة ، مثل تلك الطوائف التي كانت تدفع ضرائب إلى حكام المدينة ، مقابل حصولهم على حق احتكار تجارتها (٣٢) .

وحتى أواسط القرن الثاني عشر ، كانت طوائف التجار ، في المدن الإيطالية ، لا تضم التجار فحسب وإنما انضم إليها العديد من الحرفيين والصناع وأرباب المهن ، بحيث اتسمت الطوائف التجارية فيها بسمة تجارية ومهنية في آن واحد (٣٣) ، ولكن سرعان ما حدث التخصص داخل الطوائف التجارية ، فنشأت طوائف أرباب الحرف وهي مجموعة طوائف أو نقابات مهنية كانت تضم أفراد الحرف الواحدة لرعاية مصالح هذه الحرفة وأعضائها كطائفة الخبازين ، وطائفة تجار الحرير والفراء والصوف وتنوعت حتى وصلت إلى الذروة في القرن الرابع عشر (٣٤) .

واستهدف التجار من خلال طوائفهم التجارية حماية أنفسهم من اعتداءات الأمراء ونهبهم من ناحية ورعاية مصالحهم التجارية من ناحية أخرى (٣٥) ، فضلا عن أن الطوائف التجارية فتحت للتجار فرصا تجارية في المدينة وخارجها (٣٦) .

إلا أن ازدهار القومونات في كل من البندقية وجنوه وبيزا ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، قد أدى إلى تقلص دور الطوائف التجارية ونفوذها في هذه المدن ، وذلك لأن تجار هذه القومونات قد شعروا بأنهم ليسوا بحاجة إلى أي تنظيمات خاصة للعناية بمصالحهم التجارية طالما أن الاهتمام الأول لحكومات قوموناتهم هو العناية بشؤونهم التجارية وحماية

(32) Luzzato, An Economic History of Italy, P. 82 .

(33) Ibid. , P. 82 .

(٢٤) انظر : كرامب وياكوب : تراث العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ ، أيضا :

Pounds, op. cit., P. 288

(35) Hodgett, P. 58 .

(36) Pounds , op. cit. ; P. 288 .

(26) Hodgett, op. cit., P. 64.

(27) Roover, ' The Commercial Revolution ' ; P. 35 .

(28) Hodgett, op. cit. ; P. 63 .

(29) Pounds, op. cit. , P. 287.

(٣٠) كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، الترجمة العربية ص ١٩٥ .

(31) Pounds, op. cit. , PP. 287 — 88 .

مصالحهم واعمالهم التجارية في داخل مدنهم وخارجها(٣٧) .

ومن أبرز سمات التنظيمات التجارية في حياة المدن في ذلك الدور من تاريخ العصور الوسطى كان انعقاد الاسواق التجارية الموسمية في هذه المدن من جهة وتعدد تجارها بصورة منتظمة على الاسواق التجارية الكبرى من جهة ثانية ، وهذا كله شكل بدوره أحد العوامل الهامة في ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وكانت تعقد أسواق تجارية موسمية في المدن الإيطالية ، واتفق موعد انعقادها مع وصول القوافل التجارية الإيطالية من الشرق ، كما هو الحال في سوق عيد الميلاد في مدينة البندقية ، الذي كان يعقد مع وصول الاسطول التجاري للبندقية من الاسكندرية وبيروت في شهر أكتوبر ، وعلى الرغم من أن معظم الذين كانوا يشهدون هذه الاسواق هم تجار المدن المجاورة للبندقية ، إلا أنها اعطت دفعا قويا لتجار المدن الإيطالية ونشاطهم وحقت لها سمعة عالمية(٣٨) .

ومنذ أواخر القرن الحادي عشر ، أخذ التجار الإيطاليون يترددون على الاسواق التجارية الكبرى التي كانت تعقد في الغرب الأوربي ، مثل سوق سانت مارتين St. Martin في مقاطعة بروفانس وسانت دينس St. Denis قرب باريس(٣٩) . والدليل على ذلك أن البابا جريجوري السابع كتب إلى العديد من الاساقفة الفرنسيين ، عام ١٠٧٤ م ، يهاجم الملك الفرنسي الذي سمح لتجار الإيطاليين في زيارة اسواق فرنسا وسلبها(٤٠) .

إلا أن أشهر الاسواق التجارية الكبرى التي تردد عليها تجار المدن الإيطالية بشكل منظم ، منذ أواخر القرن الثاني عشر ، كانت اسواق

(37) Lane, Maritime Republic , P. 104 ; Brown, Studies PP. 345 — 46.

(38) Lane, ' Fleets and Fairs ' PP. 134 — 35 .

(39) Bautrie, The Economic development, PP. 108 — 109 .

(40) Ibid., P. 109 .

شامبيني Champagne ويقع اقليم شامبيني بين فرنسا والفلاندر ، مما جعله الملتقى الطبيعي لتجار الجنوب بتجار الشمال ، والمركز المفضل لتبادل التجارة بين عدد كبير من تجار أوربا(٤١) . حيث جذب اليه تجارا من الفلاندر والمانيا وفرنسا وإيطاليا وصقلية وإسبانيا(٤٢) .

وكانت أسواق شامبيني في معظمها أسواق لبيع الجملة ، وتعقد على مدار السنة كلها(٤٣) . وحقق أمراء شامبيني الامن والحماية للتجار الذين يشهدون هذه الاسواق ، وفرضوا عقوبات صارمة على كل تاجر يخالف القوانين والانظمة المرعية في الاسواق(٤٤) ، كما أقاموا شبكة متطورة من الطرق والمواصلات وأشادوا العديد من الابنية التجارية في الاسواق(٤٥) كما أقاموا أيضا المحاكم في الاسواق ، بحيث كان يحق لأي تاجر ، مهما تكن جنسيته ، ان يتجه اليها للدفاع عن حقوقه(٤٦) .

واجتاز التجار الإيطاليون المرات الابلية ، وخاصة ممر القديس برنارد St. Bernard الوصول الى أسواق شامبيني(٤٧) ، وكانوا يحملون معظم متاجر بلدان البحر المتوسط وسلعها ، مثل المنسوجات الصوفية من إيطاليا والشب من مصر(٤٨) ، والذهب والفضة من شمال أفريقيا والسجاد من فارس ، فضلا عن متاجر الشرق الأقصى كالحرير الصيني ، والتوابل الهندية(٤٩) ، في حين اشترى تجار المدن الإيطالية الكبرى البندقية وجنوه ويزا ، من أسواق شامبيني الاقمشة والمنسوجات

(٤١) انظر : عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(42) Roover, op. cit., P. 34 .

(43) Gies, op. cit., PP. 211 — 13 .

(44) Pirenne, Economic and Social, PP. 99 — 100 .

(45) Bautrie, op. cit., , P. 110 .

(46) Gies, op. cit., P. 213.

(47) Baker, med. trade routes, P. 11 , ; Hodgett , op. cit. , PP. 106 — 107 .

(٤٨) كان الشب يستخرج في مصر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أي قبل ان تبدأ جنوه باستثمار مناجم الشب في آسيا الصغرى . انظر :

Bautrie, op. cit. , P. 112 .

(49) Atiya, Crusade, Commerce, P. 178 .

الفرنسية والفلمنكية Flemish ، والتي أصبحت على أيدي التجار الإيطاليين الصادرات الرئيسية للغرب الأوربي إلى بلدان شرق البحر المتوسط (٥٠) .

والذي يهمننا أن نؤكد أنه أسواق شامبني كانت عاملا أساسيا من عوامل ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وخاصة إذا عرفنا أن هذه الأسواق كانت المصدر الرئيسي للاقمشة المختلفة التي انتقلت إلى أيدي التجار الإيطاليين من شمال أوربا ، والتي أخذت طريقها إلى أسواق بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مثل بيزنطة ومصر والشام (٥١) .

الفصل الثالث

أنواع النقود والتنظيمات المصرفية وأثرها في النشاط التجاري للجمهورية الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ولعل من أهم عوامل ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط هو إصدار بعض المدن التجارية الإيطالية عملات ذهبية مستقلة خاصة بها مكنتها من تحرير تجارتها من النظم النقدية السائدة وقتذاك في عالم البحر المتوسط من جهة ، وتطوير تنظيماتها المالية والمصرفية من جهة أخرى .

فمن المعروف أن العملة الذهبية للامبراطورية البيزنطية ، وهي النوميسما Nomisma (١) ، قد تمتعت بالتفوق المطلق على جميع العملات النقدية فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين وفرضت نفسها على شعوب عالم البحر المتوسط (٢) ، وتعود هذه الشهرة للنوميسما إلى وزنها الذهبي ونقاؤه من جهة (٣) وإلى ثبات قيمتها واستقرارها من جهة ثانية (٤) ، وإلى قوة الاقتصاد البيزنطي وازدهاره من جهة ثالثة (٥) .

(١) ان النوميسما البيزنطية هي الوارثة الشرعية للصولدي الروماني Solidus وقد اطلق الاغريق على الصولدي في العصور الوسطى اسم النوميسما كما سميت بالبيزانت Bezant وفي القرن الثاني عشر اتخذت اسم الهيروبيرون Hyperperon عن ذلك انظر Cipolla, Money, Prices and civilization , P. 16, N. 5.

(2) Cipolla, op. cit., P. 16 ; Rabie , The Financial System, P. 190

(٣) توصل عدد من الباحثين إلى أن محتويات النوميسما البيزنطية من الذهب كانت ٤٠ جراما أي أكثر وزنا من أبة عملة ذهبية معاصرة انظر :

Lopez , The Dollar ' P. 211 .

(4) Ibid. , P. 220 .

(5) Atiya, Crusade , Commerce , PP. 163 — 64 .

(50) Roover, ' The commercial Revolution ' , P. 34 .

(51) Bautire , op. cit. , P. 112 .

وفي العقد الأخير من القرن السابع الميلادي ظهر الدينار الإسلامي الذهبي ليشكل نقطة تحول حقيقية في التاريخ النقدي لشعوب البحر المتوسط (٦) ، فعلى الرغم من أن الدينار لم يتمتع بثبات النوميما وسمعتها (٧) ، إلا أنه نجح في منافستها في المعاملات التجارية والمالية لا في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فحسب وإنما في إيطاليا وأوروبا الغربية أيضا (٨) .

وفي الوقت الذي كانت السيادة فيه للعملة الذهبية البيزنطية والإسلامية في التجارة الدولية ، كانت شبه الجزيرة الإيطالية ، ومعها أوروبا الغربية ، غارقة في نظام نقدي يعتمد على الفضة كأداة للتبادل التجاري والمعاملات المالية (٩) . - وذلك لأن النظم القطاعية ، التي فرضت نفسها على الغرب الأوروبي - كما أسلفنا - اعتمدت على المقايضة ، والضرائب كانت تدفع نوعية (عينية) وليست نقدية . ولهذا لم يكن أمام تجار المدن الإيطالية - في مرحلة الأحياء التجاري - سوى استخدام العملات الذهبية

(٦) يرى سيولا أن دوافع الخليفة عبد الملك بن مروان في سك الدينار الذهبي الإسلامي هي رغبته في التخلص من نفوذ النوميما البيزنطية والدرهم الفضي الفارسي ، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي والمالي للعالم الإسلامي . انظر :

Cipolla, op. cit., P. 19 .

« إلا أن العودة إلى المصادر العربية تؤكد أن عبد الملك قد سك العملة العربية الإسلامية لغرض سياسي ، وهو العمل على إلغاء الصلح الذي كان بينه وبين البيزنطيين والذي كان يؤدي عبد الملك بمقتضاه أتاوة سنوية . وهذا ما حدث فعلا ، حيث امتنعت بيزنطة عن أخذ عملة عليها آيات قرآنية ، واعتبرتها إهانة موجهة للدولة البيزنطية ، ثم توترت العلاقة بين العرب والروم وتخلص عبد الملك من أداء هذه الأتاوة نتيجة لسكه هذه العملة . فضلا عن ذلك كله فقد أراد عبد الملك بسكه هذه العملة العربية الإسلامية استكمال تعريب دولته » .

(٧) توصل سيولا في دراسته إلى أن محتويات الدينار الإسلامي من الذهب كانت ٤٢٥ جراما . انظر : Ibid., P. 22 .

(٨) انظر : مارك بلوك : « مشكلة الذهب في العصر الوسيط » الترجمة العربية ، ص ٢٠ .

(٩) توقف سك الذهب في الغرب الأوروبي في مستهل القرن التاسع . انظر مارك بلوك : مشكلة الذهب ، ص ١٢ ، ١٦ .

البيزنطية والإسلامية (١٠) ، في تجارتهم مع بلدان شرق البحر المتوسط (١١) .

وكان أن أدركت البندقية ضرورة إيجاد عملة فضية أكثر أهمية من العملات الفضية التي ورثتها إيطاليا من الإمبراطورية الكارولنجية (١٢) وذلك لمواجهة متطلبات نشاطها التجاري والمالي ، وكان الدوج آنريكو داندولو Enrico Dandolo أول من سك عملة فضية للبندقية ، وذلك عام ١٢٠٢ م ، لتمويل الحملة الصليبية الرابعة ، وأطلق عليها اسم Groats أو Grosso (١٣) ، وكان وزنها ٢١٨ جراما ، ونسبة الفضة فيها ٩٦٥٪ (١٤) ، وعلى الرغم من الجدل القائم بين الباحثين ، فيما إذا اقتصر انتشار العملة الفضية للبندقية على شبه الجزيرة الإيطالية ، كما ذهب إلى ذلك باوندس Pounds (١٥) أو فيما إذا انتشرت في منطقة البحر المتوسط ، جنباً إلى جنب النوميما البيزنطية والدينار الإسلامي ، كما ذهب إلى ذلك سيولا (١٦) ، فإن الذي يهمنا أن نؤكد أن العملة الفضية التي أصدرتها البندقية قد مهدت الطريق للتطورات الاقتصادية التي حدثت بعد ذلك في البحر المتوسط .

(١٠) سك المرباطون في سجلنامه ديناراً ذهبياً عام ١٠٥٨ (٤٥٠ هـ / عرف باسم الدينار المرباطي ، وكانت نسبة الذهب فيه ٩٢٢٪ واعتمد على الذهب القادم من السودان ، ولقد نال هذا الدينار احتراماً في الأسواق الدولية بصفة عامة وانتشر في المدن الإيطالية التي كانت لها نشاطات تجارية واسعة في شمال أفريقية في القرن الثاني عشر انظر تفصيل ذلك :

Messier, R. A. , ' The Almoravids ' , JESHO , XVII (1974) PP. 32 — 34 .

(11) Lopez, ' The Dolar ' , P. 219 ; Idem, The Commercial Revolution, PP. 70 — 71 ; Lane , operation ' P. 188 .

(12) كان الإمبراطور شارلمان قد سك دنانير فضية وزنها ١٧٢ جراما ونسبة الفضة ٩٥٪ .

Pounds , op. cit., PP. 114 — 15 . انظر :

(13) Watson A. M. , ' Back to Gold — and silver ' P. 17 , Bautire , op. cit., 16 ; Gies, op. cit., P. 100 .

(14) Lane , A maritime. , PP. 148 — 49 .

(15) Pounds, op. cit., P. 118 .

(16) Cipolla , op. cit. , P. 20 .

وكانت أول محاولة جرت في إيطاليا ، في العصور الوسطى ، لسك عملة ذهبية ، كانت تلك التي قام بها الملك النورماني روجر الثاني ، ملك صقلية وجنوب إيطاليا ، عام ١١٤٠ م ، والتي اشتهرت بالتارين Tarin (١٧) .

ويتساءل الباحث عن السبب في أن أول محاولة لسك العملة الذهبية في أوروبا العصور الوسطى قد بدأت في صقلية ؟ ويبدو أن تفسير ذلك هو أنه عندما احتل النورمان صقلية وطردوا العرب منها - في أواخر القرن الحادي عشر - وجدوا امامهم تراثا نقديا عربيا اسلاميا في الجزيرة ، وبالتالي لا بد أنهم استفادوا من التجربة العربية الاسلامية التي جرت في صقلية في هذا الميدان .

وبعد قرابة قرن جرت المحاولة الثانية في إيطاليا لسك عملة ذهبية ، وكانت تلك التي أصدرها الامبراطور فردريك الثاني في مسينا وبرانديزي ، عام ١٢٢٨ م ، والتي اشتهرت باسم الاغوستاليس Augustalis (١٨) .

ان دخول المدن الإيطالية ميدان التجارة العالمية ، وخاصة في عالم الشرق - حيث كانت توجد أكثر من عملة ذهبية معروفة (بيزنطية واسلامية) استلزم من المدن الإيطالية أن تكون لها عملاتها الذهبية وبالتالي نقدا ذا قيمة عالية ، وقاعدة نقدية ذهبية لتمويل مشاريعها التجارية ، ولهذا بدأت بعض المدن الإيطالية ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، باصدار عملات ذهبية اعتمادا على الذهب الذي كان يتدفق عليها من خلال تجارتها الخارجية النشطة . فمدينة جنوة ، التي اعتادت استخدام النوميسما البيزنطية والدينار الاسلامي في تجارتها في عالم البحر المتوسط ، كانت أول مدينة إيطالية سكت نقدا ذهبيا مستقلا ، وذلك عام ١٢٥٢ م ، عرف باسم Januino أو Genovino ، وكان وزنها ٣ر٥ جراما من الذهب الخالص تقريبا (١٩) . وفي العام نفسه أصدرت فلورنسا عملة ذهبية

(١) مارك بلوك : « مشكلة الذهب » ، ص ٥ ، ايضا : Atiya Crusade , Commerce. , P. 188 .

(١٨) Cipolla, op. cit. , P. 24 ; Bautire, op. cit. , P. 163 .

(١٩) Hodgett, op. cit., P. 104 ; cipolla, op. cit., PP: 20 — 21 ; pounds, op. cit. P. 118 .

عرفت باسم الفلورين Florino d'ore ، وكان وزنها ٣ر٥٣ جراما من الذهب الخالص تقريبا (٢٠) . ولم يمض وقت طويل حتى أصدرت البندقية عملة ذهبية عام ١٢٨٤ (٢١) ، عرفت باسم الدوكات Ducat (٢٢) ، وكان وزنه ما بين ٣ر٥٥ جراما و ٣ر٥٦ جراما ونسبة الذهب فيه ٩٩٧٪ (٢٣) .

ويجدر بنا أن نشير الى أهم المصادر التي استمدت منها هذه المدن الذهب الذي مكنها من اصدار عملاتها الذهبية ، فمن المعروف أن إيطاليا تفتقر الى مناجم الذهب ، وأن المدن الإيطالية التجارية قد حصلت على الذهب من خلال تجارتها الخارجية النشطة في شمال أفريقيا (٢٤) وبيزنطة (٢٥) ومصر والشام (٢٦) ، وكانت المدن الإيطالية تشتري السلع والمتاجر من الغرب الاوربي بالفضة وتتسلم أثمانها في أسواق البلدان التي تتاجر معها بالذهب ، فضلا عن ذلك كله فقد أصبحت مناجم ألمانيا - منذ أوائل القرن الرابع عشر - مصدرا هاما للذهب بالنسبة للمدن الإيطالية ، وبصفة خاصة البندقية (٢٧) .

وعلى أية حال ان ظهور العملات الذهبية الإيطالية أحدث تطورا كبيرا في تجارة البحر المتوسط ، فاذا كانت للنوميسما البيزنطية والدينار الاسلامي السيادة في عالم البحر المتوسط حتى أواسط القرن الثالث عشر تقريبا ، فان الفلورين الفلورنسي والدوكات البندقية ، قد انطلقا من إيطاليا ، وتحققت لهما السيادة في تجارة عالم البحر المتوسط من أواسط

(20) Lopez, ' The Dollar ' ; P. 213 ; Bautire, op. cit. , PP.

163 — 64 ; Cipolla, op. cit. PP. 20 — 21 .

(21) Rabie, op. cit. ; P. 190 ; Watson . op. cit. ; PP. 15 — 17 .

(٢٢) أشار القلقشندي الى الدوكات البندقية بقوله « ودنانيرهم أفضل دنائير الفرنجة ويقال له دوكات نسبة الى الدول الذي هو ملكهم » . انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ص ٤٤١ . ج ٥ ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(23) Lane, Amaritime . PP. 148 — 49 ; Rabie, op. cit. , P. 191 .

(24) Watson, op. cit., P. 14.

(25) Lopez, ' The Dollar ' , P. 229 .

(26) Rabie, op. cit. , P. 186 ; watson, op. cit. ; PP. 14 ; 16 .

(٢٧) مارك بلوك « مشكلة الذهب » ، ص ٣٦ .

القرن الثالث عشر حتى نهاية العصور الوسطى (٢٨) .

ان احتفاظ الفلورين والدوكات بقيمتها ، من حيث نقاء ذهبهما وثبات وزنهما ، كان عاملا أساسيا أيضا في انتصارهما ، وذلك لانه مكنهما من أن يصبحا من وسائل التبادل التجاري والمالي ، وأن يقبلهما التجار في جميع أنحاء البلاد ، وأن يستمررا ضمانا ماليا حتى أواخر العصور الوسطى (٢٩) . حقيقة أن نجم الفلورين الفلورنسي أخذ بالافول منذ أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، وذلك نتيجة إصدار فلورنسا لنماذج من الفلورين أقل في وزنها ومحتواها الذهبي من عملتها الأصلية الأولى ، فضلا عن أن عددا من دور السك خارج فلورنسا أخذت في تقليد الفلورين أقل في وزنها ونقاؤها من الفلورين الأصلي (٣٠) . ولا ريب في أن هذا التدهور الذي ألم بالفلورين ترك الدوكات البندقي تشق طريقها كعملة نقدية معترف بها في التجارة العالمية وقتذاك حتى أواخر العصور الوسطى ، فالتنظيمات المالية والمصرفية لجمهورية البندقية لعبت دورا هاما - إلى جانب قوة الاقتصاد البندقي - في الحفاظ على القيمة الذهبية للدوكات ، سواء في وزنها أو نقائها ، فالرسوم المتعلقة بسك الدوكات ، والمؤرخ في ٣١ أكتوبر عام ١٢٨٤ م ، نص على أن الدوكات يجب أن تكون أكثر نقاء في ذهبها من الفلورين (٣١) ، كما أن دور البندقية في نظام المعاملات التجارية ونشاطاتها المصرفية ساعدت على استقرار الدوكات البندقي وثباته (٣٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن تدهور النومييسما البيزنطية كان عاملا هاما في تفوق العملات الإيطالية وانتشارها في التجارة الدولية ، فمنذ القرن الحادي عشر تم انقاص المحتوى الذهبي للنومييسما (٣٣) نتيجة تدهور الاقتصاد البيزنطي وانتقال مركز التجارة في عالم البحر المتوسط من القسطنطينية إلى المدن الإيطالية (٣٤) . إلا أن الكارثة الحقيقية التي ألمت

(28) Cipolla , op. cit., P. 21 .

(29) Atiya, crusade, commerce, P. 188 .

(30) Cipolla, op. cit., P. 23 .

(31) Hodgson , op. cit ; PP. 181 — 82 .

(32) Rabie, op. cit. ; P. 190 .

(33) Cipolla op. , cit. , P. 23 ; Lopez, The Dollar P. 212 .

(34) Lopez, ' The Dollar ' P. 239 .

بالنومييسما جاءت مع احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م (٣٥) ، فبالرغم من أن أباطرة نيقية البيزنطيين قد استمروا في إصدار النومييسما البيزنطية ، والتي احتوت على ثلثي وزنها ذهباً ، إلا أن ذلك لم يكن كافيا - كما يعتقد لوبز - لتحافظ النومييسما على مركزها النقدي ، واستمر تدهور النومييسما حتى بعد عودة الاغريق إلى القسطنطينية عام ١٢٦١ م ، وأخذت العملات الذهبية للمدن الإيطالية تحل محلها في التجارة الدولية (٣٦) .

ولا شك أن اختفاء الدينار الذهبي الإسلامي ، واعتماد الفضة كقاعدة جديدة للنقد بدلا من الذهب في مصر والشام ، منذ بداية العصر الأيوبي (٣٧) ، وحتى أواخر القرن الثالث عشر ، وتحول الذهب إلى سلعة من السلع (٣٨) ، كان ذلك كله عاملا هاما في انتصار العملات الذهبية ، الفلورين والدوكات في تجارة البحر المتوسط .

ولقد انتشر الدوكات البندقي في الدولة البيزنطية انتشارا واسعا ، حتى أن الإصلاحات النقدية التي جرت في الامبراطورية ، خلال عهد الامبراطور اندرينق الثاني (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) وخلفائه ، كانت تحت تأثير الدوكات البندقي (٣٩) ، كما أن الإدارة البيزنطية وافقت ، خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ، أن يتم دفع الأجور في الدولة بالبيزانت البيزنطي وفقا لقيمتها بالنسبة إلى الدوكات (٤٠) .

(٣٥) انظر : مارك بلوك : « مشكلة الذهب » ، ٣٧ .

(36) Lopez , ' The Dollar ' PP. 213 — 14 , Ostrogorsky , Hist of the Byzantine State, P. 430 .

(٣٧) في أواخر عهد الدولة الفاطمية ، وبسبب ما طرأ على هذه الدولة ما ضعف واضطراب في أحوالها الداخلية ، وخاصة سوء أحوالها الاقتصادية منذ أيام الشدة المستنصرية (المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) ، أدى ذلك كله إلى ندرة الذهب والعملية الذهبية ، وكان ذلك مما حمل صلاح الدين الأيوبي ، فيما بعد ، على إصدار قرار يتضمن جعل الفضة قاعدة للتعامل ، كما أن نفقات الحروب الصليبية اضطرته سنة ٥٨٣ هـ إلى ضرب دراهم من خليط معدني من الفضة والنحاس .

(٣٨) لتفصيل ذلك انظر :

Rabie, the financial system PP. 162 — 63 ; 169 — 73 , 175 — 76 ; 184 — 94 .

(39) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire , II , P. 686 .

(40) Lopez, ' The Dollar ' P. 214 .

كما لقيت العملات الذهبية الإيطالية رواجا كبيرا في مصر والشام ، فقد بدأ غزو الدوكات البندقي لمصر منذ عام ١٣٠٢ م ، وذلك عندما قبلته السلطات المصرية عند دفع الضرائب المقررة على البضائع في ميناء الاسكندرية ، وسرعان ما انتشر الدوكات انتشارا واسعا في مصر ، خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، وحقت انتصارا كبيرا على الدينار الذهبي المصري وقتذاك بسبب نقاوة هذه الدوكات من جهة وحجم تجارة مصر مع البندقية من جهة أخرى (٤١) ، ولم يأت القرن الرابع عشر على نهايته حتى أمر السلطان الناصر فرج بن برقوق بسك دنانير ذهبية « على زنة الدنانير الافرنجية (٤٢) » ، أي على زنة الدوكات والفولدين (٤٣) .

وتعتبر التنظيمات المصرفية في المدن الإيطالية عاملا هاما من عوامل ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فمن المؤكد أن الأعمال المصرفية Banking في العصور الوسطى قد تطورت أصلا من نشاطات الصيارفة الذين كانوا يقومون باستبدال العملات المتداولة في المدن الإيطالية التجارية (٤٤) .

وكانت المصارف التي تأسست في المدن الإيطالية التجارية مصارف تجارية ، اقتصر مهمتها بشكل رئيسي - منذ نهاية القرن الثاني عشر على قبول الودائع النقدية Deposits من جمهور التجار ، الذين كانوا يخشون على أموالهم من الضياع والسرقة خلال رحلاتهم التجارية ، وتسلم هؤلاء التجار مقابل ذلك شهادات بودائعهم مع حقهم في سحبها في أي وقت (٤٥) . وفي مستهل القرن الثالث عشر اتسعت النشاطات المصرفية في المدن الإيطالية ، فقامت المصارف مندوبين أو فروع لها في المراكز والأسواق التجارية الكبرى ، وأصبح بإمكان التجار نقل مبالغ من أموالهم من مكان إلى آخر عن طريق المندوبين (٤٦) ، وهذا كله أعطى دفعا قويا للنشاط

(41) Rabie, op. cit. ; PP. 190 — 91 , 194 .

(٤٢) القلقشندي ، صبح الاعشي ، ج ٢ ، ٤٣٧ .

(43) Rabie, op. cit. ; P. 194 .

(44) Pounds, op. cit. ; P. 409 .

(45) Bautire, op. cit., P. 146.

(46) Hodgett, op. cit., P. 69 .

التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

إلا أن أبرز النشاطات المالية للمصارف الإيطالية ، في القرن الثالث عشر ، هو تحويل الودائع التي بحوزتها من أموال خاملة إلى أموال نشطة ، فعندما تبين لها أن جملة الودائع لديها تزيد دائما عن جملة الأموال التي تسحب منها ، قامت باعطاء القروض إلى طرف ثالث (٤٧) مقابل نسبة معينة من الفائدة تحسم من القرض (٤٨) ، وبذلك تحول الصيارفة إلى مقرضين (٤٩) .

ويعتقد باوندس Pounds أن جذور « الثورة التجارية » ترجع إلى تقديم القروض أو التسليف Credit ، وبالرغم من معارضة الكنيسة لكل أشكال « الفائدة » الناتجة عن القروض ، باعتبارها « عدوانا روحيا » فقد انتشر « الربا » في أوروبا الغربية بصفة عامة والمدن الإيطالية التجارية بصفة خاصة (٥٠) . وبدأ التجار الإيطاليون في اقتراض أموال من الأثرياء لتمويل مشاريعهم التجارية وذلك مقابل فائدة بلغ حدها الأقصى ٢٠ ٪ (٥١) .

إلا أن أبرز القروض التجارية ، التي لعبت دورا هاما في ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كانت قروض البحر The Sea Loans ولقد قصد من قروض البحر وضع مبلغ من المال بين يدي أحد التجار ليقوم باستثماره بعمل تجاري فيما « وراء البحار (٥٢) » ، مثل اقتراض تاجر جنوي مبلغا من المال ليشتري به سلعة أو متاجر من أسواق جنوه لبيعها في أسواق القسطنطينية أو مصر أو الشام ، أو يستخدم هذا المبلغ في شراء متاجر من الشرق مباشرة (٥٣) . وقد حصل صاحب المبلغ من المقترض على فائدة تراوحت ما بين ٢٠ ٪ إلى

(47) Bautire, op. cit., P. 147 .

(48) Pounds , op. cit., 409 .

(49) Gies, op. cit., P. 104 ; Thompson, op. cit., 1, P: 431

(50) Pounds, op. cit., PP. 405 — 406 ; Hodgett, op. cit., P. 64 .

(51) Lane, A maritime. , P. 146 .

(52) Hoover, ' The Sea Loan in Genoa ' , PP. 498, 511 .

(53) Ibid. , P. 502 ; Byrne , Genoese shipping , PP. 14 — 15 .

(54) Hoover, ' The Sealoon ' ; P. 505 .

٥٠٪ (٥٤) ، وبذلك شارك أصحاب الاموال ، الذين ظلوا في بيوتهم ، بأرباح التجارة الخارجية دون بذل أية جهود (٥٥) .

ويرتبط بالتطورات التجارية والمصرفية ، التي أدت الى ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، استخدام الحوالة The bill of exchange ، أو كما يسميها الإيطاليون Cambiale (٥٦) ، وهي تعني سنداً أو صكاً ينطوي على أمر Order من شخص أو مصرف الى شخص آخر أو مصرف في مدينة أخرى بأن يدفع مبلغاً معيناً من النقود ، بمجرد الاطلاع أو في تاريخ معين ، لحامل هذا السند أو الحوالة (٥٧) . وقد استخدمت الحوالات لتجنب مخاطر نقل المعادن الثمينة كالذهب والفضة (٥٨) ، فإذا أراد تاجر من مدينة البندقية أو جنوة أن ينتقل الى أسواق القسطنطينية لأبرام عملية تجارية ، فإنه لا يحمل معه كل ما يحتاجه من نقود معدنية خشية ضياعها أو سرقتها في الطريق ، بل يتوجه الى أحد الصيارفة ويقدم له مبلغاً من نقود البندقية ، فيسلمه الصيرفي حوالة يأمر فيها مراسله أو مندوبه في القسطنطينية بأن يدفع للتاجر البندقي أو الجنوي مبلغاً مقابلاً من النقود البيزنطية ، وكان يمكن لحامل الحوالة نقلها أو بيعها نقداً الى شخص آخر (٥٩) .

ولعل أبرز مثال على انتشار الحوالات في المدن الإيطالية التجارية ، ما رواه الرحالة طافور Tafur ، الذي حمل « سكوكا » نقدية من وطنه إسبانيا الى تاجر في جنوة ، وسكوكا أخرى الى البندقية لتدفع له من قبل صيرفي بندقي اسمه مورسيني Morosini ، وأخرى من البندقية الى تاجر في الفلاندرز Flanders (٦٠) .

(55) Byrne, Genoese shipping, P. 15 .

(56) Pounds, op. cit. , P. 415 .

(57) Pirenne, Economic and social, P. 102

(٥٨) غفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام ، ص ١٤٦ .

(59) Lane, A maritime, PP. 141, 146 — 47 .

(60) Tafur, op. cit., PP. 27, 32 — 33 , 173 .

الفصل الرابع

تطور الملاحة وأثره في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

ويعتبر تطور الملاحة عاملاً هاماً من عوامل ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فلقد أدركت الجمهوريات الإيطالية البندقية وجنوة وبيزا ، أن نشاطها التجاري ومستقبله في بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، يتوقف على بناء أساطيلها التجارية وتطويرها من جهة ، وعلى تنظيم قوافلها التجارية البحرية وحمايتها من جهة أخرى ، ولهذا فقد اهتمت اهتماماً بالغاً بصناعة السفن التجارية وأعداد الملاحين وتنظيم الرحلات التجارية البحرية ، وذلك للوفاء بمتطلبات التجارة في شرق البحر المتوسط .

وعلى الرغم من أن المدن الإيطالية التجارية قد استخدمت نماذج متعددة من السفن في تجارتها المحلية والإقليمية ، إلا أن الرحلات الطويلة عبر البحر المتوسط والظروف التي أحاطت بهذه الرحلات أدت كما يعتقد بيرن ، الى وحدة في نماذج السفن التي استخدمتها هذه المدن في نقل متاجرها (١) .

وكان أن استخدمت البندقية ، ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، نموذجين أساسيين من السفن التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، أولهما : السفن المستديرة Round Ships (٢) ، وقد بنيت لتعمر أطول فترة ممكنة ، ولتستخدم في نقل الشحنات الثقيلة ، وهي

(1) Byrne, Genoese Shipping , P. 5 .

(٢) ان هذه السفن كانت معروفة عند العرب المسلمين في حوض البحر الابيض المتوسط ، واسمها الجفنة ، وجمعها أجفان ، وهي أشبه بالقصة .

تعتمد بشكل كلي على الشرع^(٣) ، وثانيهما : السفن الطويلة Galley^(٤) ، وقد بنيت لأغراض حربية^(٥) ، وكانت مجهزة بالمجاديف^(٦) وهي أقل ارتفاعا وأقل اتساعا من النموذج الأول^(٧) . وبالرغم من هذه الفروق بين النموذجين ، فإن بعض السفن المستديرة قد بني ليستخدم في القتال ، كما أن بعض السفن الطويلة قد صممت لنقل المتاجر الخفيفة من حيث وزنها والتمينة من حيث قيمتها ، مثل التوابل من الشرق إلى البندقية^(٨) .

أما بالنسبة إلى السفن التي استخدمتها جنوه في رحلاتها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فإنها كانت تنقسم إلى ثلاثة نماذج أولها : السفن الشراعية ، والتي تسمى Navis أو : Nefau^(٩) ، وثانيها ، السفن الشراعية المزودة بمجذاف أو مجذافين ، وتسمى باللاتينية Sagitta^(١٠) ، وثالثها : نوع من السفن التجارية ما بين النموذجين السابقين ، وتسمى باللاتينية Tartana^(١١) ، وهو أثقل من

- (3) Lane ; ' Venetian shipping ' , PP. 219 — 20 ; Idem, ' Merchant Galley ' , P. 180 .

(٤) وتسمى بالعربية الشيني والجمع شواني ، وهي أقدم أنواع السفن وكانت أهم القطع التي تألف منها الأسطول الإسلامي في العصور الوسطى ، لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة . وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد / ١٥٠ / رجلا ويجذف بمائة مجذاف . انظر : سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ص ٣٥٢ .

- (5) William of Tyre, Hist. of deeds, 1 PP. 548 — 49 .
(6) Fulcher of chartres, Ahist. of the expedition . P. 238 .
(7) Lane , ' Venetian shipping ' , P. 200 .
(8) Ibid.

(٩) وتسمى بالعربية البطسة والجمع بطس ، وهو ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، ويصل عدد الشرع في البطسة الواحدة إلى أربعين شراعا . انظر : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٣١ .

- (10) Byrne, Genoese shipping , PP. 5 — 6 .

(١١) وتسمى بالعربية الطراد ، والجمع الطرايد ، وهي من صنوف السفن التي تجري في بحر الروم ، مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . انظر : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

النموذج الأول وكان مزودا بالمجاديف والشرع ، وقد استخدم الجنوية هذا النموذج لنقل الخيول والمؤن للصليبيين ، ولكن عند نهاية القرن الثالث عشر ، أخذ الجنوية في استخدام هذه السفن لنقل متاجرهم من شرق البحر المتوسط^(١٢) .

ولقد حرص البنادقة والجنوية على ضمان مزيد من الراحة للتجار والمسافرين على سفنهم ، وتوفير أماكن أكثر اتساعا للمتاجر والسلع ، فطوروا سفنهم التجارية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بزيادة طول السفن وعرضها ، وزيادة عدد شرعها وسطوحها^(١٣) .

وقد تباينت آراء المؤرخين فيما يتعلق بحمولة السفن التجارية التي استخدمتها المدن الإيطالية التجارية ، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وفي مجموعها اتفقت أن حمولة السفينة تراوحت بين ٣٠٠ — ٦٠٠ طنا^(١٤) .

وعلى أية حال فقد اتخذت حكومات المدن الإيطالية تدابير شديدة لمراقبة حمولة السفن تجنباً للاخطار الناتجة عن الحمولة الزائدة ، وبصفة خاصة بالنسبة إلى أساطيلها التجارية التي كانت تتجه إلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فقد كان من اختصاصات الحكومة البندقية تحديد كمية الشحن اللازمة لكل سفينة وبالنسبة لكل سلعة ومراقبة السفن وتفتيشها قبل إقلاعها ، وكان القناصل أو مندوبيهم يذهبون إلى الميناء للتأكد من عدم وجود حمولة زائدة^(١٥) ، ويفرضون غرامات مالية على

- (12) Byrne, Genoese shipping, PP. 5 — 6 .

(١٣) انظر تفصيل ذلك في :

Byrne, Genoese shipping, PP. 6 — 9 ; Boase , op. cit. , PP. 37 — 38 .

- (14) Ludolph von suchem op. cit. , P. 22 ; Byrne, Genoese shipping , 3 . 11. Menahem , The Journal, P. 200 .

- (15) Lane , ' A Maritime law ' , P. 238 .

ربانة السفن الذين لا يتقيدون بالاوزان المحددة ، وذلك حرصا من حكومة البندقية ، على ألا تشغل الحمولة الزائدة الأماكن المخصصة للمسافرين والملاحين من جهة وتلك المخصصة للدفاع عن السفينة في حالة تعرضها للهجوم من جهة ثانية وإلى ألا تؤدي الحمولة الزائدة إلى عطب أو أضرار في السفينة ذاتها من جهة ثالثة (١٦) .

ولقد أعارت الجمهوريات الإيطالية اهتماما كبيرا بأعداد الملاحين لسفنها التجارية التي تبحر إلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وذلك بقصد تحقيق تماثل في نظم الملاحين وسلوكهم ، ولهذا فقد ألزمت كل ربان سفينة تجارية أن يصطحب معه عددا من النبلاء الشباب لتدريبهم على الملاحة (١٧) ، كما لقي المستوى الفدائي للملاحين والأجور التي كانت تدفع لهم ، أثناء التدريب وبعده ، رعاية كبيرة من حكومات المدن الإيطالية بصفة عامة والبندقية وجنوه بصفة خاصة (١٨) .

ولقد تولت حكومات المدن الإيطالية مسؤولية تنظيم قوافلها التجارية ومواعيد اقلاعها إلى بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فالبندقية ألزمت سفنها التجارية بالسفر على شكل قوافل إلى شرق البحر المتوسط ، كما أنها لم تسمح بنقل التوابل من الشرق إلى البندقية إلا بواسطة القوافل التجارية ، كما ألزمت جنوه سفنها التجارية بالسفر على شكل قوافل ، حتى ولو كان ذلك في سفينتين (١٩) . وكانت هذه القوافل ترافق عادة بسفن حربية لحراستها والدفاع عنها ضد القراصنة (٢٠) .

أما بالنسبة إلى مواعيد اقلاع القوافل التجارية الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فقد ارتبطت بالظروف المناخية وحركة الرياح كما

يؤكد ذلك وليام الصوري (٢١) ، ولهذا وضعت حكومات المدن الإيطالية جداول تحددت فيها مواعيد رحلات سفنها التجارية إلى شرق البحر المتوسط ، حتى أننا لنجد أن معظم المدن الإيطالية اقتصرت على رحلة تجارية واحدة خلال السنة تبدأ في الربيع وتعود إلى إيطاليا في بداية الخريف ، أو أن تبحر في الخريف وتعود أواخر الربيع (٢٢) بعد أن تمضي السفن فصل الشتاء في إحدى موانئ بلدان شرق البحر المتوسط ، غير أن الأساطيل التجارية الإيطالية قد أخذت ، منذ أواسط القرن الثالث عشر ، تقوم برحلتين سنويا في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وذلك نتيجة استخدام البوصلة والخرائط البحرية ، أولاهما : رحلة الربيع وثانيتهما : رحلة الصيف (٢٣) .

ولقد لعبت العلاقة ، التي قامت بين أصحاب السفن والتجار دورا هاما في تطوير الملاحة وتنظيماتها من جهة وفي ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر من جهة أخرى . ففي عصر كانت التجارة فيه لا تزال عملا يتسم بالمخاطرة ، كان وجود ترتيبات أو قوانين تنظم العلاقة بين الطرفين مسألة بالغة الأهمية . إلا أن مثل هذه الترتيبات أو القوانين كانت ، حتى أواسط القرن الثالث عشر ، عبارة عن عقود شفوية اعتمدت على الثقة المتبادلة بين أصحاب السفن والتجار (٢٤) . ولكن ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية أدى إلى وجود قوانين رسمية أو عقود كتابية نظمت العلاقة بين الطرفين وحددت مسؤولية كل منهما تجاه الآخر ، ومن ذلك أن هذه القوانين أعفت التاجر وخادمه وأمتعته من تكاليف النقل والزمته بدفع تكلفة شحن متاجره فقط (٢٥) . إلا أنه كان يصعب على أصحاب السفن إرضاء التجار ،

(21) William of Tyre , op. cit., 1, PP. 54 — 59 .

(22) Lane, The Economic Meaning of the invention of the compass , P. 608 .

(٢٣) انظر تفصيل ذلك في :

Lane, The Economic meaning , P. 608 ; Idem ; Rhythm and rapidity , P. 110 .

(24) Byrne , Genoese shipping , P. 28 .

(25) Ibid. , PP. 29 — 30 .

(16) Ibid., PP. 240 — 41 ; Idem ; ' Cotton cargos and regulation against overloading ' , PP. 21 — 22 .

(17) Brown , Studies, P. 347 .

(١٨) عن أطمعة الملاحين وأجورهم انظر :

Lane, ' Diet and wages ' , PP. 134 — 36 .

(19) Lane, ' The merchant marine ' , PP. 143 , 145 .

(20) Atiya, crusade, commerce, P. 176 .

في بعض الاحيان ، فمن الصعاب التي كانت تواجه اصحاب السفن كبره
التجار لوجود الحجاج على ظهر السفن أو وجود الحيوانات فيها ، ولهذا
كانوا يشترطون عدم نقل الخيول وغيرها من الحيوانات على السفينة (٢٦) .

وتطورت ملاحه المدن الايطالية تطورا كبيرا نتيجة لاستخدام البوصلة
وعرف الايطاليون البوصلة منذ أواخر القرن الثاني عشر ، الا انهم لم
يستخدموها في البحر المتوسط الا في النصف الثاني من القرن الثالث
عشر (٢٧) . وأحدث استخدام البوصلة تطورا كبيرا في عالم الملاحة والتجارة،
في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، بالنسبة الى المدن الايطالية التجارية.
فبعد أن كان الملاحون الايطاليون يعتمدون على التخمين والشمس والنجوم
لتحديد الاتجاهات الاربعه ، أصبحوا يعتمدون على الابرة المغنطة ،
وأدى ذلك الى ازدياد حركة الشحن بين المدن الايطالية وبلدان شرق البحر
المتوسط ، بحيث أصبحت الاساطيل التجارية الايطالية تقوم بأكثر من
رحلة في السنة الواحدة ، وبالتالي تمكن التجار من استثمار أموالهم أكثر
من مرة في العام الواحد (٢٨) .

وقد بلغت الملاحة في المدن الايطالية ذروتها عندما استخدم الملاحون
الايطاليون ، الى جانب البوصلة ، الخرائط البحرية التي رسموها وفقا
لخبرتهم الطويلة في الملاحة عبر المتوسط ، وقد حددت هذه الخرائط ،
التي تحققت لها دقة متناهية في مستهل القرن الرابع عشر ، حركة الرياح
واتجاهاتها في البحر المتوسط على مدار السنة ، ومكنت ، بالتالي ، الملاحين
من تحديد اتجاهاتهم ومحطاتهم البحرية من جهة وزيادة سرعة سفنهم من

(26) Ibid., PP. 7 — 8 , 10 .

(٢٧) يبدو ان الصينيين كانوا أول من اخترع الابرة المغنطة ، ومن ثم استخدمها
المسلمون ، ومن بعدهم استخدمها البحارة الايطاليون قبل كل الشعوب الاوربية ، وكانت
مدينة بيزا أول مدينة ايطالية استخدمت البوصلة وذلك عام ١٢٨٠ . عن ذلك انظر :

Lane, The Economic meaning , P. 608 , Hitti, Hist. of Syria,
P. 620 .

(28) Lane, 'The Economic meaning, PP. 606 — 607 , 610 , 17 .

جهة ثانية وتطوير نماذج جديدة من السفن التجارية من جهة ثالثة (٢٩) .

وعلى الرغم من هذا التطور الكبير في ملاحه المدن الايطالية خلال
القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد استمرت بعض الاخطار تحيط
بقوافلها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كالقرصنة
والعواصف والمعابر المائية الخطرة والتيارات الخلقان ، قرب شواطئ آسيا
الصغرى والاسماك الكبيرة ، قرب شواطئ الشام (٣٠) .

وهكذا فقد كانت التنظيمات ، التجارية والمالية والمصرفية والبحرية،
التي تبنتها المدن الايطالية التجارية (البندقية وجنوة وبيزا) ، من اهم
عوامل ازدهار النشاط التجاري لهذه المدن في الحوض الشرقي للبحر
المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، فقد تمكنت
هذه المدن ، من خلال تلك التنظيمات من تمويل تجارتها مع بلدان شرق
البحر المتوسط ، باستخدام منظم لاكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال ،
ومن تحطيم النظم النقدية السائدة وتحقيق الانتصار لعملاتها الذهبية في
اسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ومن تنظيم رحلات أساطيلها
التجارية ، وبالتالي فقد تمكنت المدن الايطالية ، من خلال هذه التنظيمات
جميعا من الاستفادة لا من ثروات بلدان شرق البحر المتوسط ومنتجاتها
فحسب وانما من أهم ثروات بلدان الشرق الأقصى ومنتجاتها أيضا .

(٢٩) انظر تفصيل ذلك في :

Ibid. , PP. 609 — 610 , 614 .

(٣٠) انظر تفصيل ذلك في :

Ludolph , Description of the Holy land

the way thither , PP. 11, 13, 15 — 16 .

الباب الثاني

النشاط التجاري لجمهورية الكويت في الدولة البعثية
خلال القرنين الثامن عشر والرابع عشر الميلاديين

الفصل الأول

دور المدن التجارية الإيطالية في الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة ظاهرة بالغة التعقيد في العلاقات بين الغرب الاوربي والامبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى وخاتمة للعلاقات السياسية والاقتصادية ، التي قامت بين المدن الإيطالية والدولة البيزنطية ، خلال القرن الثاني عشر ، وبداية حقبة جديدة لا في تاريخ العلاقات البيزنطية - الإيطالية فحسب وانما في تاريخ النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أيضا .

وكان أن تمتعت المدن الإيطالية التجارية ، في ظل أسرة آل كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥ م) ، بامتيازات تجارية واسعة في الدولة البيزنطية ، فعندما أراد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨ م) ، أن يكافئ جمهورية البندقية ، على المساعدة البحرية التي قدمتها لصد الغزو النورماني ، الذي قاده روبرت جيسكارد ضد بيزنطة عام ١٠٨١ م ، أصدر مرسوما (في مايو ١٠٨٢ م) منح بموجبه البندقية امتيازات تجارية فائقة الاهمية في الدولة واعفى التجار البنادقة من كل الضرائب والرسوم الجمركية ، وخصص بحى في القسطنطينية للاقامة الدائمة (١) . ويعتبر هذا المرسوم ذو أهمية خاصة لانه كان أساسا لكل المراسيم البيزنطية التي منحت تجار المدن الإيطالية امتيازات تجارية في بيزنطة ، فضلا عن أنه كان بداية التفوق التجاري للبندقية في الدولة البيزنطية .

كما أصدر الامبراطور مرسوما خاصا عام ١١١١ م ، منح بموجبه البيازنة امتيازات تجارية في الدولة ، وتخفيضا في الضرائب والرسوم

١ انظر النص الكامل لرسوم الكسيوس كومنين عام ١٠٨٢ م عند آتسه كومنين .

Anna Comnene, The Alexiad, PP. 144 — 47 .

الجمركية (٢) ، وخصهم بحري في القسطنطينية ، وذلك لكي يكسب البيازنة الى جانبه في نزاعه ضد أمير انطاكية النورماندي بوهيموند بن جيسكار (٣) .

وأدرك الامبراطور حنا كومنين (١١١٨ - ١١٤٣ م) ، خطورة الامتيازات التجارية التي كان قد منحها والده للبنادقة ، والطرق الذي أحكمه هؤلاء على عنق الاقتصاد البيزنطي ، وصلف التجار البنادقة الذين امتلأت بهم أسواق بيزنطة ، ولهذا رفض حنا ، في مستهل عهده ، تجديد هذه الامتيازات للبنادقة (٤) . ولكن سرعان ما ردت جمهورية البندقية على ذلك بمهاجمة الجزر البيزنطية في البحر المتوسط وبحر ايجه ، وذلك فيما بين سنتي ١١٢٢ - ١١٢٦ م واضطر الامبراطور البيزنطي - راغما - ازاء ذلك الى تجديد الامتيازات التجارية للبنادقة في عام ١١٢٦ م (٥) .

وفي عام ١١٣٦ م جدد الامبراطور حنا كومنين الامتيازات التجارية التي كان قد منحها والده للبنادقة عام ١١١١ م (٦) . ويرى بعض الباحثين أن ذلك قد تم نتيجة لخوف حنا كومنين من احتكار البنادقة للتجارة مع الدولة البيزنطية ، فضلا عن رغبته في إثارة المنافسة بين الجمهوريتين الايطاليتين ، والحد من نفوذ البنادقة الاقتصادي الذي أصبح عبئا ثقيلا على البيزنطيين (٨) .

(٢) كانت الضريبة التي يدفعها البيازنة على التاجر ١٠٪ فأصبحت بموجب هذا للرسوم ٤٪ فقط انظر مناقشة هذه النقطة في :

Danstrup, J. , indirect taxation , PP. 148 — 52 .

(3) Heyd, Hist. du Commerce, I, PP. 193 — 94 , Chalandon, Les Commenes, 11, P. 156 .

(4) Kinnamos, J. , Epitome Historiarum , in C. S. H. ; B: . P. 281

(5) Fulcher of Charter, A Hist. of the expedition, P. 270 .

(6) Kinnamos, op. cit. , P. 281 ; Nicetas , C. , Historia, in C. S. H. B. , P. 25 .

(7) Heyd, op. cit., 1, P. 197 ; Chalandon, op. cit. , 11, PP. 159 — 61 . Danstrup, ' Manuel's Coup ' , P. 203 .

(8) Diehl, C. , Hist. of the Byzantine Empire, P. 122 ; Vryonis, Byzantium and Europe, P. 144 .

وعندما اعتلى عرش الدولة البيزنطية الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠ م) أصدر مرسوما (عام ١١٤٨ م) جدد فيه الامتيازات التجارية التي منحت للبنادقة عام ١٠٨٢ م ، وذلك مقابل المساعدة البحرية التي قدمتها جمهورية البندقية للدولة البيزنطية في استرداد جزيرة كورفو من النورمان عام ١١٤٧ م (٩) ، كما اشتمل المرسوم على امتيازات اخرى أتاحت للبنادقة مد حدود الحي الخاص بهم في القسطنطينية ، وعلى اعفائهم من الرسوم الجمركية في جزيرتي كريت وقبرص اللتين لم ينص عليهما مرسوم الكسيوس كومنين الصادر عام ١٠٨٢ م (١٠) .

كما أصدر مانويل كومنين مرسوما عام ١١٥٥ م ، منح بموجبه امتيازات تجارية لجمهورية جنوة في الدولة البيزنطية ، وكان هذا هو أول مرسوم بيزنطي لصالح الجنوبية ، واشتمل على تخصيص حي لهم في القسطنطينية ، وعلى تخفيض في الرسوم الجمركية ، أي أصبح للجنوية نفس الامتيازات التي منحت للبيازنة عام ١١١١ م (١١) .

ولم يتمتع الجنوبية بالامتيازات التجارية الجديدة التي حصلوا عليها ، وذلك لان البيازنة والبنادقة ، ربما بتحريض من البيزنطيين ، قاموا بمهاجمة الحي الجنوبي في القسطنطينية عام ١١٦٢ م ، وعام ١١٦٣ م . ولم تستقر احوال الجنوبية في بيزنطة الا بمعاهدة « التحالف » التي وقعها الامبراطور مانويل معهم عام ١١٦٩ م ، والتي منحهم فيها حيا خاصا بهم خارج أسوار القسطنطينية ، وجدد لهم فيها أيضا امتيازاتهم التجارية السابقة . ولم يمض عامان على هذه المعاهدة حتى قام البنادقة بمهاجمة الحي الجنوبي الجديد (١١٧١ م) واضطر الامبراطور الى دفع التعويضات للجنوية نتيجة

(9) Otto of Freising, The two cities, PP. 69 — 70 ; Hussey, Byzantine World, PP. 63 — 64 .

(10) Heyd, 1, P. 200 ; Brown, ' The venetian Quarter . ' P. 74 .

(11) Fotheringham ; Genoa and the Fourth crusade , P. 26 ; Hodgson, Venice in the thirteenth and Fourteenth Centuries, P. 29 ; Wolf, " Romania " ;, P. 11 ; Danstrup " Manuel's coup " , PP. 203 — 204 .

الاضرار التي لحقت بهم (١٢) .

وعندما هاجم البيازنة الحي الجنوبي في القسطنطينية في سنتي ١١٦٢ و ١١٦٣ م نقل الامبراطور مانويل كومنين الحي البيزاوي الى خارج أسوار القسطنطينية ، ولكن لم يستمر هذا النفي طويلا اذ سرعان ما عقد مانويل هذه المعاهدة مع جمهورية بيزا سنة ١١٧٠ م وسمح للبيازنة بموجبيها بالعودة الى حيهم في العاصمة (١٣) .

ولا ريب في أن الامتيازات التي منحت للتجار الايطاليين ، وبصفة خاصة للبنادقة ، قد الحقت أبلغ الاضرار وأخطرها في بيزنطة واقتصادها ، وأدت الى منافسات غير شريفة بين هؤلاء التجار الايطاليين عبر الامبراطورية ، وخلقت الحقد والحسد في نفوس البيزنطيين ، الذين نظروا الى هؤلاء الاجانب ، وهم ينهبون ثرواتهم ويسيطرون على أسواق امبراطوريتهم واقتصادها بقوة السيف ، ومن يقرأ ما كتبه المؤرخان البيزنطيان المعاصران كناموس ونيقيتاس ، حول هذه الامور ، يدرك الآثار العميقة التي تركتها هذه الامتيازات التجارية التي منحت للمدن التجارية الايطالية ، في قلوب البيزنطيين (١٤) ، ويبدو ان هذه العوامل كانت وراء الخطوة الجريئة التي قام بها الامبراطور مانويل كومنين في ١٢ مارس عام ١١٧١ م ، عندما قام باعتقال البنادقة ومصادرة ممتلكاتهم ومتاجرهم في القسطنطينية ، وكافة أرجاء الدولة البيزنطية ، وفق خطة تم تنظيمها وتنفيذها بدقة فائقة (١٥) .

وكانت اجراءات الاعتقال والمصادرة هذه نكبة حقيقية بالنسبة الى

- (12) Finlay, Hist. of Creece, 111 , PP. 155 — 56 ; Brand, Byzantium Confronts the west, PP. 20, 207 ; Fortherringham, op. cit., PP. 26 — 27 .
- (13) Nicetas, op. cit., PP. 259 — 60 ; Danstrup , " Manul's coup " , P. 205 .
- (14) Kinnamos, op. cit., PP. 280 — 84 ; Nicetas, op. cit., PP. 222 — 26 .
- (15) Kinnamos, op. cit., PP. 280 — 86 ; Nicetas , op. cit., PP. 220 — 26 .

البنادقة ومستوطناتهم التجارية في بيزنطة ، وصدمة عنيفة لجمهورية البندقية ومستقبلها التجاري في الدولة البيزنطية فضلا عن أنها كانت نقطة تحول خطيرة في العلاقات بين البندقية وبيزنطة (١٦) . ويرى براند Brand انه لم تتم بعد ذلك مصالحه بين البنادقة ومانويل كومنين ، ولم تستأنف جمهورية البندقية تجارتها في بيزنطة حتى وفاته ، في حين ظل الجنوبية والبيازنة يشكلون العناصر اللاتينية الرئيسية التي تسكن القسطنطينية حتى نهاية عهد مانويل (١٧) .

وبعد وفاة مانويل كومنين ، عاشت الامبراطورية فترة اضطرابات (١١٨٠ - ١١٨٥ م) قام خلالها سكان القسطنطينية بثورة أبريل عام ١١٨٢ م ضد كل اللاتين الذين يعيشون في العاصمة ، وتفجرت فيها ومن خلالها الاحقاد السابقة ، وفكك البيزنطيون باللاتين من تجار ورجال ونساء وأطفال ومرضى ، وتحولت مستوطناتهم في القسطنطينية الى رماد ، وهربت اعداد من اللاتين على ظهر أربع وأربعين سفينة وقاموا في طريقهم بنهب مدن السواحل البيزنطية وتدميرها (١٨) .

لقد كان البيازنة والجنوية ، الذين يعيشون في القسطنطينية هم ضحايا تلك الثورة ، وذلك لان اعداد البنادقة في العاصمة آنذاك كانت ضئيلة ، نتيجة لما حل بهم عام ١١٧١ م وعلى أثر ذلك انسحب التجار الجنوبية والبيازنة من كافة المدن البيزنطية الاخرى (١٩) . ورغم ان الجمهوريتين ، جنوه وبيزا ، لم تقوما بأي انتقام رسمي لما حل برعاياهما ، الا انهما أطلقتا العنان لافرادهما للقيام بالقرصنة ضد الامبراطورية

(١٦) حول دوافع هذه الاجراءات واثرها على العلاقات بين بيزنطة والبندقية . انظر :

- Chalandon, op. cit. , P. 587 ; Brown, The venetian, PP. 82 — 86 ; Ostrogorsky , op. cit. , PP. 345 — 46 ; Vasiliev, op. cit. , 11 , P. 425 ; Brand, op. cit. , PP. 15 — 16 ; Fortheringham, PP. 26 — 27 .
- (17) Brand ; op. it. , PP. 20 , 197 .
- (18) Nicetas, op. cit. , PP. 325 — 26 .
- (19) Brand, op. cit. , PP. 41 — 42, 67, 196, 208 .

وعندما اعتلى اندريق الثاني كومنين العرش البيزنطي سنة ١١٨٣ م أخذ يتقرب من البنادقة ، فأفرج عن بقايا المعتقلين منهم في القسطنطينية منذ عام ١١٧١ م ، ودفع بعض التعويضات لهم (٢١) ، رغبة منه في أن يتم التحالف مع جمهورية البندقية ضد النورمان ، ومع أن البنادقة قد عادوا الى مستوطناتهم في القسطنطينية ، واستأنفوا نشاطهم التجاري في الامبراطورية ، إلا أنهم رفضوا الدخول في مثل هذا الحلف (٢٢) .

وبعد أن اعتلى العرش البيزنطي اسحاق انجيلوس سنة ١١٨٥ م وقع معاهدة مع البندقية في فبراير ١١٨٧ م ، انطوت على تجديد لكل الامتيازات التي حصل عليها البنادقة في الامبراطورية منذ عام ١٠٨٢ م ، وحصل البنادقة بموجبها أيضا على بعض التعويضات عن خسائرهم عام ١١٧١ م (٢٣) .

وفي (أبريل) عام ١١٩٢ م وقع الامبراطور اسحاق معاهدة مع جمهورية جنوه ، تنازل فيها الطرفان عن المطالبة بالتعويض عن الاضرار التي الحقها كل طرف بالآخر عام ١١٨٢ م . ووفقا لهذه المعاهدة جدد الامبراطور الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في عهد مانويل كومنين ، وسمح بتوسيع مستوطناتهم في القسطنطينية (٢٤) . وفي العام نفسه (فبراير ١١٩٢ م) أبرم اسحاق معاهدة مع جمهورية بيزا ، صدق بموجبها على الامتيازات التي كان قد حصل عليها البيازنة منذ أيام الكسيوس كومنين ،

(20) Ibid. , PP. 42 — 43 , 208 .

(21) Tafeland Thomas, urkunder, 1, doc. 67, P. 175 .

(22) Brand, op. cit. , PP. , 169 — 97 ; Heyd. , op. cit. , 1. PP. 223 — 24 .

(٢٣) انظر النص الكامل لمعاهدة عام ١١٨٧ م بين البندقية واسحاق انجيلوس في : Tafel and Thomas, 1, docs. 70, 71, 72, PP. 179 — 88, 189 — 94 , 195 — 203 .

(24) Nicetas, op. cit., PP. 481 — 86 ; Fotheringgham, P: 28 ; Brand, op. cit., , PP. 209 — 210 .

ووعده بتوسيع مستوطناتهم في القسطنطينية (٢٥) .

وفي عام ١١٩٥ م ثار الكسيوس الثالث انجيلوس في القسطنطينية على أخيه اسحاق واعتلى العرش ، وكان ذلك بمثابة صدمة قاسية للبنادقة ، نظرا لان العاهل الجديد اعاق تنفيذ بنود معاهدة ١١٨٧ م ، وخرق الامتيازات الممنوحة لهم بانتزاع الضرائب والرسوم الجمركية منهم ، بالإضافة الى أنه فضل البيازنة والجنوية عليهم ، بل أخذ يحرض البيازنة للاغارة على قوافل التجار البنادقة ومستوطناتهم في القسطنطينية (٢٦) ، وذلك رغبة منه في الحد من نفوذ البنادقة وهيمتهم على اقتصاد بيزنطة وتجاريتها . ولكن الدوج البندقي آنريكوذا ندولو Enrico Dandolo كان حريصا على انقاذ تجارة البندقية في الشرق البيزنطي بأي ثمن ، فأرسل سفارة نجحت في ابرام اتفاقية مع البيزنطيين ، تمثلت في مرسوم امبراطوري صدر في نوفمبر عام ١١٩٨ م ، انطوى على تجديد لكل الامتيازات التي منحت للبنادقة منذ أيام الكسيوس كومنين بما في ذلك الامتيازات التي منحت لهم في عام ١١٨٧ م (٢٧) وبالرغم من كل ذلك فقد استمر الامبراطور الكسيوس انجيلوس في انتزاع الضرائب والرسوم الجمركية من البنادقة ، بدون وجه حق ، واستمر المضايقات ضد البنادقة في الامبراطورية (٢٨) .

وبالرغم من تعاطف الامبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس مع الجنوية في مستهل عهده ، وذلك رغبة منه في الحد من النفوذ التجاري البنادقة في بيزنطة واثارة التنافس بين البنادقة والجنوية ، إلا أن القرصنة الجنوية ضد بيزنطة في البحر المتوسط ، اضطرته الى تغيير موقفه ، فقبض على الجنوية الموجودين في القسطنطينية وحرّمهم من امتيازاتهم (٢٩) ، وأخذت

(25) Nicetas , op. cit., PP. 482 — 86 ; Heyd, 1, PP. 230 — 31 .

(26) Beazley, op. cit., 11 ; P. 414 .

(٢٧) يحدد تافل وتوماس « تاريخ المعاهدة في نوفمبر ١١٩٩ م » . انظر :

Tafel and Thomas, 1, doc. 85, PP. 246 FF.

(28) Mcneal The fourth crusade, in Setton, op. , cit., 11, P. 162

(29) Brand, op. cit., PP. 213 — 14 .

جنوه تبعث بسفارة اثر أخرى الى القسطنطينية في محاولة للخروج من هذه الازمة واطلاق سراح المعتقلين ، الى أن وقعت معاهدة بين الطرفين في (في أكتوبر ١٢٠١ م) . وفي هذه المعاهدة تم تجديد الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في معاهدة عام ١١٩٢م وتوسيع المستوطنة الجنوية في القسطنطينية الا أنه من غير المؤكد أن يكون الامبراطور قد التزم بجميع بنود هذه المعاهدة (٢٠) .

أما فيما يخص علاقة الكسيوس الثالث انجيلوس بالبيازنة فمن الواضح أنه استخدمهم للحد من نفوذ البنادقة وسيطرتهم على التجارة البيزنطية ، عن طريق منحهم مزيداً من الامتيازات التجارية وعن طريق تشجيع جالياتهم في القسطنطينية للاغارة على البنادقة المقيمين بها كما أرم معاهدة مع جمهوريتهم عام ١١٩٩م ، انطوت على تجديد لامتيازاتهم في الامبراطورية . ونتيجة لذلك امكن للبيازنة توسيع مستوطنتهم في القسطنطينية (٢١) . وتمكنت بيزا بذلك من السيطرة على السوق البيزنطية ، غير أن هذه السيطرة كانت قصيرة الأجل ، وذلك لان الغرب الاوربي كان يدق أجراس الحملة الصليبية الرابعة .

وكان أن دعا البابا انوسنت الثالث لهذه الحملة عام ١١٩٨م . واستجاب لدعوته عدد من الكونتات والبارونات الاوربيين (٢٢) ، الذين بعثوا وفدا الى جمهورية البندقية لترتيب مسألة نقل الصليبيين على سفن البندقية الى الشرق (٢٣) . ورحب دوج البندقية ، انريكو داندولو Enrico Dandolo ، بالوفد الصليبي ، ووقع الطرفان اتفاقية (١٢٠١م) تعهدت البندقية بموجبتها باعداد السفن اللازمة للصليبيين وامداد جموعهم بالموئل لمدة تسعة اشهر ، وأن تشارك البندقية نفسها في هذه الحملة بخمسين سفينة على نفقتها شريطة أن يحصل البنادقة على نصف ما يغممه الصليبيون في هذه الحملة برا وبحرا ، ومن جهة أخرى تعهد الوفد الصليبي أن يدفع الصليبيون للبنادقة مقابل كل هذه الخدمات ، مبلغ ٨٥ ألف

(30) Ibid. , P. 16 .

(31) Nicetas, op. cit., PP. 712 — 13 ; Fotheringham, op. cit., P. 32 .

(32) Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople, PP. 29 — 30 .

(33) Ibid., P. 31 ; The Chronicle of Morea, P. 76 .

مارك فضة (٢٤) .

ويقول المؤرخان المعاصران ، قيل هاردوان Villehardouin وروبرت كلاري Robert Clari ، أن الهدف المباشر لهذه الحملة كان احتلال مصر (٢٥) . وذلك لان مصر كانت قد عادت لتحتل المركز الرئيسي للقوة الاسلامية في الشرق (٢٦) . ولكن الهدف بقي سراً في اذهان القادة الصليبيين بينما لم يعرف الصليبي العادي المشارك في هذه الحملة سوى أن الحملة متجهة الى « ما وراء البحر » (٢٧) .

وفي مستهل عام ١٢٠٢م التقت الجموع الصليبية في مدينة البندقية بغية التوجه الى مصر (٢٨) . ولكن لم يتمكن الصليبيون من دفع كامل المبلغ المتفق عليه للبنادقة (٢٩) . وعندئذ اقترح الدوج تأجيل دفع المبلغ المتبقي شريطة أن يساعد الصليبيون البنادقة لاسترجاع مدينة زارا Zara من ملك هنغاريا . ووافق هؤلاء على الاقتراح واتجهوا جميعاً الى مدينة زارا ، المسيحية ، واحتلوها وسلبوها وقتلوا العديد من سكانها ، ومن ثم اقتسموها فيما بينهم (٤٠) . وعلى الرغم من أن البابا أصدر قراراً بالحرمان الكنسي ضد الصليبيين والبنادقة عندما سمع باحتلال زارا ، الا أنه سرعان ما استجاب لتوسلات الصليبيين وأعلن رفع الحرمان عنهم ، في حين أبقاه على البنادقة (٤١) .

(34) Villehardouin, op. cit., PP. 32 — 35 ; Chronicle of Morea, PP. 77 — 78 ; Clari, The conquest of constantinople, PP. 37 — 38.

(35) Villehardouin, P. 35 ; clari, P. 36 .

(36) Ault, op. cit., P. 353 .

(37) Villehardouin, P. 35 .

(٢٨) انظر تفصيل ذلك عند : عادل زيتون : العلاقات بين القوى الإيطالية وبيزنطة في القرن الثاني عشر ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٣ وما بعدها .

(39) Villehardouin, op. cit., PP. 40 — 43 .

(40) Ibid, PP. 42 — 49. Clari, op. cit., PP. 40 — 44 .
The Chronicle of Morea, PP. 78 — 80 .

(41) Villehardouin, P. 53 .

وبينما كان الصليبيون والبنادقة يقضون الشتاء في زارا ، ليستأنفوا حملتهم الى « مصر » في العام القادم (١٢٠٣ م) ، ظهرت مسألة الامير البيزنطي الكسيوس بن اسحاق انجيليوس (٤٢) . حيث وصل الى زارا مندوبون عن الامير البيزنطي وملك ألمانيا فيليب سوابيا : Philip of Swabia وطلبوا مساعدة الصليبيين لاستعادة عرش والده في القسطنطينية ، وعلنوا أن الامير الكسيوس يتعهد للصليبيين ، اذا أجابوا طلبه ، باخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ، وتقديم / ٢٠٠ / الف مارك ، وامداد الجيش الصليبي بالمؤن اللازمة لمدة عام كامل ، واشترك بيزنطة في الحملة الصليبية بعشرة آلاف جندي لمدة سنة . وانقسم الصليبيون ، عند مناقشة عروض مندوبي الامير البيزنطي ، حول مسألة تحويل حملتهم الى القسطنطينية ، وأخيرا تم توقيع اتفاقية بين القادة الصليبيين والمندوبين اشتملت على تعهد الصليبيين بالتوجه الى القسطنطينية بحملتهم لاعادة اسحاق الى العرش وفق الشروط الآتفة الذكر (٤٣) .

وصل الجيش الصليبي الى القسطنطينية ، وكان دوج البندقية ، انريكو داندولو ، هو الموجه الرئيسي له ، نتيجة خبرته الطويلة في احوال بيزنطة . وبعد قتال شديد حول القسطنطينية ، لعب البنادقة فيه دورا أساسيا ، اضطر الامبراطور الكسيوس الثالث انجيليوس الى الفرار ، ومن ثم أعيد اسحاق الى العرش البيزنطي (٤٤) .

وعلى الرغم من أن اسحاق كان قد صدق على الاتفاقية ، التي أبرمها ابنه مع الصليبيين ، غير أنه لم يلتزم بتنفيذها ، وفي الوقت نفسه قام البيزنطيون في القسطنطينية بثورة اطاحت بالامبراطور اسحاق ، وعندئذ قرر الصليبيون احتلال القسطنطينية (٤٥) . ولكن قبل اقتحامهم للمدينة

(٤٢) قام الكسيوس الثالث انجيليوس عام ١١٩٥ م بخلع شقيقه اسحاق عن العرش وادعاه السجن مع ابنه الكسيوس ، ثم فر الأخير الى الغرب لطلب المساعدة من زوج اخته فيليب سوابيا ملك ألمانيا انظر :

Villehardouin, PP. 44 — 45 ; Clari, P. 57 . The Novgorod Account of the Fourth Crusade, PP. 228 — 29 .

(43) Villehardouin, PP. 50 — 52 , 75 ; Clari, PP. 45 — 46 , 58 — 59 , The chronicle of morea , P. 82 .

(44) Villehardouin, PP. 62 — 73 ; clari, PP. 69 — 79 .

(45) Villehardouin, PP. 75 — 78, 81 — 87 ; Clari, PP. 92 — 94.

وقعوا معاهدة مع البنادقة ، عرفت باسم معاهدة « تقسيم رومانيا » Partitio Romanie . وقد تضمنت تقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة ، كما تضمنت أيضا أنه اذا تم انتخاب الامبراطور من الصليبيين فيجب أن ينتخب البطريرك من البنادقة (٤٦) .

واحتل الصليبيون والبنادقة القسطنطينية ، وقاموا بنهب ثرواتها ثم انتخبوا بلدوين كونت الفلاندرز Baldwin count of Flanders امبراطورا على القسطنطينية . وكانت حصته ، وفق معاهدة التقسيم ، تشمل على $\frac{5}{8}$ القسطنطينية ومناطق أخرى في تراقيا وشواطئ البوسفور والدرديل وعلى عدد من جزر بحر ايجيه ، في حين كانت حصه البندقية $\frac{3}{8}$ القسطنطينية ومدينة دورازو وادريانوبل ورودستو وهراقلية وعلى عدد من الجزر في بحر مرمرة والبحر الايوني وبحر ايجيه هذا بالإضافة الى كورون ومودون في جنوب البليوبوتيز (٤٧) . كما اشترى البنادقة في أغسطس من العام نفسه (١٢٠٤ م) جزيرة كريت من بونيفاس مونتفerrat Boniface of Montferrat (٤٨) بمبلغ الف مارك من الفضة (٤٩) . ونتيجة لهذه المواقع الهامة التي أصبحت في حوزة جمهورية البندقية اتخذ دوج البندقية لقب : « سيد الربع ونصف ربع جميع الامبراطورية البيزنطية » وظل خلفاء داندولو يستخدمون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر .

(46) Villehardouin, op. cot., P. 88 ; Clari, op. 91 .

(٤٧) انظر تفصيل ذلك في :

Villehardouin, PP. 88 — 97 , 136 — 37 Clari, PP. 101, 115 — 17, 125 — 26 .

(٤٨) منح الامبراطور اللاتيني بلدوين مدينة سالونيك الى المركز بونيفاس مونتفerrat. انظر :

The Chronicle of Morea, P. 98 ; Villehardouin, P. 93 .

(49) Miller, The Latins in the Levant , P. 29 .

وبالرغم من أنه لا يسعنا المجال لمناقشة مسألة تحويل الحملة الصليبية الرابعة ، عن هدفها الأصلي وهو مصر ، الى القسطنطينية والتي تعتبر ظاهرة بالغة التعقيد في تاريخ العصور الوسطى (٥٠) . إلا أننا نود أن نؤكد على الدور البارز الذي لعبته البندقية في تحويل هذه الحملة وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، فسواء كان البنادقة هم المسؤولون عن تحويل الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية أو لم يكونوا (٥١) ، فإن مشروع احتلال القسطنطينية كان يتفق مع الاهداف العظمى التي عملت البندقية من أجلها ، منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى قيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية والتي تتلخص في احتكار التجارة الشرقية ، وبناء امبراطورية تجارية تتحكم باقتصاديات وثروات عالم البحر المتوسط .

وعلى أية حال فإن أبرز ما حققته البندقية في ظل الامبراطورية اللاتينية الجديدة في القسطنطينية ، هو أن امتيازاتها لم تعد وقفا على رغبة الامبراطور البيزنطي ، وإنما أصبحت جزءا من دستور الامبراطورية اللاتينية (٥٢) . واستثنت معاهدة تقسيم « رومانيا » البنادقة - دون كل اللاتين - من أداء يمين الولاء للامبراطور اللاتيني في القسطنطينية (٥٣) . وامتلك البنادقة ما يقارب ثلث القسطنطينية وضواحيها . ولهذا سرعان ما وجد أباطرة القسطنطينية اللاتين أنفسهم فريسة لطماع البنادقة ومطامحهم وأداة بأيدي التجار البنادقة ورجال المال منهم ، حتى أن الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني رهن تاج الامبراطورية لدى بعض التجار البنادقة الذين اقترض منهم مبلغا معيناً من المال (٥٤) . وبذلك فقد ترسخت أقدام البنادقة في بيزنطة ، وامتدت ممتلكاتهم من الادرياتي الى البحر

(٥٠) انظر مناقشة هذه المسألة عند : عادل زيتون : العلاقات بين القوى الإيطالية وبيزنطة ، ص ٤٤٣ - ٤٤٦ .

(٥١) لعب دوج البندقية دورا رئيسيا في انتخاب بلدوين امبراطورا وذلك لان انتخاب أمير ضعيف - كما اعتقد الدوج - أكثر ضمانا لمصالح البندقية مما لو تم انتخاب أمير قوي مثل بو نيفاس ، خاصة وأن الأخير كان على علاقة طيبة مع الجنوبية والبيزنطية . انظر مناقشة ذلك في :

Jorga, The Byzantine Empire, P. 172 ; Forthringham, PP. 35 — 37 .

(52) Fotheringham, op. cit., P. 34 .

(53) Vryonis, op. cit., P. 160 .

(54) Hodgson, op. cit., PP. 11 — 12 .

الاسود (٥٥) . وأصبحت جمهورية القديس مرقس من بين القوى الرئيسية في عالم البحر المتوسط وقتذاك وامتلكت زمام قيادة التجارة الشرقية (٥٦) .

أما بالنسبة الى دور جنوه وبيزا في الحملة الصليبية الرابعة . فإن المصادر المعاصرة والدراسات الحديثة المعنية بهذه المسألة ، تؤكد بأنه لم يكن لها تين المدينتين أي دور في هذه الحملة . فالمؤرخ فيل هاردوان قد أشار الى جمهوريتي بيزا وجنوه مرة واحدة فقط ، في مؤلفه كله ، وذلك عندما قال ، « أن وفدا صليبيا قد اتجه الى مدينتي بيزا وجنوه ، عام ١٢٠١ م ، في محاولة للحصول على مساعدة منهما من أجل الحملة » (٥٧) . أما المؤرخ روبرت كلاري فقد قال : « أن وفدا صليبيا قد اتجه الى جنوه وبيزا للحصول على مساعدتهما من أجل الحملة ، إلا أن الجنوبية رفضوا تقديم أية مساعدة في حين اعتذرت بيزا عن تقديم العون للصليبيين بحجة انها لا تملك العدد المطلوب من السفن » (٥٨) . وقد نجح فثرنكهام Fotheringham في دراسته القيمة حول هذه المسألة ، في اثبات تناقض اهداف الحملة الصليبية الرابعة مع المصالح التجارية للجنوية في بيزنطة ، كما برهن على عدم قيام جنوه بأي دور في اعداد هذه الحملة (٥٩) .

(٥٥) لم يستطع احد من التجار الإيطاليين ، حتى سقوط بيزنطة بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م ، الوصول الى موانئ البحر الاسود الا بترخيص خاص من الإباطرة البيزنطيين ، وذلك لان بيزنطة كانت تحتكر تجارة البحر الاسود . ولكن بسقوط بيزنطة بيد اللاتين تحطم احتكار البيزنطيين وهيمن البنادقة على تجارة هذا البحر . وتمكنوا من اقضاء التجار البيزنطيين والجنوية . واسسوا عددا من المستوطنات التجارية في موانئه .

انظر تفصيل ذلك في :

Finlay , op. cit., 111, P. 154 , Beazley , op. cit., 11, PP.

446 — 53 ; Baker, Med. trade routes, P. 16 .

(56) Tafur , op. cit., P. 122 .

(57) Villehardouin, op. cit., P. 35

(58) Clari, op. cit., P. 37 .

(59) Fotheringham, op. cit., 34 — 38 .

وفي ظل الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) أصبحت الامتيازات التجارية للجنوية والبيازنة (٦٠) في بيزنطة معرضة للخطر ، ووقفنا على رغبة البنادقة . ولهذا فقد نظر الجنوية الى الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية على انه نجاح لمنافسيهم البنادقة وفي الوقت ذاته ضربة قاسية لمصالحهم التجارية في الشرق البيزنطي . وربما يفسر لنا هذا رفض الجنوية الاعتراف بالاحتلال اللاتيني للقسطنطينية من جهة واحكام الوثائق الجنوية، المعاصرة لهذا الاحتلال ، عن ذكر كلمة « الامبراطور اللاتيني » (٦١) .

وعلى أية حال فان المعاهدة التي وقعها دوج البندقية (فيما بين ١٢١٧ - ١٢١٩ م) بطرس زياني Pietro Ziani ، مع القومون الجنوي ، لمدة أربع سنوات ، تلقي ضوءا في على احوال الجنوية في القسطنطينية ، وعلى علاقتهم بالبنادقة في ظل سيطرة اللاتين في القسطنطينية . فقد اشتملت المعاهدة على تعهد دوج البندقية بأن يتمتع الجنوية بالامتيازات التجارية والاعفاءات الضريبية والجمركية التي كانوا قد حصلوا عليها في عهد الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث انجيلوس (٦٢) .

وبالرغم من هذه المعاهدة ، فانه لم يكن بإمكان الجنوية ممارسة نشاطهم التجاري ، بالشكل الذي يرغبون به ، في امبراطورية سيطر

(٦٠) لقد سمحت البندقية للبيازنة بأن يحتفظوا بحجمهم القديم في القسطنطينية وأن يتمتعوا بالامتيازات التجارية التي كانوا قد حصلوا عليها في عهد الاباطرة البيزنطيين . وربما السبب في ذلك أن البيازنة انحازوا الى جانب الصليبيين أثناء حصار القسطنطينية عام ١٢٠٤ م . انظر :

Thompson, op. cit., 1, P. 419 ; Brand, op. cit., P. 217 .

(61) Wolf, The Latin Empire, P. 13 .

(٦٢) انظر نص المعاهدة بـ .

Tafel and Thomas, op. cit., 11, PP. 197 — 205 .

عليها منافسهم البنادقة (٦٣) . ولم يكن باستطاعتهم وضع انفسهم تحت رحمة تجار جمهورية القديس مرقس . واذا كنا لا نستطيع ان نقرر فيما اذا تم طرد الجنوية من القسطنطينية ، خلال الامبراطورية اللاتينية ، كما ذهب الى ذلك أحد الباحثين المحدثين (٦٤) . إلا أننا نستطيع القول بأن النشاط التجاري للجنوية ، في ظل السيطرة اللاتينية في القسطنطينية ، كان فصلا كئيبا في تاريخهم التجاري لا في الامبراطورية البيزنطية فحسب وانما في البحر المتوسط أيضا .

(٦٣) يبدو ان التجار الجنوية لم يتمكنوا من التغلغل الى البحر الاسود خلال سيطرة اللاتين في القسطنطينية ، وذلك نتيجة العقبات التي وضعها البنادقة في وجههم ، في حين أنه من غير المستبعد أن يكون البيازنة قد قاموا بنشاط تجاري في البحر الاسود خلال تلك الفترة ، وذلك لان العداء بين البنادقة والبيازنة كان أقل حدة مما كان عليه بين البنادقة والجنوية ، كما أشرنا الى ذلك خلال الصفحات السابقة .

(64) Laiou , A. E., Constantinople and the Latins , P. 69

Ludolph von suchem, op. cit., P. 28 .

الفصل الثاني

امبراطورية نيقية وأثرها على التجارة الإيطالية ١٢٠٤م

لقد مزقت الحملة الصليبية الرابعة الامبراطورية البيزنطية الى عدد من الدولات ، بعضها لاتينية وبعضها آخر يونانية ، أما الدول اللاتينية فتمثلت في الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ومملكة سالونيك وامارة Achaia في البيلوبونيز (١) ودوقية أثينة وطيبة في وسط اليونان (٢) أما الدولات اليونانية فهي : امبراطورية نيقية ، وامبراطورية طرابزون (٣) وامارة آبيروس (٤) .

واعتبر المؤرخون المعاصرون الامبراطورية البيزنطية ، التي أسسها تيودور لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٠٤ - ١٢٢٢ م) في نيقية ، بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م الامبراطورية الشرعية للعالم اليوناني (٥) . وقد نجح اباطرة نيقية في اثبات جدارتهم بأن يكونوا

(١) في أوسط القرن الرابع عشر كان المؤرخون الغربيون يطلقون على أخيا اسم المورة Morea انظر : Ludolph, P. 28 .

(٢) Vasiliev, op. cit., 11, P. 506 ; Hussey, op. cit., P. 70 ; Ostrogorsky PP. 376 — 77 .

(٣) أسس فرع من آل كومنين في طرابزون امبراطورية بيزنطية بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤م وامتدت سيادة هذه الامبراطورية من طرابزون شرقا حتى هراقية غربا : انظر :

Rubruquis, The Journal, P. 263 ; Mandeville, The travels, P. 98 .

(٤) أسس امارة ابيروس Epirus فرع من آل انجيلوس وامتدت هذه الامارة من دورازو شمالا حتى خليج كورنث جنوبا . انظر :

Vasiliev, 11, P. 518 ; ostrogorsky, P. 378 .

(٥) Villehardouin, PP. 89, 110 ; Clari, P. 100 .

— ٨٠ —

ورثة القسطنطينية ، وذلك لان أهدافهم السياسية قد تلخصت في تقويض الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية واسترداد الامبراطورية البيزنطية الى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الرابعة (٦) . ومثل هذه الاهداف لابطرة نيقية لم تساعد على قيام علاقات تجارية بين امبراطوريتهم وبين المدن الايطالية بصفة عامة والبندقية بصفة خاصة ، لا سيما وأن الاخيرة كانت المؤسس الحقيقي للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .

لقد نظرت البندقية بقلق شديد الى تزايد قوة امبراطورية نيقية ونفوذها نتيجة الانتصارات التي حققها لاسكاريس على اللاتين والسلاجقة في آسيا الصغرى . كما وجدت البندقية في ضعف امبراطورية القسطنطينية وتدهورها ، عبئا ثقيلا على تجارتها ومواردها ، وخطرا على مستقبلها في الاراضي البيزنطية . ولا سيما وأن البندقية قد تبنت الدفاع عن امبراطورية اللاتين في القسطنطينية ، وذلك لان سقوط الحكم اللاتيني في « العاصمة البيزنطية » كان كارثة كبرى للبندقية ومصالحها التجارية لا في « بيزنطة » فحسب وانما في البحر المتوسط كله . وبتعبير آخر ان وجود الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ارتبط ارتباطا وثيقا بتفوق البندقية ، بحيث أن انهيار احدهما سيكون نهاية للآخرى .

وأدركت البندقية — في ظل هذه الظروف — أن حماية مصالحها التجارية وتوفير الامن لتجارها ونشاطاتهم في القسطنطينية وبقية المدن اليونانية ، يتطلب منها تبني سياسة التقارب مع اباطرة نيقية . ولهذا قام البودستا Podesta (الممثل) البندقي في القسطنطينية Giacomo Tiepole بتوقيع معاهدة مع الامبراطور تيودور لاسكاريس عام ١٢١٩م (٧) . ولقد انطوت هذه المعاهدة على تعهد تيودور باعفاء التجار البنادقة من الرسوم الجمركية المتعلقة بالرسو والاقامة والمغادرة في الموانئ والمدن التابعة لامبراطورية نيقية ، وعلى حماية البحارة البنادقة عند تحطم

(٦) يعتبر فيل هاردوان أن تيودور شرع في محاربة اللاتين المحتلين للقسطنطينية من

الجانب الآخر للمضائق فور اعتلائه العرش في نيقية . انظر : Villehardouin, PP. 110, 112.

(٧) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة في : Tafel and Thomas, op. cit., 11, P. 205 — 207 .

العلاقات الاقتصادية م ٦

— ٨١ —

سفنهم أو غرقها في المياه التابعة لنيقية . كما اشتملت المعاهدة على تعهد تيودور بحماية ممتلكات البنادقة ومتاجرهم عندما يموت أحدهم في أراضي امبراطورية نيقية . وعلى وعد تيودور ألا يرسل سفنا حربية أو قراصنة ضد القسطنطينية دون موافقة البندقية . وتضمنت المعاهدة على تعهد البنادقة وحكام نيقية ألا يسك أحدهم نقودا مشابهة لما يسكه الآخر . ومدة هذه المعاهدة خمس سنوات (٨) .

وعلق أحد الباحثين المحدثين على هذه المعاهدة بقوله : « أن النظرة الدقيقة في بنود هذه المعاهدة تكشف لنا عن العقلية العملية التي يتمتع بها البنادقة . أو بالأحرى الحاكم البندقي في القسطنطينية ، الذي لم يتردد لحظة في توقيع معاهدة تجارية مع تيودور لاسكاريس . وفي أن يطلق على تيودور اسم « امبراطور الرومان » . علما بأن الامبراطور اللاتيني القابع في القسطنطينية آنذاك كان قد نصبه البنادقة أنفسهم . ولكن لم يكن لمثل هذه الامور كبير وزن بالنسبة الى القضايا الرئيسية التي تهم البنادقة . والتي تتلخص في تحقيق الامن والحماية لتجارهم ونشاطهم في الاراضي والبلدان الاجنبية ، والحفاظ على المصالح التجارية العليا لجمهورية القديس مرقس » (٩) .

واختلفت آراء المؤرخين المحدثين المعنيين بهذا الموضوع ، حول ما اذا تم تنفيذ بنود معاهدة عام ١٢١٩ م . أو بالأحرى فيما اذا أفادت البندقية منها . فذهب بعضهم ، أمثال فاسيليف Vasiliev ، الى ان البضائع الغربية أخذت تصل الى مدينة نيقية بواسطة التجار البنادقة بناء على هذه المعاهدة ، وأن هذه البضائع قد نجحت في منافسة السلع والمتاجر الشرقية التي كانت تتدفق الى نيقية عبر سلطنة قونية السلجوقية . وأن المتاجر الشرقية والغربية معا كانت تلقى رواجا واسعا في أسواق نيقية (١٠) . في حين يرى آخرون ، أمثال بازلي Beazley وأنجولد

(٨) انظر مناقشة بعض بنود هذه المعاهدة في :

Heyd, 1, PP. 304 — 305 ; Angold, A Byzantine Government in exile, PP. 114 ; 196 ; Hodgson, op. cit., PP. 25—26 ; Vasiliev, 11, P. 547 .

(٩) Hodgson, op. cit., P. 26 .

(١٠) Vasiliev, op. cit., 11, P. 547 .

Angold ان البنادقة لم يستفيدوا من هذه المعاهدة ، لان وثائق البندقية التجارية لا تقدم اطلاقا أية دلائل على ذلك . فضلا على أنه لم يكن في وسع البنادقة الاستفادة منها عمليا ، وذلك لانهم كانوا ، من الناحية السياسية ، أعداء الداء لامبراطورية نيقية (١١) . ومهما تباينت الآراء ازاء هذه المسألة فان الامر لا يزال غامضا فيما يتعلق بنشاطات التجار البنادقة في امبراطورية نيقية على عهد تيودور لاسكاريس ولكن من غير المستبعد أن يكون التجار البنادقة قد حاولوا القيام ببعض الاعمال التجارية المحدودة ، في بعض المناطق التابعة لامبراطورية نيقية ، في أعقاب معاهدة عام ١٢١٩ م .

ولقد تابع امبراطور نيقية حنا فاتاتزيس John Vatatzes (١٢٢٢ — ١٢٥٤ م) سياسة سلفه لاسترداد القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية اللاتينية . ولهذا تبني مشاريع — اقتصادية وسياسية وعسكرية — معادية لللاتين في كل مكان من الاراضي البيزنطية . وكان لذلك اسوأ النتائج لا على النشاط التجاري للمدن الإيطالية في آسيا الصغرى ونيقية فحسب وانما في القسطنطينية والبلقان وبحر ايجيه والبحر المتوسط أيضا .

فمن الناحية الاقتصادية اتبع حنا فاتاتزيس سياسة الاكتفاء الذاتي في امبراطوريته ، بمعنى أن يجعل بلاده تكفي نفسها اقتصاديا ، وذلك ادراكا منه لخطورة اندفاع رعاياه وراء السلع والمتاجر الاجنبية ، ولهذا أمر — كما يقول جريجوري (١٢) — بمنع رعاياه من شراء السلع والبضائع الاجنبية والاقتناع فقط : « بمنتجات أرض الرومان (أي البيزنطيين) وبما تصنعه أيدي الرومان » (١٣) .

ويعتقد استروغروسكي أن اجراءات الحماية الاقتصادية هذه كانت

(11) Beazley, op. cit., 11, P. 448 ; Angold, op. cit., P. 114

(12) Gregorae, N., Byzantine Historia, 1, PP. 42 — 44 .

(١٣) عن الصناعات الرئيسية والثروة الطبيعية في نيقية . انظر :

Angold, Byzantine Government in exile, PP. 102, 109, 227.

تستهدف كسر الاحتكار الاقتصادي الذي كانت تمارسه المدن الإيطالية بصفة عامة والبندقية بصفة خاصة (١٤) . في حين يرى أنجولد أن الهدف من هذه السياسة الاقتصادية هو الحد من استيراد الأقمشة من البلدان الإسلامية وإيطاليا (١٥) . بينما علق فريونيس على هذه المسألة بقوله أن السياسة الاقتصادية التي اتبعتها حنا فاتاتزيس في امبراطورية نيقية استهدفت حماية الصناعات المحلية من المنافسة الإيطالية ، ولهذا قام باحياء صناعة المنسوجات البيزنطية القديمة ، وحشد مستودعات مدنه بالمنتجات الزراعية ، واحتفظ بالحرفيين والصناع على نفقة الدولة ، في الوقت الذي كانت فيه مخازن موانئه ومستودعاتها وأسواقها مليئة بالمُتاجر القادمة من كل أنحاء العالم (١٦) .

وإذا كان الامبراطور حنا الثالث قد حقق نجاحا نسبيا ، في الحد من الاستيراد وبالتالي في حماية اقتصاد نيقية وأسواقها من الوقوع بأيدي التجار الإيطاليين ، إلا أن الدراسة التي قام بها أنجولد أثبتت أن سفنا « غريبة » قد ترددت — على عهد حنا فاتاتزيس بين سواحل امبراطورية نيقية والسواحل الشامية ، وأن سفنا تجارية إيطالية وبصفة خاصة من بيزا ولوكا الإيطاليتين ، كانت تتردد أحيانا على موانئ امبراطورية نيقية (١٧) ، كما بين هذا الباحث أن متاجر وسلعا من مصر والهند كانت تعرض للبيع في أسواق نيقية في بعض الأحيان (١٨) .

إذا كانت السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الامبراطور حنا فاتاتزيس قد ألحقت أضراراً بالنشاط التجاري للمدن الإيطالية في امبراطورية نيقية ، ووضعت صعوبات بالغة أمام تفلُّل التجار الإيطاليين في أسواق

(14) Ostrogorsky, P. 394 .

(15) Angold, op. cit., PP. 116 — 17 .

(16) Vryonis, op. cit., P. 165 .

(17) يشير المؤرخ جريجوري إلى تصدير نيقية للحبوب بكميات كبيرة إلى سلاجقة الروم الذين احتشدوا على أبوابها يدفعون الذهب والفضة نتيجة لما حل بهم من جراء غزو المغول لآسيا الصغرى عام ١٢٢٤م . انظر :

Gregorae, op. cit., 1, PP. 42 — 43 .

(18) Angold, op. cit., PP. 113 — 14, 227 .

نيقية وموانئها ، فإن نشاطاته العسكرية (١٩) ، التي استهدفت استرداد القسطنطينية ، وبقية المدن البيزنطية ، من أيدي اللاتين (٢٠) ، قد ألحقت بدورها أضراراً وأخطرها في مصالح المدن الإيطالية وممتلكاتها وقوافلها ومستوطناتها التجارية في القسطنطينية والبلقان وبحر إيجه (٢١) .

وكان أن تحالف الامبراطور حنا فاتاتزيس مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فردريك الثاني ، فعداء الأخير للبابوية ، جعله يتخذ موقف العداء تجاه الامبراطورية اللاتينية التي تدعمها البابوية (٢٢) . وإضافة إلى ذلك فإن سياسة الامبراطور فردريك في إيطاليا ، ومحاولته تدمير استقلال المدن اللباردية ، جعلت البندقية وجنوه وبيزا يدعمون المدن اللباردية ، ويخوضون صراعا طويلا إلى جانبها دفاعا عن مصالحهم التجارية في إيطاليا . ولهذا فإن تحالف حنا مع فردريك الثاني ، واتفاقهما على إسقاط الحكم اللاتيني في القسطنطينية وإحياء الامبراطورية البيزنطية (٢٣) ، كان ضربة سياسية عنيفة وجهها امبراطور نيقية إلى المدن التجارية الإيطالية ومصالحها في إيطاليا والمدن البيزنطية معا .

ولقد كان الهدف الأول لميخائيل الثامن باليولوجوس : Michael

(١٩) تمكن الامبراطور حنا من استرداد بعض الجزر التي كانت في قبضة اللاتين في بحر إيجه . ففي الفترة الممتدة ما بين ١٢٢٢ — ١٢٢٥م استرد كل من الجزر الآتية : ميتيلين MITYLENE وساموس وخبوس وليسبوس وكوس وإيكاريا . انظر :

Gregorae, 1, PP. 28 — 29 .

(٢٠) في عام ١٢٣٥م هاجم الاسطول النقي آبيروس التي كانت مينا هاما يخضع للبندقية . انظر : Angold, P. 198 .

(٢١) فرض الامبراطور حنا الحصار على القسطنطينية عام ١٢٣٥ — ١٢٣٦م ، بالتعاون مع البلغار وأمراء آبيروس ، ونجح في استرداد سالونيك من أمراء آبيروس عام ١٢٤٦م كما استعاد جزيرة رودس من الجنوة عام ١٢٤٩م . انظر تفصيل ذلك في :

Gregorae 1, PP. 25 — 27, Nicol, The Byzantine Family P. 14.

Angold ; PP. 114 — 15 , 197 — 98 ; Ostrogorsky, P. 389 .

(22) Vasiliev, 11, PP. 527 — 30 .

(23) Brown, venice, PP. 136 — 37 .

Palaeologus عند اعتلائه عرش نيقية عام ١٢٥٩ م (٢٤) ، هو أحياء الإمبراطورية البيزنطية وتقويض الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية خاصة وأن أسلافه كانوا قد قطعوا أشواطاً واسعة في هذا السيل . إلا أن ميخائيل كان يدرك أن القوة التي ستواجهه هي القوة البحرية للبندقية ، وذلك لأن جمهورية البندقية هي المؤسس الحقيقي للإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ووجود هذه الإمبراطورية اللاتينية متوقف على تفوق البندقية البحري ، ولهذا كان على ميخائيل تجنب خطر البحرية البندقية ، ولم يكن أمامه سوى التحالف مع جمهورية جنوة البحرية .

إن المصادر المعاصرة لا تشير إلى قيام علاقات تجارية بين جنوة وإمبراطورية نيقية على عهد أسلاف ميخائيل الثامن ، وربما يعود السبب في ذلك إلى استياء الجنوة وغضبهم من التحالف الذي كان قد تم بين حنا فاتاتزيس وفردريك الثاني (٢٥) . إضافة إلى السياسة الاقتصادية التي اتبعها الإمبراطور حنا في نيقية . ولكن طرد الجنوة من عكا من قبل خصومهم البنادقة ، في أواسط القرن الثالث عشر ، كان محنة قاسية بالنسبة لهم ، حيث دمرت بيوتهم وتقاسم أعداؤهم ممتلكاتهم . ولذلك فقد رغب الجنوة في استغلال أية فرصة ليردوا للبنادقة الإساءة بمثلها . وكان مشروع ميخائيل الثامن لاسترداد القسطنطينية يشكل في حالة نجاحه كارثة حقيقية لأعدائهم البنادقة . ولهذا عزم الجنوة الذين طردوا من أواسط الشام على طرد البنادقة من أواسط «رومانيا» (٢٦) . فضلاً عن ذلك كله فقد كان النشاط التجاري للجنوة في القسطنطينية ، خلال سيطرة اللاتين ، نشاطاً ضئيلاً نتيجة التفوق البندقي فيها . وبذلك التقت مصالح ميخائيل الثامن ومصالح الحكومة الجنوة في استرداد القسطنطينية

(٢٤) بعد وفاة حنا فاتاتزيس اعتلى عرش نيقية ابنه تيودور الثاني لاسكاريس (١٢٥٤ - ١٢٥٨) ومن ثم حفيده حنا الرابع لاسكاريس (١٢٥٨ - ١٢٦١ م) . وسرعان ما قام ميخائيل الثامن بالبولوغوس - وهو إحدى الشخصيات البيزنطية البارزة - باغتصاب العرش وتوج إمبراطوراً عام ١٢٥٩ م . انظر تفصيل ذلك في :

Gregorae, 1, PP. 52 — 60 , 70 — 75 , 77 — 78 ; Vasiliev, 11, PP. 534 — 36 .

(25) Brown, Venice, P. 137 .

(26) Heyd, op. cit., 1, P. 427 .

من أيدي اللاتين ، وتم توقيع معاهدة بينهما في مدينة نيمفايوم Nymphaeum (٢٧) ، بتاريخ ١٣ مارس عام ١٢٦١ م (٢٨) . وأهم بنود هذه المعاهدة هي : أولاً : تعهد الإمبراطور بأعفاء الجنوة من كافة الضرائب والرسوم الجمركية عبر إمبراطورية نيقية والإمبراطورية البيزنطية ، بما في ذلك القسطنطينية - عندما يتم استردادها . ثانياً : منحت المعاهدة الجنوة الحق بإقامة مستوطنات تجارية لهم بالإضافة إلى قنصليات وكنايس في كل من جزيرتي خيوس وليسيوس ، وكذلك في كريت ونيقروبوليت عندما يتم استردادها ثانياً : تعهد ميخائيل بأن يضم إلى ممتلكات جنوة القديمة في القسطنطينية ممتلكات جديدة ، وهي كنيسة نوتردام ، التي كانت بحوزة البنادقة ، بالإضافة إلى الأملاك المحيطة بها ، مثل القبرة والأراضي التي تقوم عليها قلعة البنادقة . رابعاً : منح ميخائيل الجنوة مدينة سميرنا Smyrna (٢٩) . وتشير هذه المعاهدة إلى ثراء هذه المدينة والموقع الممتاز لمينائها . كما أعطى الجنوة الحق في ممارسة السلطة السياسية المطلقة في المدينة ، شريطة أن يعترف الجنوة بالحقوق الدينية للكهنة الأرثوذكسي فيها . خامساً : أعطت المعاهدة الجنوة الحق في إقامة مستوطنات تجارية وكنايس وقنصليات لهم في البحر الأسود . وتعهد ميخائيل ألا يسمح لأي تاجر أجنبي ، عدا الجنوة والبيازنة ، بدخول البحر الأسود . كما أعفاهم من كل الرسوم الجمركية المتعلقة بنشاطاتهم التجارية في البحر الأسود . سادساً : تعهدت جمهورية جنوة بمنح حرية التجارة لرعايا الإمبراطور في أراضي جنوة وممتلكاتها ، فضلاً عن مدينة جنوة ذاتها . كما تعهدت جنوة بتقديم كل عون ممكن لميخائيل الثامن ، وبشكل خاص أسطول بكامل معداته ، وقد أخذ ميخائيل الثامن على عاتقه

(٢٧) تقع مدينة نيمفايوم قرب مدينة أزمير على الساحل الأيبي . وهي عاصمة أخرى لإمبراطورية نيقية وقد تطورت هذه المدينة بسرعة بعد أن اتخذها حنا فاتاتزيس مقراً مؤقتاً له في بداية حكمه . انظر :

Angold, op. cit., P. 111.

(٢٨) انظر مقتطفات من هذه المعاهدة في : Gregorae, 1, PP. 96 — 97 ; Heyd, 1, PP. 427 — 29 ; Miller, The latins in the levant, P. 118 ; Hodgson, P. 35 .

(٢٩) أن مدينة سميرنا Smyrna هي مدينة أزمير الحالية . وكانت القاعدة البحرية الرئيسية لإمبراطورية نيقية في بحر إيجه . انظر : Angold, op. cit., P. 199 .

الاتفاق على هذا الاسطول وامداده بالمؤن ، ولكن اشترطت جنوه الا
يستخدم هذا الاسطول ضد البابا اوضد اصدقاء جنوه .

وتعتبر هذه المعاهدة حدثا ذا أهمية خطيرة لا بالنسبة الى النشاط
التجاري للجنوية في بيزنطة فحسب وانما في تاريخ التجارة الشرقية عامة .
ولقد اهتم المؤرخون المحدثون اهتماما بالغا بدراسة هذه المعاهدة والتعليق
عليها . فقال ميلر Miller (٢٠) : « أن هذه المعاهدة قد نقلت - بضربة
واحدة - احتكار التجارة الشرقية من أيدي البنادقة الى أيدي الجنوية » .
وأضاف هايدي Heyd (٢١) : « أن تطبيق البنود الرئيسية لهذه المعاهدة
يضمن للجنوية ، في الدردنيل والبوسفور والبحر الاسود ، تفوقا مائلا
لا تتمتع به البنادقة خلال ستين عاما تقريبا في ظل أباطرة القسطنطينية
اللاتين » ، ويعتقد هودسن Hodgson (٢٢) : « أن هذه المعاهدة تعتبر حلقة
هامية في تاريخ التجارة الجنوبية في المشرق ، وهي البداية الحقيقية لتولي
جنوه مركز القيادة في القسطنطينية ، التي كانت حتى تلك اللحظة بيد
البنادقة » . ويرى استروغورسكي Ostrogorsky (٢٣) : « أن هذه
المعاهدة قد وضعت الاسس الصلبة لقوة الجنوبية في المشرق ، كما هو
الحال بالنسبة الى معاهدة عام ١٠٨٢ م ، التي كانت قد وضعت أسس
قوة البندقية وتفوقها » . أما ماير Mayer (٢٤) فقد قال : « أن هذه
المعاهدة كانت القاعدة الصلبة للامبراطورية الجنوبية الاستيطانية في
القسطنطينية والبحر الاسود » . وأضاف بازلي Beazley (٢٥) : « أن
تحالف جنوه مع ميخائيل في هذه المعاهدة أعطى الجنوبية قيادة تجارة البحر
الاسود لمدة قرنين من الزمن ، وعوضت ، في الوقت ذاته ، عن جميع
الخسائر التي لحقت بها نتيجة تدمير مملكة بيت المقدس عام ١٢٩١ م .
ولقد علق كارانيس Charanis (٢٦) على هذه المعاهدة بقوله : « وعلى

(30) Miller, The Latins in The levant, P. 118 .

(31) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .

(32) Hodgson. Venice, P. 35 .

(33) Ostrogorsky, op. cit., P. 399 .

(34) Mayer, op. cit., ; P. 196 .

(35) Beazley, op. cit., 11, P. 426 .

(36) Charanis, ' Economic Factors in the decline of the
Byzantine Empire ' ; P. 422 .

اية حال لقد كان الامر بالنسبة الى بيزنطة هو استبدال مستغل بمستغل
آخر ، فلقد ترسخت اقدام الايطاليين في القسطنطينية ، سواء أكانوا جنوية
أم بنادقة ، وسيطروا على اقتصاد القسطنطينية وحددوا الاسعار اليومية
لضروريات المدينة » .

وكانت البندقية اول من أدرك أنها هي ومصالحها التجارية
والاستيطانية ومستقبلها في الشرق البيزنطي هو الهدف الاساسي للتحالف
الذي تم بين ميخائيل الثامن وجمهورية جنوه في معاهدة عام ١٢٦١ م . وفي
الوقت ذاته كانت البندقية على دراية كاملة أن ميخائيل عازم على استرداد
القسطنطينية من اللاتين . والدليل على ذلك أن البندقية قد عينت رئيسا
جديدا لمستوطناتها في القسطنطينية بعد توقيع المعاهدة بين ميخائيل
والجنوية مباشرة (١٢٦١ م) (٢٧) . وجلب البودستا الجديدة معه سفنا
بندقية . وانتهر اللاتين في القسطنطينية وصول هذه السفن واتجهوا مع
البودستا البندقي الجديد لاحتلال أحد الموانئ على ساحل البحر الاسود .
ولكن هذه الحملة جردت القسطنطينية من القوات . وفي ذلك الوقت كانت
قوة صغيرة من قوات نيقية ، تحت قيادة سترا ثيكوبولس ، تقوم بعمليات
استطلاع حول القسطنطينية فوجدت أن المدينة بدون قوة دفاعية . فقامت
باحتملها ، دون مقاومة تذكر ، بعد ذبح الحرس اللاتيني ، وذلك في يوم
٢٥ يوليو عام ١٢٦١ م (٢٨) .

وانطلقت قوات نيقية البيزنطية في شوارع القسطنطينية ، ودمرت
احياء اللاتين فيها . ونجا الامبراطور اللاتيني والبطريرك البندقي بأرواحهما
على ظهر مركب أقلهما الى الغرب . وثار الشعب البيزنطي في القسطنطينية
ضد البنادقة ، وحل في معظمهم القتل والاسر . ورغم محاولة التجار
البنادقة الدفاع عن بيوتهم ومستودعاتهم وأرصفتهم في القرن الذهبي ،
الا أن البيزنطيين قاموا بأحراق الشوارع والاحياء التي يعيش فيها البنادقة
... وعاد الاسطول البندقي من البحر الاسود مخفقا ، ورأى رجاله اللهب
يتصاعد من القسطنطينية ، وأدركوا الكارثة على حقيقتها عندما شاهدوا
بعض أبناء جلدتهم متجمهرين على الشاطئ يتضرعون اليهم لانقاذهم ،

(37) Hodgson, op. cit., P. 13 .

(38) Gregorae, 1, PP. 97 — 99 , Tafur, op. cit., P. 122 , vryonis,
op. cit., P. 166 ; Brown, Venice, P. 144 .

الفصل الثالث

النشاط التجاري للجمهورية الإيطالية في بيزنطة ١٢٦١م

باسترداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م (١)، بدأ فصل جديد في تاريخ النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الامبراطورية البيزنطية . فاعتقد الجنوة أن هذا الاسترداد انتصار اقتصادي وسياسي لهم ، وبداية مستقبل جديد لتجارهم لا في بيزنطة فحسب وإنما في حوض البحر المتوسط أيضا . في حين وجد البنادقة في هذه الأحداث كارثة اقتصادية وسياسية كبرى ، وبداية فصل كئيب في تاريخهم التجاري في عالم البحر المتوسط . ولهذا كان النشاط التجاري للمدن الإيطالية في بيزنطة بعد عام ١٢٦١ م ، وحتى أواخر القرن الرابع عشر مفعما بروح التنافس والحقد . حتى أصبح من غير السهل تمييز التجارة عن الحروب والقرصنة ، وكانت بيزنطة الضحية الرئيسية في ذلك كله .

ومنذ أن اعتلى ميخائيل الثامن العرش في القسطنطينية (١٢٦١ - ١٢٨٢ م) ، أخذ الجنوة يتدفعون على الامبراطورية ويتمتعون بالامتيازات التجارية والاقليمية التي منحت لهم في معاهدة عام ١٢٦١ م . ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بينهم وبين ميخائيل نتيجة اشتراك البودستا الجنوبي في القسطنطينية بمؤامرة لاسقاط الامبراطورية البيزنطية واعادة الامبراطورية اللاتينية ، وذلك بتحريض من عملاء مانفرد صاحب صقلية (٢) . وبالرغم من أن البودستا لم ينكر تورطه بهذه المؤامرة ، إلا أنها كانت - كما يعتقد هايد - تصرفا شخصيا لا علم لحكومته بها (٣) .

(١) ان الامبراطورية البيزنطية التي استعادها ميخائيل الثامن عام ١٢٦١ م اشتملت على الزاوية الشمالية الغربية لاسيا لصغرى والجزء الاعظم من تراقيا ومقدونيا وسالونيكيا وعددا من جزر الجزء الشمالي من بحر ايجه ، ولهذا فان الدردنيل واليوسفور ، اللذين يحتلان أهمية تجارية كانا ضمن الامبراطورية التي استردها ميخائيل . انظر :

Vasiliev, op. cit., 11, P. 580 .

(2) Runciman, the sicilian vespers, P. 84 .

(3) Heyd, op. cit., 1, P. 431 .

وتمكن الاسطول من انقاذ عدد من هؤلاء ، واتجه بهم الى البندقية ، تاركا ميخائيل الثامن سيدا وامبراطورا على القسطنطينية (٣٩) .

حقيقة ان الجنوة لم يشتركوا في عملية استرداد القسطنطينية كما اكد ذلك المؤرخ البيزنطي جريجوري : وذلك لان الحكومة الجنوة قد صادقت على معاهدة عام ١٢٦١ م قبل أيام قلائل من دخول ستراتيكوبولس العاصمة البيزنطية (٤٠) . الا أنه كان من حسن حظ هؤلاء الجنوة أنهم تحالفوا مع الحكومة البيزنطية الموجودة في نيقية ، ولم يرهنوا أنفسهم ، كما فعل البنادقة ، لدعم أسرة أجنبية وكنيسة أجنبية ، أو بتعبير آخر فقد أدرك الجنوة أن قيام امبراطور لاتيني في القسطنطينية وتربع كاهن كاثوليكي على عرش الكنيسة الارثوذكسية فيها ، هو بمثابة نبتة لاتينية غريبة في أرض يونانية شرقية ، وأنه لن يكتب لها البقاء طويلا . فبالرغم من الحرمان الكنسي الذي أصدرته البابوية ضد الجنوة لتحالفهم مع ميخائيل الثامن ، فان هذا الحرمان لم يؤثر على المصالح التجارية للجنوة ومستقبلهم في بيزنطة في حين ان تحالف البندقية مع البابوية قد ألحق أبلغ الأضرار وأخطرها في النشاط التجاري لرجال القديس مرقس ومستقبلهم في الامبراطورية البيزنطية .

(39) Gregorae, 1, PP. 98 — 100 ; Tafur, P. 122 . Baynes and moss, 36 ; ostrogorsky , P. 400 ; Vasiliev , 11, P. 537 .

(40) Gregorae, 1, P. 97 .

وعلى اثر اكتشاف الامبراطور لهذه المؤامرة (١٢٦٣ م) طرد الجنوية من القسطنطينية الى مدينة هيراقليه (٤) . التي تقع على بحر مرمرة . وبالرغم من أن الحكومة الجنوية قد أبعدت البودستا وطلبت من الامبراطور تطبيق معاهدة عام ١٢٦١ م ، التي تضمن للجنوية حق الإقامة القسطنطينية في ظل البودستا (٥) . غير أنه ظل متشددا في موقفه فهو لم يكتف بطرد الجنوية فحسب وإنما فتح باب المفاوضات مع البندقية (١٢٦٥ م) لتوقيع معاهدة سلام معها ، واعادة امتيازاتها في القسطنطينية (٦) . وقد ألحقت هذه الاحداث أبلغ الاضرار بالتجارة الجنوية في بيزنطة ، فالطرد من القسطنطينية كان صدمة عنيفة للجالية الجنوية ، وبنود معاهدة عام ١٢٦٥ م مع البندقية قد انتقصت - بشكل ما - كما سنرى - من قيمة امتيازات الجنوية في الامبراطورية البيزنطية (٧) .

إلا أن الاضطراب في العلاقات بين جنوه وميخائيل الثامن لم يستمر طويلا (٨) فعندما أخذت البندقية تماطل في توقيع معاهدة ١٢٦٥ م استأنف ميخائيل علاقته بجنوه (١٢٦٧ م) ، وأمر بنقل الجنوية من هيراقليه الى غلطا (٩) . وخشية أن تشكل غلطا (١٠) خطرا على القسطنطينية أمر الامبراطور بتدمير كل التحصينات والاسوار الموجودة في منطقة غلطا (١١) .

(٤) يعتقد استروغروسكي أن طرد الجنوية من القسطنطينية هو نتيجة هزيمة الاسطولين الجنوبي والبيزنطي أمام البنادقة عام ١٢٦٣ م ، وأدراك ميخائيل بأن تكاليف التحالف مع الجنوية لا تتناسب مع الفوائد المتوخاه منه لهذا طرد الجنوية . انظر :

Ostrogorsky, op. cit., P. 404 .

(5) Heyd, 1, PP. 431 — 32 ; Runciman, The Sicilian vespers, P. 84 .

(6) Vasiliev, op. cit., 11, P. 591 .

(7) Laiou, constantinople and the latins , P. 69 .

(8) Idem, ' merino sanudo ' , P. 375 .

(9) Vasiliev, 11, P. 593 ; ostrogorsk, P. 404 .

(١٠) تقع غلطا في الجانب المقابل للقسطنطينية عبر القرن الذهبي وعرفت باسم بيرة أيضا ، ويقول بنيامين أن حي اليهود في القسطنطينية كان في هذه المنطقة . انظر : بنيامين ، الرحلة ، ص ٨٢ .

(11) Laiou , constantinople and the latins. P. 149 .

ويلاحظ أن متاعب ميخائيل الثامن الخارجية ، وبصفة خاصة مشاريع شارل أنجو ملك صقلية لاسقاط الامبراطورية البيزنطية واعادة الامبراطورية اللاتينية الى القسطنطينية (١٢) ، كانت تضطر ميخائيل للحفاظ على صداقته لجنوه . وكانت جنوه تدرك ، في الوقت ذاته ، أن سقوط ميخائيل يعني سقوط امتيازاتها التجارية ومستقبلها في بيزنطة والبحر الاسود معا . وهذا يفسر لنا رفض جنوه التحالف مع شارل أنجو ضد ميخائيل (١٣) ، بل أنها أبلغت ميخائيل بخطط شارل ومشاريعه التي يعدها ضد بيزنطة (١٤) .

وفي عام ١٢٧٥ م وقعت جنوه معاهدة تجارية مع بيزنطة . اشتملت على منح الجنوية الحق في تصدير الذهب والفضة والقمح من الامبراطورية، ولكن شريطة ان تباع هذه المواد في مدينة جنوه ذاتها وليس في أي اقليم آخر هو في حالة عداء مع بيزنطة (١٥) ولعل أهم حدث في تاريخ التجارة الجنوية في بيزنطة ، هو منح الامبراطور ميخائيل الثامن في العام نفسه (١٢٧٥ م) مناجم الشب (١٦) الموجودة في فوكيا Phokaia (١٧) بآسيا الصغرى، لاثنتين

(١٢) لقد انتزع شارل أنجو شقيق ملك فرنسا لويس التاسع ، مملكة صقلية من مانفرد بدعم من البابوية ، ووقع معاهدة فيربو عام ١٢٦٧ مع الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني للقيام بحملة ضد بيزنطة . انظر :

Vryonis, op. cit., PP. 166 — 67 .

(13) Runciman , the sicilian vespers, P. 194 .

(14) Laiou, constantinople and the latin, P. 69 .

(15) Ibid, P. 150 ; Heyd, 1, PP. 437 :

(١٦) لقد استخدمت الصناعات النسيجية في الغرب الاوربي الشب بشكل واسع في العصور الوسطى ، وذلك لتثبيت ألوان المنسوجات والصباغة ، وتعتبر احجار الشب ، كما يقول لوبز مفتاح الصناعات المعاصرة . انظر :

Cahen ; l'alun. P. 433 ; lopez , 'Market Expansion' , P. 450.

(١٧) ان فوكيا او فوسيه : Phokaia او Phocéa او Phocaea او كما يسميها الايطاليون فوكليا او فرجيا Foglia Fogia تقع شمال خليج مدينة ازمر وتحيط بها الجبال التي تحتوي العديد من الاندفاعات البركانية واحجار الشب والتي كان اليونانيون قد ابتدأوا في استخراجها . انظر :

Vasiliev, 11, P. 593 . Hussey , PP. 69 — 70 .

(١٢٦٦ م) (٢٤) ، وثالثة في مدينة طرابزون البيزنطية قبل نهاية القرن الثالث عشر (٢٥) .

ولقد استمرت التجارة الجنوبية في ازدهارها وتفوقها في بيزنطة والبحر الاسود على عهد الامبراطور اندرنيق الثاني (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) ، واحتفظت الجنوبية بجميع الامتيازات التي منحت لهم من قبل والده . ففي عام ١٢٨٢ م وعام ١٢٨٣ م كتب اندرنيق الى البودستا والقومون والشعب في جنوه يخبرهم باعتلائه العرش وبأنه سيستمر في حماية المكانة المتميزة التي يتمتع بها الجنوبية في الامبراطورية وبأن القومون والتجار الجنوبية سيجدون كل الترحيب في الامبراطورية (٢٦) .

وفي عام ١٣٠٤ م أصدر الامبراطور مرسوما جدد فيه الامتيازات الجنوبية في غلطا والاعفاءات الجمركية للتجار الجنوبية ، وما عدا الرسوم المفروضة على الملح والمصطكي (٢٧) ، وسمح فيه للجنوبية بتصدير القمح وغيره من المنتجات الزراعية من بيزنطة والبحر الاسود دون رسوم جمركية . ومنح فيه الجنوبية الحق في استيراد الشب من شواطئ البحر الاسود التي لا تخضع لبيزنطة (٢٨) . كما وعد الامبراطور بمعاينة القراصنة اللاتين واليونانيين الذين يهاجمون الجنوبية . وفي المرسوم نفسه تعهد الامبراطور بحماية الجنوبية وممتلكاتهم في حالة تحطيم سفنهم أو غرقها قرب السواحل البيزنطية (٢٩) .

(٢٤) طانا ميناء يقع على مصب نهر الدون . وقد سمح مغول القبايق للجنوبية بتأسيس مستوطنة حتى ان الحكومة الجنوبية استحدثت عام ١٣١٣ م ، دائرة تعرف بدائرة القرم للاشراف على النشاط التجاري للجنوبية في كافا وطانا . انظر :

Ibid., PP. 142 — 43

(٢٥) تعتبر طرابزون الميناء الرئيسي للبحر الاسود ، ومحطة لتجارة الغرب . واقام الجنوبية قلبها مستوطنة يديرها قنصل جنوي . انظر تفصيل ذلك :

Beazley, 11, P. 476 .

(26) Laiou, constantinople and the latin , P. 149 .

(٢٧) يقول ماندل أن المصطكي يستخرج من اشجار تعرف بهذا الاسم وهو صمغ يمسح ، ومنها جاءت كلمة مستكاوي وهو المعجون الذي يستخدم كطلاء واق أو كمادة لحشو الثقوب في الجدران المحصنة : Mandeville, P. 16 .

(٢٨) ان هذا البند من المعاهدة يلغي احتكار آل زكريا لتجارة الشب في البحر الاسود الذي بدأ عام ١٢٧٥ م ، كما بينا سابقا ، انظر ما سبق ، ص ٩٤ .

(29) Laiou, Constantinople. , P. 149 .

من التجار الجنوبية من عائلة زكريا ، هما مانويل وبينديتو زكريا (١٨) ولقد جمع مانويل زكريا ثروة طائلة من هذا المعدن . الا أن أحجار الشب المستخرجة من شواطئ البحر الاسود كانت قادرة على منافسة انتاج فوكيا . ولهذا تمكن مانويل زكريا من أن يحصل من الامبراطور على حظر يحرم على سواه من الجنوبية استيراد حجر الشب من البحر الاسود (١٩) . وبذلك انشغل آل زكريا بمصالحهم دون مصلحة جمهورية جنوه .

وكان أبرز ما حققته الجنوبية في بيزنطة في عهد ميخائيل الثامن هو امتداد نفوذهم التجاري والاستيطاني من بيزنطة الى البحر الاسود . ويعتبر نشاطهم في هذا البحر فصلا هاما في تاريخهم التجاري في بيزنطة . إذ أن الجنوبية قد احتكروا تجارة البحر الاسود ، بموجب معاهدة عام ١٢٦١ م (٢٠) . بينما كانت هذه التجارة وقفا على البنادقة على عهد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وقد اسس الجنوبية في كافا (٢١) مستوطنة تجارية لهم (٢٢) منذ عام ١٢٦٦ م (٢٣) . وأقاموا أخرى في طانا في العام نفسه

(18) Cahen ; l'alun , P. 441 ; laiou, constantinople P. 69 .

(19) Heyd, 1, PP. 438 .

(٢٠) نصت معاهدة عام ١٢٦١ م - كما رأينا - أنه لا يسمح لاية سفينة بالتوجه الى البحر الاسود الا للسفن الجنوبية ولسفن حلفائهم البيزانة . انظر :

Laiou , constantinople and the latins , P. 69 .

(٢١) كافا ميناء هام يقع على الشاطئ الشمالي للبحر الاسود . ويقول بيبس المنصوري أن كافا « مدينة للفرنج الجنوبية بين اسطنبول وبين القرم » . ويقول ابن بطوطة : « وصلنا الى مدينة الكفا وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى واكثرهم جنوية ... ورأينا في مرساها نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري ... » . انظر بيبس المنصوري : زبدة الفكرة ، مخطوط ، ورقة ٢٠٤ ، ابن بطوطة . ص ٣٢٢ .

(٢٢) يتفق بيبس المنصوري والرحالة طافور أن مدينة كافا تتبع مغول القبايق وأن الجنوبية يدفعون أتاة سنوية الى الخان مقابل استيطانهم في هذه المدينة : انظر : بيبس المنصوري : زبدة الفكرة ورقة ٢٠٤ ، ايضا :

Tafur , op. cit., P. 132 .

(23) Power, ' The opening of the land routes to cathay ' , P. 142

ووقع الامبراطور اندرنيق الثاني معاهدة مع الجنوية عام ١٣٠٨ م تركزت في معالجة مسألة المواطنة في المستوطنة الجنوية في غلطا . وحددت المعاهدة أنه لا يحق منح صفة المواطنة الا للبودستا الجنوي والمجلس الاعلى للجنوية في غلطا ، لان هذه الصفة كانت تعفي من يحملها من الرسوم والضرائب التي يتوجب دفعها للدولة البيزنطية . كما تضمنت المعاهدة أن اندرنيق قد طلب من الجنوية عدم نقل الاخشاب والحديد والرقيق من الامبراطورية الى مصر ، واذا فعلوا ذلك فيجب أن يدفعوا الضرائب والرسوم الجمركية (٢٠) ، ولا يدري مدى التزام الجنوية في هذا الامر .

وفي عام ١٣١٧ م تم تجديد معاهدة ١٣٠٨ بين الجنوية واندرنيق الثاني . واكد الطرفان فيها ضرورة حصر حق منح صفة المواطنة في غلطا بيد البودستا ومجلس المستوطنة . وذلك لان الحكومة البيزنطية اكتشفت أن عددا كبيرا من الاشخاص يحملون صفة المواطنة الجنوية ويتاجرون في الامبراطورية البيزنطية كجنوية وهم في حقيقة امرهم ليسوا بجنوية . كما اشارت المعاهدة بأنه لا يحق للجنوية اقامة ابنية خارج الناطق المحددة لهم وتحت طائلة العقوبة . واكدت المعاهدة أنه لا يجوز للجنوية بيع الملح في القسطنطينية وغلطا أو أي جزء من الامبراطورية (٢١) . ويبدو أن الهدف من ذلك هو رغبة الامبراطور في استمرار احتكار الدولة البيزنطية لتجارة الملح لانه مورد رئيسي للخزينة الامبراطورية .

وساءت العلاقات بين الجنوية وبيزنطة ما بين عام ١٣٤٨ - ١٣٤٩ م ، وذلك لان الامبراطور البيزنطي حنا كنتاكوزينوس Kantakouzenos (١٣٤٧ - ١٣٥٤ م) لم يكن ليرضى بأن يذهب ٨٧٪ من المكوس الجمركية في البوسفور الى ايدي الجنوية (٢٢) . ولهذا قام ، من أجل وضع حد لتفوقهم ونفوذهم التجاري ، بتخفيض التعريفات الجمركية في ميناء القسطنطينية على عدد كبير من المتاجر الواردة . فأخذت السفن التجارية تقصد ميناء القسطنطينية البيزنطي وتتجنب ميناء غلطا الجنوي (٢٣) . الامر الذي أدى الى ضائقة شديدة المت بالتجارة الجنوية . وقد تمكن الجنوية من

(30) Ibid , PP. 183 — 85 .

(31) Ibid. PP. 262 — 63 .

(32) Gregorae , op. cit., 11, PP. 840 — 42 .

(33) Kantakouzenos, historia, in C.S.H.B. , 111, PP. 68 — 69

الحاق هزيمة قاسية بالبيزنطيين وتدمير أسطولهم البحري في مارس ١٣٤٩ م . ونتيجة لذلك أبرم الامبراطور معاهدة سلام مع الجنوية وجدد لهم امتيازاتهم ، وتخلّى عن محاولته رفع النير الجنوي الذي يمسك بكاهل الامبراطورية واقتصادها (٢٤) .

الا أن التوتر قد استمر بين جنوة وحنا كنتاكوزينوس ، ولم ينفض عام ١٣٤٩ م ، حتى اتخذ الامبراطور خطوتين خطيرتين للغاية على تجارة جنوة وتفوقها في بيزنطة : أولهما استرداده لفوكيا من آل زكريا الجنوية (٢٥) ، وثانيهما توقيع معاهدة سلام مع البندقية في العام نفسه (١٣٤٩ م) (٢٦) . ولكن لم يكن من مصلحة الجنوية قبول هذه السياسة ، ولهذا مدوا يد العون الى حنا الخامس باليولوغوس (١٣٥٤ - ١٣٩١ م) الذي خلع كنتاكوزينوس واعتلى العرش البيزنطي (٢٧) .

واستمرت تجارة جنوة في بيزنطة في حالة ازدهار ونشاط كبيرين حتى أواخر القرن الرابع عشر . واتسعت مستوطناتها في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية . ويمكن القول أن السيادة التجارية للجنوية في بيزنطة قد بدأت منذ عام ١٢٦١ م ، بل - كما ذهب ميلر الى القول - أنه منذ هذا العام (١٢٦١ م) يؤرخ نمو جنوة وتطورها كقوة شرقية وأصبحت بالتالي عاملا هاما في المسألة الشرقية في العصور الوسطى (٢٨) .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري لجمهورية البندقية في بيزنطة بعد عام ١٢٦١ م ، فمن المعروف أن البندقية كانت قد لعبت دورا رئيسيا في الحملة الصليبية الرابعة . بقصد احتكار تجارة بيزنطة والبحر الاسود . والحصول على السيادة التجارية في حوض البحر المتوسط . واذا كانت البندقية قد حققت هذه الاهداف على عهد الامبراطورية اللاتينية في

(34) Ibid., PP. 68 — 70 ; Gregorae, 11, P. 841 ; 841 ; 851

(35) Kantakouzenos , 111, PP. 81 — 84 ; Gregorae, 11, PP. 765 — 67 .

(36) Nicol, the byzantine family, P. 71 .

(37) Vasiliev, op. cit., 11, P. 585 .

(38) Miller , the latins in the levant , P. 118.

القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) ، فان سقوط هذه الامبراطورية قد جعل البندقية عرضة للطرد نهائيا من كل ممتلكاتها ، وبدا أن تجار القديس مرقس سيوف يتم اقصاؤهم عن تجارة بيزنطة والبحر الاسود (٤٩) .

وبالرغم من أن ميخائيل الثامن لم يكن مستعدا لتفضيل حلفائه الجنوبية على غيرهم من الشعوب الاخرى ، وعمل على اقامة علاقات طيبة مع كل اللاتين الذين كانوا لا يزالون في القسطنطينية ، ومنح جاليات البندقية وبيزا وجنوة ، في القسطنطينية ، حرية التجارة والاستيطان واعفاهم من الضرائب والرسوم المتعلقة بالتجارة والاقامة (٤٠) . فلم يكن بإمكان البنادقة ترويض أنفسهم على سقوط الامبراطورية اللاتينية ، وعلى قبول خسارة احتكارهم للتجارة البيزنطية ، وعلى استثمار منافسهم الجنوبية بوضع متميز في أرض كان الايطاليون فيها جميعا تحت رحمتهم (٤١) .

لقد كان ميخائيل الثامن يتوقع هجوما من الغرب اللاتيني ضد بيزنطة (٤٢) . ولهذا رغب في أن يستأنف البنادقة نشاطهم التجاري في الامبراطورية ، فعرض على القومون البندقي مشروع معاهدة . واستجاب الدوج زينو Zeno للعرض البيزنطي ، وأرسل سفارة الى القسطنطينية في مارس ١٢٦٥ م . وانطوى مشروع المعاهدة على موافقة الامبراطور على أن يترك للبنادقة حرية البقاء في كل من مودون وكورن وكريت والقسم الذي يملكونه في نيقرابونت وجزر الارخبيل اليوناني . كما وافق الامبراطور على أن يكون للبنادقة في القسطنطينية وبقية مدن الامبراطورية حرية استثمار مشاريعهم التجارية وتنظيمها . وأن تكون ادارتها بيد موظفين معينين من قبل حكومة البندقية . كما تعهد الامبراطور بابعاد الجنوبية من القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية بالتعاون مع قوات البندقية . ووعدت البندقية

(39) Beazley , op. cit., 111, P. 463 ; lane , A maritime . P. 78 .

(40) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .

(41) Laiou , ' Marino sanudo ' , P. 375 .

(٤٢) عن علاقات ميخائيل الثامن بالغرب الاوربي . انظر :

Geanakoplos, Michael palaeologus, PP. 81 — 91 , 161—68.

182 — 85 ; 206 — 209 , 300 — 304 .

مقابل ذلك بالآ تقدم أية مساعدة لشارل آنجو في أي مشروع يقوم به ضد بيزنطة (٤٣) .

وكان أن ما طلت البندقية في التوقيع على مشروع المعاهدة السابقة ، لأنها كانت تبني الآمال على المشاريع الاوربية الرامية الى استعادة الحكم اللاتيني في القسطنطينية . وبعد ثلاث سنوات (١٢٦٨ م) تم توقيع المعاهدة ، الا أنها اشتملت على بنود كثيرة لم يتم الاتفاق عليها في مشروع معاهدة ١٢٦٥ م . فلقد تخلى الامبراطور عن التزامه بطرد الجنوبية من بيزنطة ، كما أن الطرفين اتفقا على أن البندقية يجب أن تعاقب قراصنة البنادقة الذين يلحقون الاذى في بيزنطة . كما تعهد البنادقة أيضا بالآ يهاجموا الجنوبية داخل الدردنيل أو البحر الاسود (٤٤) .

وفي مارس عام ١٢٧٧ م ، تم تجديد معاهدة ١٢٦٨ م ، بين ميخائيل الثامن والبندقية . وفيها وعد ميخائيل البنادقة بأن يمنحهم أماكن للاقامة وممارسة أعمالهم التجارية في كل من مدينتي القسطنطينية وسالونيك . ففي القسطنطينية منحهم مقرا لاقامة المشرف البندقي على شؤون القضاء في المستوطنة البندقية فيها ، ومقرا في سالونيك لاقامة القنصل البندقي . كما وعد ميخائيل بأن يمنح البنادقة أماكن أخرى لسكن كبار موظفي البندقية في المدينتين المذكورتين ، فضلا على مستودعات لاقامة التجار البنادقة ، شريطة أن تكون هذه الاماكن كلها مؤجرة لحساب الامبراطور الخاص . كما تنازل ميخائيل للبنادقة عن كنيسة مريم والقديس مرقس في القسطنطينية ، وعن الكنيسة القديمة للارمن في سالونيك . واطافة الى هذه الامتيازات كلها فقد سمح الامبراطور للبنادقة بنقل الحبوب القادمة اليهم من البحر الاسود عبر الارض البيزنطية دون دفع رسوم جمركية . كما نصت المعاهدة على تعهد الامبراطور بأن يدفع تعويضات للبنادقة عما يلحق بهم من اذى على يد القراصنة البيزنطيين . وبالمقابل يجب أن يدفع البنادقة تعويضات للامبراطور عما يلحقه القراصنة البنادقة

(٤٣) انظر نص مشروع معاهدة ١٢٦٥ م بين البندقية وميخائيل الثامن في :

Tafel and Thomas, op. cit., 111, PP. 62 — 89 .

(44) Ibid., PP. 92 — 101 .

من اضرار بالبيزنطيين (٤٥) .

وبالرغم من الامتيازات التجارية التي منحها ميخائيل الثامن للبنادقة الا أنهم لم يتخلوا عن احلامهم في استعادة امتيازاتهم القديمة في بيزنطة وسيادتهم على التجارة البيزنطية والممتلكات التي كانت في حوزتهم في ظل الامبراطورية اللاتينية . ولهذا نجد حكومة البندقية تصدر مرسوما عام ١٢٨٠ م تأمر فيه بايقاف ملاحقتها في المياه البيزنطية (٤٦) وفي العام التالي (٣ يوليو ١٢٨١ م) توقع معاهدة أورفيتو Orveto (٤٧) مع شارل آنجو بهدف غزو القسطنطينية واسقاط آل باليوغوس واسترداد الامبراطورية اللاتينية وبالتالي استرداد سيادتها التجارية في الشرق البيزنطي (٤٨) . ولكن ميخائيل الثامن تمكن من تدمير مشاريع شارل آنجو وحلفائه وانقذ بيزنطة من خطر داهم ، وذلك عن طريق تفجير المذابح الصقلية - بالتعاون مع ملك أراغونة - في ٢٩ مارس ١٢٨٢ م (٤٩) . وبذلك فقد تحطمت احلام البندقية وألحق تحالفها مع شارل أبلغ الاضرار وأفدحها بتجارها ومستوطناتها المتناثرة في الامبراطورية البيزنطية (٥٠) .

ورغم أن النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة ، خلال عهد ميخائيل الثامن (١٢٦١ - ١٢٨٢ م) ، كان نشاطا ضئيلا وأن أعداد البنادقة في

(٤٥) صدر تجديد معاهدة عام ١٢٦٨ م بشكل مرسوم اصدره الامبراطور ميخائيل الثامن في ١٩ مارس ١٢٧٧ م . انظر النص الكامل لهذا المرسوم في :

Tafel and Thomas, op. cit., 111, PP. 133 — 50 .
(46) Laiou, Constantinople, P. 236 .

(٤٧) انظر نص معاهدة أورفيتو في :

Tafel and Thomas op. cit., 111, docs. 373 — 374 : PP. 287

(٤٨) انظر تفصيل ذلك في :

Runciman, the sicilian vespers, P. 194.

Geanakoplos, Michal, PP. 194 — 99 .

(٤٩) ان افضل من كتب عن المذابح الصقلية ودور بيزنطة واراغونة في أحداثها وأسبابها ونتائجها ودور المدن الإيطالية فيها هو رنسيمان . انظر :

Runciman, the sicilian vespers, PP. 210 — 212 . 219 — 224 .
(50) Beazley, op. cit., 111, P. 464 .

بيزنطة قد تضاءلت بالنسبة الى أعداد الجنوية ، وأصبح الجنوية هم القوة التجارية التي سيطرت على التجارة البيزنطية خلال هذه الفترة ، الا أن النشاط التجاري للبنادقة في الامبراطورية لم يتوقف بشكل كلي ، وانما استمر التجار البنادقة يترددون الى المدن والموانئ البيزنطية . والدليل على ذلك الوثائق التي نشرها تافل وتوماس ، المتعلقة بالشكاوي التي بعث بها دوج البندقية في ديسمبر من العام ١٢٧٥ م الى الامبراطور ميخائيل الثامن ، والمتضمنة قوائم بما الحقه القراصنة ، والموظفون البيزنطيون بالتجار البنادقة من اضرار في مدن وموانئ بيزنطة . وتدل هذه الوثائق على أن تجارة البندقية في بيزنطة كانت لا تزال مستمرة (٥١) .

وعلى أية حال فعندما اعتلى اندرينق الثاني العرش البيزنطي (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) كان النشاط التجاري للبندقية في بيزنطة يعاني ضعفا شديدا وأزمة خطيرة وهذا يرجع الى استمرار البندقية في سياستها المعادية لميخائيل الثامن وتحالفها مع أعدائه ، لحياء الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . ويعود أيضا الى التفوق الجنوبي في بيزنطة ، وإلى التنافس والصراع بين الجنوية والبنادقة في الأراضي البيزنطية ومياهاها . ويضاف الى ذلك عدم توفر الأمن والحماية للتجار البنادقة في بيزنطة ، حتى أن الحكومة البندقية أصدرت في عام ١٢٨٢ م وعام ١٢٨٣ م وعام ١٢٨٤ م وعام ١٢٨٥ م سلسلة من القرارات تمنع بموجبها رعاياها من المتاجرة مع الامبراطورية البيزنطية (٥٢) .

وأخيرا أدركت البندقية التدهور الذي ألم بتجارها في بيزنطة والبحر الاسود . كما أدركت أن شارل آنجو لن يكون مفيدا لها ، وأن مشاريعه ضد بيزنطة لن يكتب لها النجاح . لهذا نقضت المعاهدة الموقعة معه وأخذت تتقرب الى بيزنطة (٥٣) . فبعث الدوج خنا داندولو John Dandolo وفدا الى بيزنطة برئاسة أنجلو مارسيلو وماركو جينو عام ١٢٨٥ م (٥٤) . ونجح الوفد في توقيع معاهدة صداقة مع الامبراطور اندرينق الثاني في ١٥

(51) Tafea and Thomas, op. cit., 111, PP. 159 — 61, 219 .

(52) Laiou, Constantinople, P. 61 .

(53) Vasiliev, op. cit., 11, P. 599 .

(54) Tafel and Thomas, 111, P. 322 .

يونيو ١٢٨٥ م مدتها عشر سنوات (٥٥) ، وكانت أهم البنود المتعلقة بالشؤون التجارية التي انطوت عليها المعاهدة هي : السماح للبنادقة بشراء القمح من البحر الاسود ونقله عبر الاراضي والمياه البيزنطية دون دفع رسوم جمركية . أما سفن البندقية التي تحمل متاجراً لغير البنادقة فلا بد أن تخبر السلطات البيزنطية لتقدير الضرائب والرسوم الجمركية اللازمة . كما اتفق على الا يقوم البنادقة والجنوية بالاعمال العدائية في المياه البيزنطية الممتدة من آبيروس (في الدردنيل) الى البحر الاسود . وأكدت المعاهدة أن مسؤولية الامبراطور تقتضي أن يجبر المعتدي على دفع التعويضات . كما تعهد الامبراطور البيزنطي ألا يسمح لاية قوة مسلحة أن تلحق الضرر بالبنادقة في مدن وموانئ الامبراطورية وبالمقابل تعهدت البندقية ألا تهاجم بيزنطة والا تتحالف مع احد ضدها والا تؤجر سفناً لاعدائها (٥٦) .

الا أن هذه المعاهدة لم ترأب الصدع في العلاقات التجارية بين البندقية وبيزنطة . ولم يستأنف التجار البنادقة نشاطهم بشكل ملموس في الامبراطورية . وفيما بين ١٢٩٦ - ١٢٩٩ م كانت البندقية في حالة حرب ضد بيزنطة وجنوة معا ، وذلك أن عددا من الجنوية قد قتلوا البودستا البندقي في القسطنطينية وعددا آخر من البنادقة . ويبدو أن الحكومة البيزنطية لم يكن لها علاقة بهذا الحادث ، غير أن البندقية حملتها المسؤولية ورفضت تجديد معاهدة ١٢٨٥ م معها قبل أن تتسلم التعويضات من الحكومة البيزنطية . كما قامت أساطيل البندقية بمهاجمة الجزر البيزنطية والممتلكات الجنوية في بحر ايجه والبحر الاسود ما بين ١٢٩٦ - ١٢٩٩ م (٥٧) .

وفي عام ١٣٠٤ م أصدر السناتو البندقي قرارا يمنع فيه أية سفينة بندقية من السفر بمفردها الى بيزنطة ، وانما يجب أن يتم السفر بشكل قوافل . وفي عام ١٣٠٦ م بعثت البندقية الى القسطنطينية تطالبتها بالتعويضات التي الحقها روجردي فلور Roger de Flor والجماعة

(55) Ibid., PP. 322 — 53 .

(56) Ibid., PP. 329 , 330 — 31 ; 335 — 36 ; 341 — 42 ; 346—47

(57) Laiou, constantinople and the latins, PP. 106 — 107 .

القطالونية (٥٨) بالبنادقة في الامبراطورية البيزنطية (٥٩) . وربما تفسر لنا هذه الصعوبات التي كانت تواجهها تجارة البندقية في بيزنطة ، عجز البندقية عن مقاومة اغراء العودة الى روح الحملة الصليبية الرابعة ، والعمل على استعادة سيادتها التجارية في بيزنطة ، وبالتالي تحالفها مع شارل صاحب فالوس (٦٠) Charles of Valios عام ١٣٠٦ م لاسقاط آل باليولوغوس واحياء الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (٦١) .

الا أن خوف البنادقة المتصاعد على مصالحهم وممتلكاتهم في بيزنطة ، نتيجة تفوق نفوذ الجنوية في الامبراطورية والبحر الاسود من جهة ونمو البحرية الاستبارية في رودس من جهة ثانية ، وفشل تحالفاتها مع شارل آنجو ومن ثم مع شارل فالوس من جهة ثالثة ، وادراكها أن روحا صليبية جديدة ضد بيزنطة أمر لا يمكن توقعه في المستقبل القريب من جهة رابعة (٦٢) . كل ذلك جعل السناتو البندقي يعلن عام ١٣٠٩ م ، عن استعداداته لقبول أية تسوية مع الامبراطور البيزنطي اندرينق الثاني . واستجاب الامبراطور لذلك وتم توقيع معاهدة سلام بين البندقية وبيزنطة عام ١٣١٠ م ، مدتها عشر سنوات (٦٣) . وأكدت هذه المعاهدة ألا يسمح للبنادقة بشراء القمح البيزنطي أو تصديره خارج الامبراطورية (٦٤) .

(٥٨) كان الامبراطور اندرينق الثاني قد طلب المساعدة من روجردي فلور واتباعه من المرتزقة القطالونيين . وذلك لكبح تقدم الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى . ووصل التتالونيون الى القسطنطينية عام ١٣٠٢ م . نظر تفاصيل ذلك في :

Vasiliev, 11, PP. 606 — 607, Hodgson, PP. 266 — 67 .

(59) Laiou, constantinople, P. 235 .

(٦٠) شارل فالوس هو شقيق ملك فرنسا فيليب الرابع . وتزوج شارل عام ١٣٠١ م من حفيدة آخر امبراطور لاتيني للقسطنطينية ، بلدوين الثاني ، وبذلك زعم أنه اكتسب حقا في عرش بيزنطة . ولكن انفرط تحالفه مع البندقية وفشل مشروعه باسترداد القسطنطينية . انظر :

Ostrogorsky, PP. 441 — 42 ; Heyd, 1, PP. 445 — 46 .

(61) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 44 .

(62) Laiou, ' Marino sanudo ' , P. 376 .

(63) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 47 .

(64) Laiou, constantinople. PP. 237 — 38 .

وفي عام ١٣١٩ م جددت البندقية المعاهدة السابقة (١٣١٠ م) مع بيزنطة ، وما يهمنها فيها هو تعهد البنادقة ألا يبيعوا القمح لرعايا الامبراطور الا بموافقة منه ، وعلى البيزنطيين الذين يشترون القمح من البنادقة دفع ضرائب ورسوم لخزينة الدولة ، وذلك لان ثمن قمح البحر الاسود كان ، في القرن الرابع عشر ، يقل عن ثمن القمح البيزنطي (٦٥) وهذا يدل على رغبة الامبراطور في حماية الانتاج البيزنطي .

وقد قامت البندقية في عام ١٣٢٤ م بخطوتين للتقرب من بيزنطة ، وبالتالي خلق الظروف الملائمة لتجارتهما في الامبراطورية والبحر الاسود . ففي هذا العام ابلغت حكومة البندقية الامبراطور ، اندرينق الثاني بأنه ليس هناك اهتمام لدى الامراء الفريبيين في هذه الفترة بمهاجمة القسطنطينية (٦٦) . كما أنها وقعت معاهدة معه في العام نفسه (١٣٢٤ م) ، مدتها خمس سنوات (٦٧) ، وهي في حقيقتها تجديد لبنود معاهدة ١٢٨٥ م (٦٨) .

ويبدو أن النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة قد استعاد بعض حياته في عهد اندرينق الثالث (١٣٢٨ - ١٣٤١ م) . إذ ان الطرفين كانا مهتمين بالحد من نفوذ الجنوية وتفوقهم في بيزنطة والبحر المتوسط من جهة ، وفي وضع حد لفترات الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى من جهة ثانية (٦٩) . ولهذا تحالف البنادقة مع اندرينق الثالث عام ١٣٣٢ م لصد الاتراك العثمانيين (٧٠) . وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ (١٣٣٩ م) جددت البندقية معاهداتها التجارية مع بيزنطة (٧١) . الا أن تقدم الزحف العثماني قد أفقد الكثير من هذه الامتيازات قيمتها ، ولكنها كانت سندا شرعيا لمواجهة غرور الجنوية وأطماعهم ، خاصة وأن الجنوية والبنادقة كانوا

(65) Ibid., P. 238 .

(66) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' P. 47 .

(67) Laiou, ' Marino sanudo ' , P. 379 .

(68) Tafel and Thomas , 111, doc. 378, PP. 222 — 26 .

(69) Laiou, Marino ; P. 384 .

(70) Geanakoplos, ' Byzantium and the crusades ' , P. 51 .

(711) Brown , venice, P. 195 .

في حالة صراع وتنافس مستمرين للسيطرة على التجارة الشرقية .

وحدث تقارب بين الامبراطور البيزنطي حنا كنتاكوزينوس والبندقية ففي عام ١٣٤٩ م جدد الامبراطور امتيازات البندقية في الامبراطورية (٧٢) وبعد عامين (١٣٥١ م) وقع الامبراطور نفسه معاهدة تحالف مع البنادقة ضد الجنوية في غلطا (٧٣) . حيث تعهد فيها ان يعامل الجنوية كاعداء وأن يرحب بالبنادقة في كل أنحاء الامبراطورية . واتفق الطرفان على أنه اذا تم احتلال غلطا فانه يجب أن تدمر بشكل كامل ، وان توزع الغنائم والاسلاب فيها بين البنادقة والبيزنطيين (٧٤) . ولكن هذا التحالف البندقي - البيزنطي ، قد فشل في تحقيق أهدافه ، نتيجة الهزيمة البحرية التي حققتها القوات البحرية الجنوية بالاسطولين البندقي والبيزنطي معا في فبراير من عام ١٣٥٢ م (٧٥) . وأدى ذلك الى الحاق أبلغ الأضرار بالنشاط التجاري للبنادقة ومستوطناتهم في بيزنطة من جهة وإلى تعاظم نفوذ الجنوية وهيمنتهم على التجارة البيزنطية من جهة ثانية .

واستمر النشاط التجاري للبنادقة في بيزنطة يعاني الضعف والتدهور حتى أواخر القرن الرابع عشر ، وكانت صورته مغايرة تماما لما كان عليه النشاط التجاري للجنوية في الامبراطورية . وبالتالي يعتبر نشاط البندقية التجاري في بيزنطة والبحر الاسود ، بعد عام ١٢٦١ م وحتى أواخر القرن الرابع عشر ، فصلا كئيبا في تاريخها التجاري كله .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للبيازنة في بيزنطة ، بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية (١٢٦١ م) ، فقد استمر بصورة أفضل مما كان عليه في ظل الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . وذلك لان معاهدة عام ١٢٦١ م ، التي وقعتها جنوه مع ميخائيل الثامن ، قد ضمنت للبيازنة حرية المتاجرة واقامة المستوطنات في البحر الاسود . وهذا دليل على

(72) Kantakuzenos, 111, P. 118 ; nicol. Byzantine Family ,P. 71.

(73) Kantakouzenos, 111, PP. 185 — 91 .

(74) Ibid., PP. 187 — 90 .

(75) Ibid. , PP. 193 — 200 , 218 — 19 ; Gregorae, 111, PP.

84 — 92 , 106 — 108 .

العلاقات الودية التي ربطت ميخائيل الثامن بالبيازنة - وقتذاك ، من جهة ، وعلى استمرار النشاط التجاري لمدينة بيزا وبقاء جالياتها في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية من جهة أخرى .

ولكن على الرغم من استمرار النشاط التجاري للبيازنة في الامبراطورية البيزنطية والبحر الاسود ، غير أن حجم هذا النشاط كان يتضاءل يوما بعد يوم . وذلك نتيجة ضعف جمهورية بيزا وتدهورها فاحتلال شارل أنجو لمدينة بيزا وتدمير مينائها على ١٢٦٨ م قد الحق بالنشاط التجاري للبيازنة أبلغ الأضرار وأفدحها (٧٦) . كما أن هزيمة البيازنة أمام الجنوية عام ١٢٨٤ م قد أدت إلى دمار ميناء بيزا من جهة وهيمنة الجنوية على البحر التيراني من جهة أخرى (٧٧) . وكانت هذه الأحداث ضربات قاسية بالنسبة إلى البيازنة ونشاطهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بعمامة وبيزنطة بخاصة . فانحطاط المدينة الأم وتدهورها انعكس على نشاط جالياتها التجارية المنتشرة في المدن البيزنطية . كما أن هيمنة الجنوية - كما رأينا - على التجارة البيزنطية منذ عام ١٢٦١ م ، جعلت النشاط التجاري للبيازنة في بيزنطة ضئيلا ، وأدت إلى ضعف الجالية البيزاوية في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية . وبذلك يمكن القول أن بيزا خرجت - خلال القرن الرابع عشر - من دائرة المدن الإيطالية الرئيسية التي تتاجر مع بيزنطة ، وأصبحت القوى الإيطالية التجارية في الامبراطورية البيزنطية متمثلة في الجنوية والبنادقة (٧٨) .

وفي ظل المعاهدات التجارية الآتفة الذكر ، بين بيزنطة من جهة وبين كل من البندقية وجنوة ، قام تجار هاتين المدينتين بحركة تصدير واستيراد واسعة في الامبراطورية البيزنطية . وذلك أنهم نقلوا السلع والبضائع البيزنطية من جهة ومتاجر الشرق الأقصى التي تتدفق إلى الاسواق

(76) Runciman , the Sicilian Vespers , PP. 100 , 105 , 120 .

(77) Laiou , constantinople and the latins , PP. 69 — 70 ; Argenti , op. cit. , P. 31 .

(78) Beazley , op. cit. , 11 , P. 432 , Baker , op. cit. , P. 8 ; Argenti , op. cit. , PP. 31 — 32 .

البيزنطية والمستوطنات الإيطالية في المدن والموانئ البيزنطية من جهة ثانية كما قام التجار الإيطاليون باستيراد العديد من سلع وبضائع الغرب الاوربي ، وبلدان عالم البحر المتوسط ، إلى الامبراطورية البيزنطية واسواقها . وكانت أهم المتاجر التي نقلها التجار الإيطاليون ، وبصفة خاصة الجنوية والبنادقة ، من بيزنطة هي :

القمح : لا حظنا - من خلال المعاهدات التجارية التي وقعت بين الامبراطورية والبنادقة والجنوية - أن الإباطرة البيزنطيين كانوا يمارسون نوعا من الاحتكار بالنسبة إلى تجارة القمح ، حيث ساهمت الدولة البيزنطية في تحديد ثمنه والشروط التي يسمح بموجبها بيعه للإيطاليين . وكان الموظفون البيزنطيون - كما يعتقد Laiou يشرفون على عملية بيع هذه السلعة للإيطاليين (٧٩) ، ولقد بين Hodgson أن نشاط التجار لم يقتصر على نقل القمح الذي تنتجه أراضي بيزنطة والبحر الاسود فحسب وإنما نقلوا القمح البلقاري عبر الممتلكات البيزنطية (٨٠) .

الشب : استخدم الشب في الصناعات النسيجية في الغرب الاوربي لتثبيت الألوان ، وصباغة الحرير والاصواف ودباغة الجلود . وقد أشرنا فيما سبق إلى استثمار آل زكريا لمناجم الشب البيزنطية في فوكيا منذ عام ١٢٧٥ م كما بينا أيضا أن الحكومة البيزنطية سمحت للجنوية بنقل الشب من شواطئ البحر الاسود إلى الغرب الاوربي (٨١) .

الحرير والصناعات الحريرية : لقد كانت الامبراطورية البيزنطية هي المصدر الرئيسي للصناعات الحريرية إلى الغرب الاوربي منذ القرن السادس الميلادي حتى أواخر القرن الثاني عشر ، وذلك لانه - منذ ذلك الوقت - اخذت الصناعات الحريرية في صقلية تنافس الحرير البيزنطي في الاسواق الاوربية (٨٢) . ولكن استمرت السيادة في هذه السلعة للصناعة البيزنطية . حتى ذهب أحد الكتاب المحدثين إلى القول أن السبب الاساسي الذي جعل

(79) Laiou , constantinople , P. 73 .

(80) Hodgson , op. cit. , P. 38 .

(81) Cahen , op. cit. , P. 433 , Rabie , the Financial System , P. 83 .

(82) Boulonis , the silk road , PP. 201 — 202 .

البنادقة يحولون الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية هو وجود صناعة الحرير في القسطنطينية والاقليم البيزنطية الاخرى (٨٢) . ولهذا فقد كانت الصناعات الحريرية البيزنطية من المواد الرئيسية التي قام التجار البنادقة والجنوية بنقلها الى الغرب الاوربي .

كما صدر التجار الايطاليون متاجر الشرق الاقصى التي تدفقت الى الموانئ والاسواق البيزنطية ، فضلا عن اسواق المستوطنات الايطالية وفي مقدمة هذه المتاجر تأتي التوابل بأنواعها المختلفة ، مثل الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والكافور ، وكانت تصل الى الاسواق البيزنطية من الهند وجزيرة جاوة بصفة خاصة (٨٤) . وكان التجار الايطاليون يقومون بنقل هذه التوابل الى الغرب الاوربي . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر اتجهت اعداد من التجار الايطاليين الى الهند واخذت تنقل التوابل الى الغرب الاوربي عبر بيزنطة (٨٥) .

وكذلك فقد نقل الايطاليون من الاسواق البيزنطية العديد من متاجر الشرق الاقصى ، مثل اللؤلؤ والياقوت والماس ، التي تصل من سيلان والهند ، والسجاجيد القادمة من تبريز وسمرقند وبخارى ، والنباتات الطبية القادمة من جاوه ، والحرير والخزف والخيوط الذهبية القادمة من الصين (٨٦) .

كما نقل التجار الايطاليون من بيزنطة الرقيق . حيث كانت القسطنطينية سوقا رئيسيا للمتاجرة بهذه « السلعة » . وقد شحن هؤلاء التجار رقيقا من جنسيات متعددة مثل : الروس والتتار والارمن والهنغار والبلغار والشراكسة (٨٧) ، وذلك الى الغرب الاوربي وايطاليا ومصر (٨٨) . وكان في مدينة البندقية سوقا خاصا لبيع الرقيق ، وقد اقام

(83) Ibid., P. 206 .

(84) Mandeville, op. cit., PP. 16 ; 112 — 14 ; Odoric, op. cit., PP. 330 — 35 , 341

(85) Odoric, op. cit., PP. 328 , 330 , 344 .

(86) Ibid. , PP. 339 ; 347 ; mandeville , PP. 105 — 106 .

(87) Tafur , PP. 133 — 34 , Origo , op. cit., PP. 323, 328 — 29

(88) Origo , op. cit., P. 326 .

كبار تجار الرقيق وكلاء لهم في مدينة البندقية ، كما كانت هناك اسواق اخرى للرقيق في مدينة جنوه وبيزا وانكونا (٨٩) .

ونقل التجار الايطاليون من الاسواق البيزنطية العديد من المتاجر القادمة من مناطق البحر الاسود وروسيا ، مثل الفراء بأنواعه المختلفة ، الذي كان يتدفق الى الاسواق البيزنطية من روسيا ، وكانت مدينة سالونيك البيزنطية سوقا رئيسيا لبيع الفراء (٩٠) . وكذلك الجلود السبيرية ، فضلا عن الكفيار والاسماك التي تدفقت الى الاسواق البيزنطية من ضفاف نهر الدون (٩١) .

وكان ان قام التجار الايطاليون باستيراد العديد من السلع والمتاجر الى الامبراطورية البيزنطية مثل : الزيت من ايطاليا ، والنبذ والخمور عامة من اليونان (٩٢) ونابولي (٩٣) ، والكتان من مصر (٩٤) ، والاسماك المملحة من منطقة القرم (٩٥) ، والمعادن المصنعة والخام والاقمشة الكتانية من المانيا وايطاليا ، والكتان والعسل والسمك والمنتجات الزراعية من بلغاريا (٩٦) ، والاقمشة الحريرية والصوفية من ايطاليا ، والاقمشة والمنسوجات من الفلاندر (٩٧) .

الا ان النشاط التجاري للمدن الايطالية بعامة ، والبندقية وبنوه بخاصة ، في الامبراطورية البيزنطية ، منذ عام ١٢٦١ م ، وحتى اواخر القرن الرابع عشر ، قد تأثر بكثير من المعوقات فالتنافس بين البندقية وبنوه ،

(89) Ibid. , PP. 328 — 29 , 337 .

(90) Rubruquis, P. 272 ; heyd , P. 224 .

(91) Rubruquis , PP. 263 , 265 — 66 , 275 , 292 .

(92) Baker, op. cit., P. 18 .

(93) Ludolph von suchem , P. 6 .

(94) Baker , op. cit., , P. 18 .

(95) Rubruquis, op. cit., P. 263 .

(96) Guerdan, op. cit., P. 100 .

(97) Tafur, P. 127 ; Baker, P. 4.

للسيطرة على التجارة الشرقية ، كان وبالا على نشاطهما التجاري في الامبراطورية البيزنطية . واتخذ هذا التنافس اشكالا عديدة فالحرب التي اندلعت بين البندقية وجنوه ، ما بين عامي ١٢٩٣ - ١٢٩٩ م (٩٨) ، في المياه البيزنطية ، قد الحقت ابلغ الاضرار وافدحها بالنشاط التجاري للبنداقية والجنوية ومستوطناتهم في الامبراطورية البيزنطية (٩٩) . فائناء هذه الحرب وصل اسطول بندقي (١٢٩٦ م) الى القرن الذهبي ، تحت قيادة مورسيني ، بنية مهاجمة المستوطنة الجنوية في غلطا ، وغادر الجنوية مستوطنتهم والتجأوا الى داخل القسطنطينية بموافقة الامبراطور البيزنطي اندرينق الثاني . وقام رجال الاسطول بنهب بيوت الجنوية في غلطا واحرقها . وبعد أن غادر الاسطول القرن الذهبي قام الجنوية بمهاجمة المستوطنة البندقية في القسطنطينية ، وأعملوا السلب والنهب والتدمير فيها ، وذبحوا كل المستوطنين البنداقية « واعتقلوا الباليو البندقي في القسطنطينية (١٠٠) . وبعد نصف قرن تقريبا انفجر النزاع ثانية بين البندقية وجنوه في البوسفور (١٣٥٢ م) نتيجة تنافس الطرفين للسيطرة على تجارة البحر الاسود ، وألحق هذا النزاع بنشاطهما التجاري في بيزنطة والبحر الاسود اضرارا بالغة (١٠١) . وقبل نهاية القرن الرابع عشر اندلعت اعنف حرب بين البندقية وجنوه في بيزنطة (١٣٧٧ - ١٣٨١ م) وذلك نتيجة رغبة كل منهما امتلاك جزيرة تيندوس البيزنطية (١٠٢) . وامتدت هذه الحرب الى اجزاء أخرى من الامبراطورية البيزنطية ، وألحقت افسدح الاضرار في النشاط التجاري للبنداقية والجنوية ومستوطناتهم في القسطنطينية وبقية

(٩٨) انتهت هذه الحرب بمعاهدة سلام وقعها البنداقية والجنوية في ميلان بتاريخ ٢٥ مايو عام ١٢٩٩ م . انظر :

Tafel and Thomas , 111, P. 391 .

(99) Gregorae, 1, PP. 207 — 8 ; Argenti , PP. 31 — 32 ;

Ostrogorsky , PP. 436 — 37 .

(100) Argenti , op. cit., P. 32 ; laiou , Constantinople P. 106 .

(101) Ostrogorsky, PP. 471 — 72 ; Vasiliev ; 11, P. 627 .

(١٠٢) كانت جزيرة تيندوس احدى الجزر القليلة التي لا تزال بأيدي الاباطرة البيزنطيين وهي تقع عند مدخل الدردنيل وتعتبر خير مرفأ لرسو السفن . واطلق على هذه الحرب اسم حرب جزيرة تيندوس . انظر : Tafur, PP. 113 — 14 .

المدن البيزنطية (١٠٣) .

وكان انتهاك المعاهدات التجارية ، التي تم توقيعها بين المدن الايطالية والامبراطورية البيزنطية ، عاملا من العوامل التي أعاققت النشاط التجاري لهذه المدن في الامبراطورية البيزنطية . فلامبراطور البيزنطي لم يكن بقادر دائما على ضبط نشاطات موظفيه في الامبراطورية ، الذين كانوا يمارسون كل أشكال الابتزاز على التجار الايطاليين ، ويجبرونهم أحيانا على دفع رسوم جمركية ، ويمنعون السفن التجارية الايطالية من دخول البحر الاسود ما لم يدفع أصحابها رشاً للموظفين البيزنطيين (١٠٤) .

ولقد ابتليت ملاحه المدن الايطالية وتجارها في المياه البيزنطية بوباء القرصنة منذ عام ١٢٦١ (١٠٥) . اذ تحولت العديد من الجزر البيزنطية الى ملاجئ للقراصنة بدلا من كونها محطات تجارية . والحقت القرصنة اضرارا بالغة بالنشاط التجاري لكل الاطراف التي ساهمت فيها ، فاذا كان البنداقية هم الضحايا الرئيسية للقرصنة فان الجنوية والبيازنة والبيزنطيين لم يكونوا بمنجاة دائما من اضرارها (١٠٦) .

وفي مستهل القرن الرابع عشر أخذ الاتراك العثمانيون يهددون تجارة المدن الايطالية في الامبراطورية البيزنطية . فالاهمية التجارية لظهور العثمانيين في آسيا الصغرى هي أنهم احتلوا المنطقة التي تقع بين طريقين رئيسيين يتجهان من الاراضي البيزنطية الى الشرق الأقصى وهما : طريق

(١٠٣) انتهت هذه الحرب بجعل جزيرة تيندوس حيادية وذلك في معاهدة السلام التي وقعت في تورين بتاريخ ١٨ أغسطس ١٢٨١ م . انظر تفصيل ذلك : Tafur, P. 114 , Hodgson , PP. 512 — 13 ; Mcneill, PP. 68 — 73 .

(104) Tafel and Thomas , 111, P. 159 .

(١٠٥) قال المؤرخ جريجوري ان انتشار القرصنة في المياه البيزنطية كان نتيجة تدهور البحرية البيزنطية ، حيث وجد بحارة بيزنطة وملاحوها أنفسهم عاطلين عن العمل ، فانضموا الى سفن القراصنة وأخذوا يهاجمون الممتلكات الايطالية في بيزنطة : Gregorae, op. cit., PP. 175 — 76

(106) Tafel and Thomas , 111, P. 219 ; Charanis, The piracy ; PP. 127 — 30 , 134 — 35 .

طرابزون تبريز ومن ثم الهند والصين ، والثاني طريق اياس تبريز ومن ثم الهند والصين (١٠٧) . ومنذ عام ١٣١٨ م بدأت الوثائق البندقية الرسمية تتحدث عن غارات القراصنة الاتراك العثمانيين ضد الملاحنة البندقية في المياه البيزنطية وضد الممتلكات البندقية في بحر ايجه (١٠٨) . وفي عام ١٣٥٦ م هيمن الاتراك العثمانيون على جانبي الدردنيل وأخذوا يفرضون اتاوات سنوية على التجار البنادقة والجنوية (١٠٩) .

وكانت الاوبئة من العوامل الرئيسية التي أعاققت النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الامبراطورية البيزنطية . وأبرز مثال على ذلك ما أطلق عليه المؤرخون المحدثون اسم « الموت الاسود » Black death والذي انتشر عام ١٣٤٨ م (١١٠) . ويعتبر هذا الوباء من أخطر الاوبئة التي اجتاحت العالم في العصور الوسطى (١١١) . وعانت المستوطنات التجارية الإيطالية في بيزنطة والبحر الاسود معا نقصا كبيرا في سكانها وبالتالي في نشاطها التجاري ، نتيجة انتشار هذا الوباء (١١٢) .

ويعتبر اضطراب النشاط التجاري للمدن الإيطالية في البحر الاسود من العوامل الرئيسية التي أعاققت النشاط التجاري لهذه المدن في

(107) Lybyer, The ottoman turks and the routes of oriental trade, PP. 578 — 79 .

(108) Laiou , Marino , P. 379 .

(109) Lybyer, op. cit., P. 580 .

(١١٠) ساد الاعتقاد أن الوباء جاء من مدينة كافا الجنوبية في البحر الاسود ، ومن المحتمل أنه نقل عن طريق سفينة جنوية . وطبقا لرواية أخرى أن الوباء قد جلب من الصين في رزم الحرير من قبل تجار جنوية عائدین الى كافا . وهناك رواية ثالثة أن الوباء انتشر بين التتار الذين كانوا يحاصرون كافا وقام هؤلاء التتار بتدفد المجتث الملونة بالجراثيم من خارج الاسوار الى داخل مدينة كافا وسرعان ما انتشر الوباء ورفع الحصار . وبعد قليل ظهر الوباء في ايطاليا عن طريق سفينة جنوية قادمة من كافا . انظر :

Origo, P. 324 ; Power, P. 143 .

(١١١) قال ابن دقماق : « أنه عم الخلق من مؤمن وكافر من سائر البلاد خصوصا بلاد الفرنج وأخلي أكثر البلاد وعمدت سائر الصنایع » . ابن دقماق الجوهر الثمين ، مخطوط ورقة ٨٥٨ — ١٥٩ .

(112) Brown , venice, PP. 195 — 97 ; Boulonis, P. 209 ; Baker, P. 18 .

الامبراطورية البيزنطية . فالنزاع بين المغول والتجار الجنوبية في كافا عام ١٣٠٧ م (١١٢) ، وبالتالي احراق الجنوبية لهذه المستوطنة الهامة كان كارثة اقتصادية كبرى على نشاطهم التجاري في البحر الاسود وبيزنطة كما أن طرد المغول للجنوية والبنادقة من مدينة كافا عام ١٣٤٣ م، كان ضربة قاسية ألقت بنشاطهم التجاري في البحر الاسود والامبراطورية البيزنطية على السواء (١١٤) . واضافة الى ذلك فان اضطراب طرق الشرق الأقصى ، التي تصل شواطئ البحر الاسود وبيزنطة بأرض الحرير والتوابل قد الحق بالنشاط التجاري للايطاليين ابلغ الاضرار . وذلك أن سقوط الدولة المقلية (دولة ايلخانات المغول) عام ١٣٦٨ م وعودة الصين الى التقوقع على ذاتها من جديد تحت قيادة أسرة صينية (١١٥) ، أدى الى انعدام الامن والحماية في طرق الشرق الأقصى ، وبالتالي الى تضاعف الاتصال التجاري بين الشرق الأقصى والغرب الاوربي . وقد انعكس ذلك كله على نشاط الايطاليين في بيزنطة ، وبالتالي أخذ التجار الايطاليون يبحثون عن طرق جديدة للوصول الى أرض الحرير والتوابل .

ولئن كان النشاط التجاري للجنوية في بيزنطة ، بعد عام ١٢٦١ م ، وحتى أواخر القرن الرابع عشر ، فصلا مشرقا في تاريخهم التجاري ، ولئن كان النشاط التجاري للبنادقة ، في تلك الحقبة قد عانى التدهور والانحطاط ، فلقد كانت بيزنطة واقتصادها ومستقبلها الضحية الرئيسية لهذا كله . فثروات بيزنطة ومواردها انتقلت الى جيوب التجار الايطاليين ومخازنهم ، وأصبح عرش الامبراطورية وأباطرتها العوبة بأيدي رجال المال من هؤلاء الايطاليين . . . بينما كان الشعب البيزنطي يعاني المذلة وهو يرى كيف يبذل للايطاليين ذهب بلاده ونساءها مقابل الحصول على حبات القمح التي يفتات بها ، كما قال ذلك بطريرك القسطنطينية أثاناسيوس (١١٦) .

(١١٣) انظر تفصيل النزاع بين مغول القبايق والجنوية في كافا في : بيرس المنصوري : زبدة الفكرة ، مخطوط ، ورقة ٢٥٨ أ .

(114) Obolensky, Byzantium and the slaves , P. 249 : Power , op. cit., P. 143 .

(115) Boulonis, the silk road , P. 209 .

(116) Charanis ' Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire, ' P. 422 .

الفصل الرابع

أحوال المستوطنات التجارية الإيطالية في القسطنطينية ١٢٠٤

لقد تركزت التجارة الخارجية للامبراطورية البيزنطية ، خلال معظم تاريخها في مدينة القسطنطينية بالذات أكثر من أية مدينة بيزنطية أخرى، وكان التجار الأجانب الذين يتوافدون إليها يستأجرون بيوتا أقامها البيزنطيون خصيصا لهم في ضواحي العاصمة في البداية ، وبعد ذلك داخل أسوارها (١) ، وكانت اقامتهم محددة بمدة ثلاثة أشهر فقط ، يتعرض من لم يغادر المدينة بعدها لعقوبات صارمة (٢) .

ويرتبط التاريخ الحقيقي للمستوطنات التجارية الإيطالية في الامبراطورية البيزنطية ارتباطا وثيقا بالمراسيم التي أصدرها الإباطرة البيزنطيون ، منذ أواخر القرن الحادي عشر . وعلى الرغم من أن المدن الإيطالية كانت قد أقامت مستوطنات تجارية لها في معظم المدن البيزنطية الرئيسية مثل : سالونيك ، وادريانوبل ، وفيلادلفيا ، وسميرنا (أزمير) وفيلوبولس ، وهيراقية ، ورودوستو ، وآبيدوس ، وغيرها (٣) . غير أن المستوطنات الرئيسية للمدن الإيطالية (البندقية ، بيزا ، وجنوة) في الامبراطورية البيزنطية قد تركزت في مدينة القسطنطينية . أما بالنسبة إلى مستوطنة البنادقة في القسطنطينية فقد تأسست بموجب المرسوم الذي أصدره الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين عام ١٠٨٢ م . وقد نص على (التنازل للبنادقة عن حي في القسطنطينية على طول الشاطئ الجنوبي للقرن

(١) انظر التنظيمات والقوانين التي ضبعت نشاطات التجار الأجانب في القسطنطينية ومدن الامبراطورية الأخرى في كتاب الوالي :

The Book of the Prefect, P. 60 .

(2) Slessarev, Ecclesiae, PP. 180 — 81 , Hodgett, P. 50 , Guerdan , PP. 90 — 92 .

(3) Heyd, 1, PP. 243 — 47 .

الذهبي (٤) . الذي يمتد من رصيف اليهود غربا حتى بوابة الحارس شرقا ، ويضم ثلاثة أرصفة لرسو السفن (٥) .

ومن الصعوبة بمكان تبين حدود المستوطنة البندقية في القسطنطينية ومميزاتها الطبوغرافية بدقة ، وذلك لأن هذا المرسوم وما تلاه من مراسيم امبراطورية لا تساعدنا في حل هذه المسألة ، غير أن الدراسات الحديثة التي قام بها براون Brown وبراند Brand توصلت إلى تقدير طول المستوطنة البندقية في القسطنطينية بحوالي $\frac{1}{3}$ ميل ، وعرضها حوالي $\frac{1}{10}$ ميل ، وعلى طول الشريط المستطيل الذي تشغله المستوطنة تمتد أسوار المدينة تاركة حوالي (٨٠) ياردة بين البحر والصور (٦) .

وكان أن ازدحمت المستوطنة البندقية في القسطنطينية نتيجة تدفق البنادقة عليها منذ تأسيسها ، والدليل على ذلك أن الإمبراطور مانويل كومنين قد منح البنادقة حق توسيع مستوطنتهم في مرسوم عام ١١٤٨ م (٧) . إلا أن عمليات الاعتقال والمصادرة التي ألتمت بالبنادقة في القسطنطينية عام ١١٧١ م ، أدت إلى ضعف المستوطنة ونقص عدد سكانها . ولم نسمع عن أي تغيير في حدود هذه المستوطنة أو مساحتها حتى سقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م . والسبب في ذلك ضعف العلاقات التجارية بين بيزنطة والبندقية في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر ، فضلا عن التوتر الذي اتسمت به العلاقات بين البيزنطيين والبنادقة خلال تلك الفترة (٨) .

(٤) كانت الأحياء الإيطالية في القسطنطينية (البندقية والبيزاوية والجنوية) متراسة بجانب بعضها البعض على طول الشاطئ ولكن كان للبيزنطيين داخل هذه الأحياء أماكن كثيرة ومنازل وأديرة كما أن أعدادا من البيزنطيين كانوا يسكنون في الأحياء الإيطالية بصفة مستأجرين ، عن ذلك انظر :

Heyd. , 1, P. 255 .

(5) Anna comnene , the alexiad, PP. 146 — 47 .

(6) Brown, the venetian Quarter, P. 75 , Brand, op. cit., P. 205

(7) Heyd, 1, P. 200 ; Beazley, 11, PP. 411 — 12 .

(8) Kinnamos, PP. 280 — 86 ; Nicetas, PP. 220 — 26 .

وأثناء الحكم اللاتيني للقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) ، استمرت مستوطنة البندقية في موقعها بما في ذلك الارصفة والمستودعات والاسواق والكنائس والبيوت السكنية ، فضلا على الطاحونة والفرن والحمام ، التي كانت تشملها في أيام آل كومنين (٩) . ولكن من المؤكد ان حدود هذه المستوطنة قد اتسعت اتساعا مذهلا في ظل الحكم اللاتيني للقسطنطينية ، وذلك لان معاهدة تقسيم « رومانيا » أي بيزنطة ، بين البنادقة والصليبيين عام ١٢٠٤ م ، منحت البندقية ^٥/_٨ القسطنطينية ولهذا فقد اتسعت مستوطنة البندقية في القسطنطينية بعد الاحتلال اللاتيني لها عام ١٢٠٤ م (١٠) .

ومن الطبيعي أن مساحة مستوطنة البندقية في القسطنطينية قد تقلصت بعد استرداد البيزنطيين لعاصمتهم عام ١٢٦١ م . وعلى الرغم من أنها استمرت تحتل مكانها القديم على الشاطئ الجنوبي للقرن الذهبي ، إلا أن التوسع في القصر الإمبراطوري ، الذي كان يحاذي المستوطنة ، من جهة ، والتحسينات الإضافية التي أقيمت بعد احياء الامبراطورية من جهة ثانية ، قد أدى الى انكماش حدود مستوطنة البندقية ومساحتها (١١) ، فضلا عن ذلك فقد حرمت من عدد من ممتلكاتها لان معاهدة عام ١٢٦١ م بين ميخائيل الثامن باليولوغوس والجنوية قد منحت الجنوية كنيسة نوتردام ، التي كانت بحوزة البنادقة في القسطنطينية ، وكذلك الاملاك المحيطة بهذه الكنيسة ، والتي تضم مقبرة وقطعة أرض قامت عليها قلعة البنادقة (١٢) .

ويلاحظ أن معاهدة عام ١٢٧٧ م بين ميخائيل الثامن والبندقية أعادت الى المستوطنة البندقية في القسطنطينية بعض ممتلكاتها ، التي انتزعت

- (9) Hodgson, P. 13 .
(10) Villehardouin, op. cit., PP. 136 — 37 .
(11) Brown, ' The venetian ' , P. 78 .
(12) Hodgson , P. 38 .

منها بعد عام ١٢٦١ م ، حيث منح الامبراطور بموجب هذه المعاهدة البنادقة أماكن جديدة للاقامة ، وممارسة أعمالهم التجارية في القسطنطينية ، ومقرراً لاقامة المشرف البندقي على شؤون القضاء في المستوطنة ، فضلا عن كنيسة مريم والقديس مرقس في القسطنطينية ، وتضمن المعاهدة أيضا تخصيص خمسة وعشرين منزلا ، دون مقابل ، للتجار البنادقة الذين يقيمون فترة قصيرة في القسطنطينية (١٣) .

وقبل الحملة الصليبية الرابعة ، كان السفراء البنادقة في البلاط البيزنطي يقومون بإدارة مستوطنة البندقية خلال اقامتهم في العاصمة البيزنطية ويعاونهم في ذلك عدد من الموظفين البنادقة الذين تم ارسالهم من قبل حكومة البندقية ، غير أن مسألة ادارة المستوطنة قد تمت معالجتها بشكل جدي بعد احتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م . حيث نجد أن الدوج آنريكو داندولو Enrico Dandolo يعين موظفا لإدارة المستوطنة البندقية في القسطنطينية أطلق عليه اسم البودستا Podesta ويساعده خمسة من القضاة ، وثلاثة مستشارين ، ومدير للمال وأمين الصندوق ، ومدير للأمن وقائد عام ، وكان الترتيب الذي وضعه آنريكو داندولو أن يتم ارسال البودستا من مدينة البندقية ذاتها (١٤) .

وبعد وفاة آنريكو عام ١٢٠٥ م (١٥) ، قام المستوطنون البنادقة في القسطنطينية بانتخاب مارينو زينو Marino Zeno بودستا عليهم . وقد استاءت الحكومة البندقية من هذا الاجراء الخطير ، وذلك لان البودستا لم يتم تعيينه من قبل المدينة الأم . وعلى أية حال فقد بعث القومون البندقي الى مستوطنته في القسطنطينية موافقته على انتخاب البودستا الجديد ، غير أنه حذرهما من مغبة تكرار هذا الاجراء في المستقبل (١٦) .

وكان البودستا البندقي يتولى ادارة المستوطنة في القسطنطينية ويشرف على شؤونها السياسية والتجارية والمالية والقضائية (١٧) ، وكان

- (13) Tafel and Thomas , 111, doc. 368 , PP. 135 F.
(14) Brown, ' The venetian quarter ' , P. 80 ; Idem, Venice, P. 133 .
(15) Villehardouin, op. cit., P. 129 .
(16) Brown, venice , P. 133 ; Laiou , constantinople P. 107 .
(17) Tafel and Thomas , 111, PP. 133 — 34 .

يعين أولا لمدة عام واحد ، ثم أصبح يعين لمدة عامين (١٨) ، ثم أصبح يعين لفترة لا تنتهي الا يوم قدوم من يحل محله من البندقية (١٩) .

ويعتبر البودستا صلة الوصل بين المستوطنين البنادقة من جهة والدولة الأم من جهة ثانية ، والدولة البيزنطية من جهة ثالثة ، وهو المدافع والنصير الاول لبني جلدته ، وتقع عليه مسؤولية الاحتجاج ضد الظلم الذي يلحق بالرعايا البنادقة في الامبراطورية ، وضد الانتهاكات التي ترتكبها الحكومة البيزنطية بالحقوق الممنوحة للبلادقة ، وضد نقض البيزنطيين للمعاهدات الموقعة بين الطرفين . كما كان يكلف البودستا بتوقيع معاهدات او تحالفات بالنيابة عن حكومة البندقية مع دولة أجنبية . والدليل على ذلك أن البودستا البندقي في القسطنطينية جياكومو تيبولو Giacomo tiepolo هو الذي وقع معاهدة عام ١٢١٩ م مع امبراطور نيقية ثيودور لاسكاريس (٢٠) . وهو نفسه الذي وقع معاهدة عام ١٢٢٠ م مع سلطان قونية السجاقوي (٢١) .

الا أن مكانة البودستا البندقي في القسطنطينية قد تضاءلت بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م ، وذلك نتيجة لتقلص النفوذ السياسي والتجاري للبلادقة في الامبراطورية البيزنطية . فلم يعد يسمي رئيس مستوطنهم في القسطنطينية بالبودستا ، وانما اتخذ عام ١٢٨٥ م (٢٢) - لقب بايلو Bailo (٢٣) ، وأصبح البايو لا يدعى عادة الى المائدة الامبراطورية في الاعياد الدينية الكبرى ، كما هو الحال بالنسبة الى البودستا ، ورغم أن البايو كان يذهب كل يوم أحد الى البلاط الامبراطوري ، غير أنه لم يكن يعامل على أنه مسؤول ، او رجل من الطبقة الاولى (٢٤) .

- (18) Lane , A maritime, P. 99 .
- (19) Heyd ; 1, P. 259 .
- (20) Tafel and Thomas, 11, P. 205 .
- (21) Ibid.
- (22) Ibid. , 111, PP. 139 , 326 — 72 .
- (23) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .
- (24) Hodgson, op. cit., ; PP. 38 , 120 .

وعلى الرغم من أن مكانة البايو البندقي في القسطنطينية قد تضاءلت (٢٥) ، الا أن واجباته ومسؤولياته تجاه حكومته والمستوطنين البنادقة لم تتضاءل عما كانت عليه في السابق ، بل استمر البايو يجمع في منصبه مهمة تمثيل حكومته لدى الاباطرة البيزنطيين ، ورئيس المستوطنة في القسطنطينية ، والقنصل التجاري فيها (٢٦) . ولكن المشكلة الرئيسية التي اخذت تواجه البايو منذ أوائل القرن الرابع عشر هي ضعف سلطة البايو ونفوذه على المستوطنين البنادقة في القسطنطينية ، ففي عام ١٣١٧ م بعث البايو البندقي في القسطنطينية ماركو مينوتو Marco Minotto خطابا الى دوج البندقية ، يصف له فيه أحوال المستوطنات البندقية في الامبراطورية البيزنطية ، ويشتكى من تصرفات بعض التجار البنادقة الذين يظهرون عدم اهتمام بسلطته ، كما انطوى الخطاب على الصعوبات التي تواجهه البايو في حكم الحي البندقي في القسطنطينية ، والمستشارون البنادقة في المستوطنة لا يطيعونه أحيانا ، ولا يرافقونه في زيارته الى الامبراطور ، ويرفضون الجلوس معه أيام الاثنين والاربعاء والجمعة للفصل في قضايا المستوطنين والتجار البنادقة (٢٧) .

وقد عانى النفوذ الاقتصادي للمستوطنة البندقية في القسطنطينية الفتور والضعف بعد عام ١٢٦١ م ، وذلك نتيجة لتدهور النشاط التجاري للبلادقة في الامبراطورية البيزنطية من جهة ، والتناقص المستمر في عدد سكان المستوطنة البندقية في القسطنطينية من جهة أخرى (٢٨) . ففي عام ١٣١٧ م كتب البايو البندقي في القسطنطينية ، الى حكومته يخطر بها بالتناقص المستمر في عدد سكان المستوطنة ، وبأن عددا من التجار البنادقة أخذوا يشترون صفة المواطن الجنوية في المستوطنة الجنوية في غلطا ، واقترح البايو البندقي على حكومته أنه لكي يصبح البنادقة أكثر قوة

(٢٥) كانت الحكومة البندقية تستفيد من البايو الذي تنتهي مدة خدمته في القسطنطينية في المشاركة في تحديد سياسة البندقية نحو بيزنطة ، فالوفد الذي تفاوض مع بيزنطة لتوقيع معاهدة عام ١٣٢٤ م كان مؤلفا من شخصيتين كانتا قد تسلمت كل منهما في السابق منصب البايو في القسطنطينية . انظر :

- Laiou, constantinople. , P. 308 .
- (26) Lane, A maritime , P. 100 .
- (27) Laiou, Constantinople . , P. 271 .
- (28) Heyd, op. cit., 1, P. 430 .

ومهاة في القسطنطينية يجب ان تزداد اعدادهم وتدفق جموعهم الى مستوطناتهم في القسطنطينية (٢٩) .

اما بالنسبة الى مستوطنة بيزا في القسطنطينية ، فليس لدينا دليل على وجودها قبل المعاهدة التي وقعها الكسيوس كومنين مع حكومة بيزا عام ١١١١ م (٣٠) . والتي منحت البيازنة منطقة في القسطنطينية تقع الى الشرق من مستوطنة البنادقة (على القرن الذهبي) ، وذلك لاقامة منازل وحوانيت ومستودعات ، فضلا على رصيف واحد لرسو السفن كما خصصت المعاهدة أماكن خاصة للبيازنة في كنيسة صوفيا لتأدية الصلاة ، وذلك تشجيعا من الامبراطور للبيازنة للاقامة في القسطنطينية (٣١) .

وتدفق البيازنة الى مستوطناتهم الجديدة في القسطنطينية بحيث لم تأت نهاية القرن الثاني عشر حتى اتسعت هذه المستوطنة اتساعا ملموسا ، وذلك نتيجة الامتيازات التي منحها آل كومنين ، وآل انجليوس للبيازنة ، فأصبحت مستوطناتهم تضم أربعة أرصفة لرسو السفن ، وكنيستين ، ومستشفى ، ومقبرة ، وطواحين ، فضلا على المنازل والحوانيت مستوطناتهم في القسطنطينية (٣٢) .

وقد استمرت المستوطنة البيزاوية ، خلال الحكم اللاتيني في القسطنطينية . وعلى الرغم من ان البيازنة قد وقفوا في البداية ، ضد الحملة الصليبية الرابعة ، وأن نشاطهم التجاري في القسطنطينية أثناء الاحتلال اللاتيني لها ، كان أقل مما كان عليه قبيل ذلك ، فان مستوطناتهم استمرت موجودة في مكانها ، وليس لدينا ما يشير الى أي تعديل في حدودها أو مساحتها (٣٣) . ولكن من المؤكد أن الحجم التجاري لهذه المستوطنة قد

(29) Laiou, Constantinople. , P. 261 .

(30) Chalandon , les comnènes, 11, P. 156 .

(31) Ibid., PP. 156 — 57 .

(32) Nicetas, op. cit., PP. 259 — 60 ; Slessarev , op. cit: PP. 188 — 89 .

(33) Hodgson, , op. cit., P. 34 , n. 1

تضائل الى حد كبير خلال القرنين الثالث والرابع عشر ، وذلك نتيجة ضعف بيزا ، وتقلص نشاطها التجاري في الامبراطورية البيزنطية ، وبالتالي تناقض اعداد البيازنة في مستوطناتهم في القسطنطينية .

وكان أن تمت ادارة المستوطنة البيزاوية في القسطنطينية من قبل موظف كبير أرسلته حكومة بيزا ، أطلق عليه اسم « الفيكونت » لادارة المستوطنة ورعاية جالياتها في العاصمة البيزنطية . وكان يساعد الفيكونت في مهمته مجلس من الشخصيات البارزة في المستوطنة .

وعلى الرغم من أن رئيس مستوطنة بيزا في القسطنطينية قد اتخذ لقب قنصل (٢٤) بدلا من الفيكونت ، في أواسط القرن الثالث عشر ، غير أن مهمته ومسؤولياته ، تجاه حكومته والرايا البيازنة في بيزنطة ، لم تتغير ، حيث استمر القنصل في الاشراف على الشؤون المالية والقضائية والتجارية في المستوطنة ، وفي حماية المستوطنين البيازنة من اعتداءات السلطات البيزنطية ، وفي الدفاع عن المصالح التجارية والسياسية لمدينته في الامبراطورية ، وفي تسليم كل العائدات المالية التي تخص القومون الجنوي ، وفي استقبال السفراء الذين تبعث بهم حكومة بيزا الى البلاط البيزنطي (٢٥) .

وبعد نصف قرن تقريبا من قيام مستوطنة بيزا في القسطنطينية تأسست المستوطنة الجنوية ، وذلك لان الجنوية ظلوا بلا مستوطنة خاصة بهم حتى معاهدة عام ١١٥٥ م ، التي منح مانويل كومنين بموجبها الجنوية حيا خاصا بهم في القسطنطينية ، يقع الى الشرق من مستوطنة بيزا ، ويمتد حتى النقطة التي يلتقي عندها القرن الذهبي مع البوسفور . وقد ضم هذا « الحي » رصيفا واحدا لرسو السفن فضلا على العديد من المنازل والحوانيت (٢٦) .

وسرعان ما اتسعت المستوطنة الجنوية ، نتيجة تدفق الجنوية الى

(34) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .

(35) Nicetas, op. cit., PP. 712 — 13 .

(36) Fotheringham, op. cit., P. 26 ; Brand, op. cit., PP. 209 — 210 .

القسطنطينية ، والامتيازات التي منحها آل انجليوس للتجار الجنوبية بحيث لم تأت الصليبية الرابعة ، حتى اتسعت هذه المستوطنة اتساعا كبيرا ، وأصبحت تضم ثلاثة أرصفة لرسو السفن ، فضلا على كنيسة وفندق ، وحمامات وقصور ، وأسواق ومستودعات (٢٧) .

وكان أن استمر الحي الجنوبي في القسطنطينية في مكانه خلال سنوات الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) على الرغم من معارضة الجنوبية للحملة الصليبية الرابعة . وعلى الرغم من عدم اعترافهم بالامبراطورية التي زرعتها هذه الحملة في القسطنطينية ، فان المستوطنة الجنوبية استمرت في الوجود في القسطنطينية بما تحتويه من ممتلكات ، غير أنه من المؤكد بأن الحجم التجاري لهذه المستوطنة قد تضاعف خلال هذه الفترة ، وذلك نتيجة ضعف النشاط التجاري للجنوبية في القسطنطينية خلال الحكم اللاتيني فيها (٢٨) .

ولكن العصر الذهبي للمستوطنة الجنوبية في القسطنطينية قد بدأ باسترداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، وذلك لان الجنوبية وضعوا ثقلهم كله الى جانب ميخائيل الثامن بمعاهدة عام ١٢٦١ م ، وكسبوا بذلك كل الشروط الضرورية ، لاقامة مستوطنة تجارية واسعة لهم في القسطنطينية . ومما ساعد على توسيع المستوطنة الجنوبية في القسطنطينية وازدهارها هو امتلاكهم كنيسة نوتردام التي كانت بحوزة البنادقة ، بالاضافة الى الاملاك المحيطة بها (٢٩) .

وقد بينا اثناء دراستنا للنشاط التجاري الجنوبي في بيزنطة ، أن الامبراطور ميخائيل الثامن اضطر الى نقل الجنوبية من القسطنطينية الى مدينة هيراقلية عام ١٢٦٣ م ، ولكن سرعان ما ترك الجنوبية المدينة الاخيرة (١٢٦٧ م) ، بموافقة الامبراطور ، الى منطقة غلطا ، على الجانب الثاني من القرن الذهبي في مواجهة القسطنطينية وأسسوا فيها مستوطنة جديدة ، عرفت باسم مستوطنة غلطا أو بيرة استمرت حتى سقوط القسطنطينية

(37) Nicetas, op. cit., ; PP. 481 — 86 ; Fotheringham op. cit., P. 28 .

(٣٨) انظر ما سبق ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣٩) انظر ما سبق ، ص ٧٧ .

في ايدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م (٤٠) .

وتدفق الجنوبية الى مستوطنتهم الجديدة في غلطا ، بفضل الامتيازات التي منحت لهم من قبل ميخائيل الثامن وابنه أندرنيق الثاني وأدى ذلك الى توسيع مستمر في مستوطنتهم . وفي عام ١٣٠٤ م سمح الامبراطور للجنوبية باحاطة غلطا بسور وخندق (٤١) . وفي المعاهدة التي وقعها حنا كمتاكوزينوس مع الجنوبية عام ١٣٥٢ م ، حصل الجنوبية على حق توسيع حدود مستوطنتهم في غلطا (٤٢) . ووصف الرحالة طافور هذه المستوطنة بقوله : « انها حصينة التسوير ومتينة الاستحكامات » ، وأضاف بأنها « تتمتع برصيف زائع لرسو السفن » (٤٣) . كما أشار ابن بطوطة ، الذي زار غلطا اثناء رحلته ، الى أن مرساها « من أعظم المراسي » ورأى فيه « نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة » (٤٤) .

ولم تكن مستوطنة غلطا الجنوبية مغلقة على نفسها ، وعلى الرغم من أن معظم سكانها من التجار الجنوبية . الا أنها ضمت عناصر أخرى غير جنوبية . فذكر ابن بطوطة أن جماعة من البنادقة « وأهل رومه وأهل فرنسة » قد سكنوا الى جانب الجنوبية في غلطا (٤٥) . كما بين طافور أن مستوطنة غلطا قد ضمت عددا من اليونانيين والقشتاليين (٤٦) . وكشف لوبز أن عددا من الارمن والتتار وشعوب أخرى قد استقروا الى جانب الجنوبية في غلطا (٤٧) الا أن جميع هذه العناصر السكانية كانت تحت حكم الجنوبية الذين يتولون جميع الوظائف فيها (٤٨) . وربما السبب في استقرار عناصر

(40) Brown, Venice, P. 146, Hodgson, op. cit., P., 125 ; Ostrogorsky op. cit., P. 404 ; vasiliev, op. cit., ; 11, P. 593

(41) Laiou, constantinople, P. 149 .

(42) Hodgson, op. cit., P. 407 .

(43) Tafur, op. cit., PP. 115 ; 149 .

(٤٤) ابن بطوطة ، ص ٣٥١ .

(٤٥) ابن بطوطة ، ص ٣٥١ .

(46) Tafur, op. cit., P. 115 .

(47) Lopez, ' Market expansion ; P. 447 .

(48) Tafur, op. cit., P. 149 .

غير جنوية في غلطا ، يعود الى منح الجنوية أنفسهم صفة المواطنة في مستوطناتهم الى أعداد كبيرة من التجار غير الجنوية ، كما أن شراء العناصر غير الجنوية للمواطنة الجنوية ، ينبع من رغبة هذه العناصر في التمتع بالامتيازات التجارية والاعفاءات الجمركية التي يتمتع بها الجنوية في بيزنطة (٤٩) .

وقد تمت ادارة المستوطنة الجنوية في القسطنطينية حتى عام ١٢٦١ م ، من قبل موظف جنوي كبير ، كانت ترسله جنوه ، أطلق عليه اسم الفيكونت ، ويساعده مجلس من القضاة ، وعدد من الشخصيات الجنوية . وكان الفيكونت يستشير سكان المستوطنة في كل ما يتعلق بشؤونها (٥٠) . ولكن بعد عام ١٢٦١ م ، ونتيجة لازدياد الامتيازات التجارية الجنوية في بيزنطة ، اتخذ رئيس الحى الجنوي في القسطنطينية لقب البودستا (٥١) ، وهو اللقب الذي اتخذه الممثل البندقي في العاصمة البيزنطية ما بين عامي ١٢٠٤ - ١٢٦١ م .

وكان يتم تعيين البودستا من حكومة جنوه ، وكان يساعده في ادارة المستوطنة الجنوية في القسطنطينية مجلسان ، احدهما كبير ، والآخر صغير (٥٢) . وتلخصت مهمة البودستا برعاية شؤون الجنوية الذين عاشوا في الامبراطورية البيزنطية كلها (٥٣) ، والاشراف على أمورهم المالية والتجارية والسياسية والقضائية ، والدفاع عن حقوق الجنوية وامتيازاتهم ضد الانتهاكات التي كانت تتعرض لها من قبل البيزنطيين أو أية قوة سياسية أو تجارية أخرى (٥٤) .

(49) Laiou, Constantinople, P. 15 ; Lopez, ' Market expansion ', P. 447 .

(50) Brand, op. cit., PP. 206 — 210 , 218 — 19 .

(51) Gregorae, op. cit., 1, P. 97 .

(52) Thompson , op. cit., 1, P. 422 .

(٥٣) أشار ابن بطرطة الى استقلال الجنوية في ادارة مستوطناتهم الا أنه جانبه الصواب في اعتقاده أن الامبراطور البيزنطي هو الذي يقوم بتعيين حاكم المستوطنة الجنوية في غلطا . انظر : ابن بطرطة ص ٣٥١ .

(54) Vasiliev , op. cit., 11, P. 616 .

وكان البودستا الجنوي في القسطنطينية يعتبر ممثلاً للحكومة والقومون الجنوي في بيزنطة ، حيث يدعى الى المائدة الامبراطورية في الاعياد الدينية الكبرى ، ويذهب كل يوم احد الى البلاط الامبراطوري ، ويستقبل على أنه مسؤول أو رجل من الطبقة الاولى (٥٥) ولكن على الرغم من أن البودستا كان يعامل في البلاط البيزنطي كسفير لبلاده ، الا أن المستوطنة الجنوية في غلطا لم تكن متعلقة بالمدينة الام وحكوماتها في جميع الاحوال والظروف ، بل نجدها تتخذ ، في بعض الحالات السياسية ، موقفاً يختلف عن ارادة الحكومة الجنوية وسياستها (٥٦) .

وقد تمتعت مستوطنة غلطا الجنوية بمركز اقتصادي متين ، وذلك نتيجة تفوق جنوه وسيادتها التجارية في الامبراطورية البيزنطية بعد عام ١٢٦١ م . وقارن أحد المؤرخين البيزنطيين في القرن الرابع عشر ، بين العائدات السنوية لميناء القسطنطينية على الامبراطورية البيزنطية ، وبين العائدات السنوية لميناء غلطا على المستوطنين الجنوية بقوله : « ان عائدات ميناء القسطنطينية كانت حوالي ٣٠ ألف نوميسما ذهبية ، في حين أن عائدات ميناء غلطا كانت حوالي ٢٠٠ ألف نوميسما ذهبية (٥٧) . ورسم لوبز خطا بيانيا يتعلق بالنشاط التجاري لمستوطنة غلطا ، بين فيه أن ازدهار تجارة غلطا قد وصل الى ذروته ما بين ١٣٣٠ م وعام ١٣٤٠ ، وما بين عام ١٣٥٠ وعام ١٣٧٠ م (٥٨) . وهذا يتفق تماما مع مراحل ازدهار النشاط التجاري للجنوية في الامبراطورية البيزنطية ، والبحر الاسود ، خاصة وأن مستوطنة غلطا قد شكلت رأس جسر بالغ الاهمية للتجارة الجنوية في الشرق كله (٥٩) ، واستفادت من ضعف المستوطنات التجارية الاخرى من جهة ، ومن تدهور الاقتصاد البيزنطي وانحطاطه من جهة ثانية .

وهكذا فقد تمكنت البندقية من تحقيق التفوق التجاري في بيزنطة والبحر الاسود ، خلال أيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤

(55) Hodgson, op. cit., P. 38 .

(56) Laiou , Constantinople., P. 107 .

(57) Gregorae, op., cit., 1, PP. 84 — 42 .

(58) Lopez, ' Market expansion ' , P. 453 .

(59) Ibid. ; P. 457 .

- ١٢٦ م) . الا أن البنادقة اخفقوا في اقامة علاقات تجارية مع الاباطرة البيزنطيين في نيقية . أما الجنوبية فقد عانت تجارتهم في بيزنطة تدهورا كبيرا في ظل الاباطرة اللاتين ، ولم يتمكنوا من اقامة علاقات تجارية « نشطة » مع امبراطورية نيقية .

ولكن بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، انقلبت هذه المعادلة ، حيث بدأ عصر تدهور التجارة البندقية وانحطاطها في الامبراطورية البيزنطية ، وفي الوقت ذاته بدأ عصر التفوق التجاري الجنوبي في بيزنطة والبحر الاسود .

وعلى أية حال فقد شكل النشاط التجاري للبنادقة والجنوية في الامبراطورية البيزنطية جزءا هاما من تاريخهم التجاري ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وكان فصلا هاما في تاريخ التجارة الشرقية عامة .

الباب الثالث

النشاط التجاري لجمهورية البندقية في الشرق والقرن الثالث عشر

الصلبية في القرن الثالث عشر الميلادي

الفصل الأول

الامتيازات التجارية التي منحها الملوك والأرامل الصليبيون للجمهوريات الإيطالية

في الوقت الذي كانت فيه المدن الإيطالية البحرية تعمل لقيام علاقات تجارية مع مدن وموانئ البحر المتوسط ، قامت الحركة الصليبية ، التي وجدت فيها هذه المدن فرصا ثمينة للبدء في سلسلة من المشاريع التجارية في بلاد الشام . ولهذا لعبت المدن الإيطالية ، وبصفة خاصة جنوة وبيزا والبندقية ، دورا هاما في تاريخ الحروب الصليبية .

ولقد أعطت الحركة الصليبية التجارة الصفة العالمية وفتحت البحر المتوسط للسفن الإيطالية ، وقدمت منفذا هاما للتجارة الإيطالية مع الشرقين الأدنى والأقصى (١) . ولهذا فإن أهم الدوافع ، التي وقفت وراء دعم المدن الإيطالية للصليبيين ، كانت رغبة هذه المدن في تحطيم احتكار القسطنطينية لتجارة الشرق الأقصى وطرقها . فمن المعروف أن الطرق التجارية ، التي كانت تتدفق عليها التوابل الهندية والحرير الصيني ، وغير ذلك من متاجر الشرق الأقصى ، خلال العصور الوسطى ، كانت تنتهي أما إلى القسطنطينية ، وأما إلى الموانئ الشامية والمصرية ولهذا السبب نفسه قامت الجمهوريات الإيطالية بدعم الحركة الصليبية بأساطيلها لاحتلال الموانئ الشامية (٢) .

وكان الاعتماد على مساعدات البحرية الإيطالية أمرا ضروريا أمام الصليبيين من أجل الاحتفاظ بالمدن التي استولوا عليها في بلاد الشام ، ومن أجل دوام اتصالهم بأوطانهم في أوروبا ، خاصة إذا علمنا أن المدن التي استولى عليها الصليبيون كانت في معظمها — عدا أرها والقدس ونابلس —

(1) Brundage, The crusades, Motives and Achievements, P. 62

(2) Gesta Francorum, The deeds of the Franks, P. XXIII.

مدنا ساحلية (٣) . وكان واضحا أمام الأمراء الصليبيين - كما يعتقد سمث Riley — Smith (٤) انه لم يكن بإمكان أي ميناء صليبي أن يطور قدرته ما لم يتردد عليه التجار الأجانب . كما أدرك الأمراء الصليبيون أن المميزات الجغرافية لهذا الميناء أو ذلك - كمحطة في الطرق التجارية الإسيوية - لا قيمة لها ما لم يتردد عليه أولئك الذين يملكون الاساطيل التجارية القادرة على نقل سلع ومتاجر الشرق من هذا الميناء إلى أوروبا . وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتمدت معظم ثروة الصليبيين على تجارة المرور (الترانسيت) . وبدون وصول منتظم للاساطيل والسفن التجارية إلى الموانئ الصليبية ، فإنهم سوف يفقدون جزءا هاما من هذه الثروة . ولهذا فقد حرص القادة الصليبيون أشد الحرص على إقامة أوثق العلاقات مع الجنوية والبيازنة والبنادقة ، الذين « كانوا مهرة في فنون الحرب والتجارة معا » (٥) ، ومنحهم امتيازات تجارية وإقليمية وقضائية في المدن والموانئ الصليبية .

ومن الملاحظ أن المعاهدات التي تمت بين القوى الصليبية في الشام وبين المدن الإيطالية ، خلال القرن الثاني عشر ، كانت أساسا لكل الامتيازات التجارية التي تمتعت بها هذه المدن وتجارها في القرن الثالث عشر في الإمارات والمدن الصليبية . ولهذا فإنه لا يمكننا - من الناحية الموضوعية - أن نميز بين الامتيازات التي حصلت عليها المدن الإيطالية في الإمارات الصليبية خلال القرن الثاني عشر ، عن تلك الامتيازات التي حصلت عليها المدن نفسها في هذه الإمارات ، خلال القرن الثالث عشر . وعلى الرغم من أن العوامل التي تحكم في العلاقات بين الطرفين ، خلال هذين القرنين ، قد تطورت تبعا لتغير مواقف القوى السياسية والاقتصادية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وتطورها ، كالبزنطين والمسلمين والصليبيين والإيطاليين ، فإن الدوافع التي كانت وراء الامتيازات التي منحها الملوك والأمراء الصليبيون للجمهوريات الإيطالية ، في القرن الثاني عشر ، وكانت إلى حد بعيد هي نفسها الدوافع وراء تجديد هذه الامتيازات خلال القرن

(٣) عن دور الاساطيل الإيطالية في مساعدة الصليبيين في القتال ونقل المؤن والأسلحة من الغرب الأوربي إلى الأماكن المقدسة . انظر :

J. de Vitry The Hist. of Jerusalem, P. 27 .

(٤) Riely — Smith, The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, P. 66 .

(٥) Anonymouspilgrims ; P. 29 .

التالي . ويفسر هذه الحقيقة المؤرخ يعقوب دفتري ، مؤرخ مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر بقوله : « أن أهمية الإيطاليين - بالنسبة إلى الأراضي المقدسة - لا تقتصر على دورهم في الحروب وإنما أيضا في نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤن والأسلحة إلى الأراضي المقدسة » (٦) .

أما عن الامتيازات التجارية وغيرها ، التي حصل عليها الجنوية ، فمن المعروف أن الأمير النورماني بوهيموند الأول Bohemond منح امتيازات تجارية للجنوية في مدينة انطاكية (يوليو ١٠٩٨ م) . وذلك مقابل المساعدة التي قدمها الاسطول الجنوي أثناء حصار الصليبيين للمدينة (٧) . وشملت هذه الامتيازات كنيسة برسم القديس حنا (راعي مدينة جنوه) وسوقا وبئرا وثلاثين بيتا . إضافة إلى إعفاء - التجار الجنوية من المكوس والضرائب في مدينة انطاكية وتوابعها (٨) . ومقابل ذلك تعهد الجنوية بتقديم المساعدة لبوهيموند في الدفاع عن انطاكية (٩) .

وعندما أصبح تانكريد Tancred وصيا على إمارة انطاكية جدد عام ١١٠١ م الامتيازات التي منحها خاله بوهيموند للجنوية (١٠٩٨ م) ، وأضاف إليها وعدا للجنوية بمنحهم ثلث دخل ميناء انطاكية (السويدية) ونصف دخل ميناء مدينة اللاذقية (التي كانت لا تزال بأيدي البزنطين) ، فضلا عن حي وشارع وكنيسة في المدينة الأخيرة . وذلك كله مقابل وعد الجنوية بمساعدة تانكريد في احتلال المدن الساحلية (١٠) .

وكانت هذه الامتيازات السابق ذكرها أساسا لكل الامتيازات التي حصل عليها الجنويون في إمارة انطاكية . وقد تم تجديدها خلال القرن الثاني عشر ، حتى أنه أصبح للجنوية محاكمهم الخاصة في انطاكية واللاذقية منذ عام ١١٨٩ م . كما انتزعوا وعدا من أمير انطاكية بوهيموند

(٦) Vitry, op. cit., P. 57 .

(٧) William of tyre, Hist. of deeds, 1, P. 229 .

(٨) Byrne, ' Genoese colonise in Syria ' P. 141 .

(٩) Yewdale, Bohemond, 1, Prince of Antioch, P. 73 .

(١٠) Lamonte, Feudal Monarchy in the latin Kingdom. , PP. 228, 266 ; Yewdale, op. cit., P. 104 .

الثالث ، بأن يتم اعفاؤهم من الرسوم والضرائب في المدينتين الاخيرتين (١١) .

أما بالنسبة الى الامتيازات التي حصل عليها الجنوبية في مملكة بيت المقدس ، فلقد أشار صاحب الجستا Gesta ووليام الصوري الى أن الجنوبية لعبوا دورا هاما في مساعدة الصليبيين أثناء احتلال مدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩ م (١٢) ، تحت قيادة الاخوين الجنوبيين وليام وبريموس أمبرياتشو ، اللذين وصلا بمركبين محملين بالمواد الغذائية وأدوات الحصار الى يافا عام ١٠٩٩ م (١٣) . ولكن يبدو أن الجنوبية لم يحصلوا على امتيازات واضحة مقابل مساعدتهم هذه وإنما أخذوا نصيبهم من الاسلاب والغنائم بعد احتلال المدينة . الا أنه سرعان ما وقع ملك بيت المقدس بلدوين الاول ، معاهدة مع الجنوبية في يافا (١١١٠ م) . وتضمنت هذه المعاهدة - كما أوردها وليام الصوري (١٤) - امتيازات أساسيين ، أولهما : يحق للجنوبية الحصول على ثلث الاسلاب والغنائم من أية مدينة يتم احتلالها بمساعدتهم ، وثانيهما : يحق للجنوبية امتلاك شارع واحد خاص بهم في كل مدينة يساهمون في احتلالها ، وبناء على هذه المعاهدة شارك الجنوبية في احتلال مدينتي أرسوف وقيسارية (١٥) .

وبعد ثلاثة أعوام (١١٠٤ م) وقع الملك بلدوين الاول ، معاهدة ثانية مع الجنوبية ، تعتبر أساسا لكل المعاهدات التالية بين الجنوبية وملوك بيت المقدس . واشتملت هذه المعاهدة على الامتيازات الرئيسية التالية : أولا : يحق للجنوبية امتلاك ثلث دخل ميناء عكا . ثانيا : يحق للجنوبية امتلاك كنيسة في عكا . ثالثا : أن يكون للجنوبية السيادة الكاملة على شارع واحد في المدينة . رابعا : ان يتم اعفاء الجنوبية اعفاء تاما من الرسوم والضرائب . خامسا : أن يمتلك الجنوبية ثلث مدينة أرسوف وقيسارية وعكا وأية مدينة يساهم الجنوبية في احتلالها . سادسا : أن يمنح الجنوبية شارعاً في بيت

- (11) Anonymus pilgrins, P. 29 ; Lamonte, monarchy. P. 266 ; Byrne, ' Genoese Colonise ' , P. 148 .
- (12) Gesta, op. cit., P. 88 ; William of Tyre, 1, P. 353 .
- (13) Tolkowsky, The Gate way of Palestine , 85 — 86
- (14) William of Tyre, 1, P. 434 ; Fulcher of Gharters ; PP. 151 — 52 .
- (15) William of Tyre , 1, PP. 435 — 38 .

انظر أيضا : ابن القلانسي ، ص ١٣٩ .

١٣٢ -

المقدس ويافا . سابعا : وعد الملك بتسليم ممتلكات ومتعلقات الجنوبي الذي يموت في المملكة الصليبية الى الجنوبية أنفسهم ، ويمنح الحماية والامان للتجار الجنوبية وبضائعهم عبر مملكته . ثامنا : تعهد الملك بمنح الجنوبية موردا سنويا قدره / ٣٠٠ / بيزانطا (١٦) . وبناء على هذه المعاهدة ساهم الجنوبية مساهمة فعالة في احتلال الصليبيين لمدينة عكا عام ١١٠٤ (١٧) . ومدينة بيروت عام ١١١٠ م (١٨) .

ولقد جدد ملوك بيت المقدس هذه المعاهدة للجنوبية أكثر من مرة . بحيث لم يأت القرن الثالث عشر حتى حصل الجنوبية ، إضافة الى الامتيازات السابقة ، على محاكم خاصة بهم في صور وعكا ، فضلا على اعفاءات من الرسوم والضرائب المتعلقة بالتاجر المستوردة من الاقطار الاسلامية (١٩) .

وفي عام ١٢٢١ م منح حنا إبلين (٢٠) ، صاحب بيروت ، امتيازات تجارية للجنوبية في مدينة بيروت ، تضمنت اعفاء الجنوبية من الرسوم والضرائب على التاجر الصادرة والواردة ، ومحكمة خاصة بهم لمحاكمة بني جلدتهم ، فضلا عن سوق في المدينة نفسها . وبعد عامين (١٢٢٣ م) صدق حنا هذه الامتيازات ، ولكنه استثنى بعض السلع ، التي يتوجب

(١٦) انظر النص الكامل للمعاهدة في :

William of Tyre ; 1, PP. 454 — 56 .

- (17) Ibid., P. 456 ; Fulcher, A Hist. of the expedition, P. 176 ; de vitry , op. cit., P. 5 .

انظر أيضا : ابن القلانسي ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

- (18) Fulcher of charters, op. cit., PP. 196 — 97 Bease, op. cit., P. 35.

(١٩) انظر تفاصيل ذلك في :

Mayer, ' The commune of Tyre ; PP. 448 , 451 ; Lamonte ; Feudal monarchy ; PP. 264 — 65 .

(٢٠) عن تاريخ إبلين في الشام وقبرص . انظر المؤرخ المعاصر فيليب نوفار : Novar, Philip de , The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and cyprus (Newyork, 1936) .

- ١٣٣ -

على الجنوية دفع رسوم عليها ، مثل الخمر والزيت والخزف (٢١) :

وفي عام ١٢٣٤ م منح روهارد الثاني Rohard II ، صاحب يافا ، امتيازات تجارية للجنوية في مدينته وتخفيضاً في الضرائب والمكوس الجمركية (٢٢) .

أما الامتيازات التجارية التي تمتع بها الجنوية في اماره طرابلس فقد اكدت المصادر المعاصرة الدور البارز الذي لعبه الجنوية - تحت قيادة اخوين من آل امبرياتشو - في احتلال الصليبيين لمدينة جبيل عام ١١٠٤م ، وكافأهم ريموند الصنلجي بمنحهم ثلث المدينة (٢٣) . وفي عام ١١٠٩ م وقع برتراند بن ريموند معاهدة مع الجنوية ، من خلال آل امبرياتشو ، وعدهم فيها بمنحهم كل مدينة جبيل وثلث مدينة طرابلس في حين تعهد الجنوية بمساعدته في احتلال طرابلس (٢٤) . ورغم أن الجنوية لعبوا دوراً هاماً في احتلال طرابلس (١١٠٩ م) (٢٥) ، إلا أن برتراند بن ريموند حث بوعده ورفض اعطاء الجنوية أي جزء من طرابلس ، ولذلك قام الجنوية بامتلاك جبيل كلها دون تردد (٢٦) وبذلك أصبحت جبيل كلها بأيدي الجنوية . وقد تسلمها أفراد من آل امبرياتشو ، لفترة محددة من الزمن ، بالنيابة عن القومون الجنوي ، مقابل مبالغ سنوية يتوجب أن يبعثها آل امبرياتشو الى

- (21) Novar, op. cit., PP. 136 ; 144 ; Lamonte ; Johnd ' Iblein ' , Byzantion , XII (1937) , PP. 417 FF.
- (22) Riely — Smith, Nobility , P. 66 ; Idem, Government in latin Syria , P. 110 ; Lamonte, Feudal monarchy, P. 266
- (23) William of Tyre, op. cit., 1, PP. 476 — 78 ; de vitry , op. cit., P. 20 .
- أيضا : ابن القلانسي : ص ٤٣ — ٤٤ .
- (24) William of Tyre , op. cit., 1, PP.; 476 — 78 de vitry, op. cit., P. 20 .
- (25) Fulcher, op. cit., PP. 193 — 94 ; William of Tyre , 1, PP. 477 — 78 .
- (26) Lamonte, Feudal monarchy P. 229 .

الكنيسة والحكومة في جنوة (٢٧) . وفي عام ١١٦٨ م منح زعيم جبيل هيوامبرياتشو (٢٨) ، التجار الجنوية حرية المتاجرة في المدينة ، فضلا عن اعفائهم من الضرائب والرسوم الجمركية في المدينة (٢٩) .

أما في مدينة طرابلس نفسها فلم يتمتع الجنوية بأية امتيازات تجارية أو غيرها الا في مستهل القرن الثالث عشر ، عندما منح بوهيموند الرابع (عام ١٢٠٥ م) امتيازات تجارية للجنوية في طرابلس ، واعفاهم من ضريبة البيع في أسواق المدينة ، فضلا عن منحهم محكمة خاصة بهم في المدينة (٣٠) .

أما عن الامتيازات التي حصلت عليها مدينة بيزا في المدن والامارات الصليبية ، فمن المعروف أن البيازنة كانوا الجماعة الإيطالية الثانية - بعد الجنوية - التي استجابت للدعوة الصليبية . وفي عام ١١٠٨ م منح تانكريد البيازنة امتيازات تجارية ، في اماره انطاكية ، تضمنت حيا خاصا بهم في انطاكية وآخر في اللاذقية ، وكنيسة ومستودعات في المدينة الاخيرة ، فضلا عن اعفائهم من الضرائب والرسوم الجمركية في انطاكية واللاذقية معا . وذلك كله مقابل المساعدة التي قدمها البيازنة لتانكريد في احتلال مدينة اللاذقية في العام نفسه (١١٠٨ م) (٣١) . وقد تم تجديد هذه الامتيازات خلال القرن الثاني عشر ، وامتلك البيازنة احياء وأراضي جديدة في انطاكية واللاذقية . ولكن مسألة الاعفاء من الرسوم والضرائب لم تنفذ . والدليل على ذلك - كما يعتقد لامونت Lamonte - أن بوهيموند الرابع قد خفض ، عام ١٢٠٠ م الضرائب والرسوم المفروضة على المتاجر التي حملها

- (27) William of Tyre, 1, PP. 476 — 77 ; de vitry , op. cit., P. 20
- (28) يقول المؤرخ بركارد أن صاحب مدينة جبيل كان فضلا تابعا الى كونت طرابلس

انظر :
Burchard of Mount Sion, Adescription of The holy land
P. 15 .

- (29) Lamonte, Feudal monarchy , P. 267 .
- (30) Ibid., P. 267 ; Riley — Smith , ' Government ; P. 110 .
- (31) Nicholson , Tancred , P. 166. Lamonte, Feudal monarchy, P. 270 .

البيازنة الى النصف (٣٢) . ويبدو أن هذا التخفيض قد استمر خلال القرن الثالث عشر .

أما في مملكة بيت المقدس ، فقد حصل البيازنة على أحياء في مدينة القدس فضلا عن ربع مدينة يافا . وذلك مقابل الدور الهام الذي لعبه أهل بيزا ، تحت قيادة رئيس أساقفتهم دايمبرت في تحصين مدينتي بيت المقدس ويافا عام ١٠٩٩ م (٣٣) . وخلال سنوات حكم بلدوين الثاني (١١١٨ - ١١٣١ م) ، منح البيازنة خمسة بيوت في صور . وفي نوفمبر من عام ١١٥٦ م منح بلدوين الثالث البيازنة محكمة خاصة بهم في صور أيضا . وفي العام التالي (١١٥٧ م) منح عموري - كونت يافا وعسقلان - البيازنة منطقة في مدينة يافا لإقامة سوق تجاري وبيوت سكنية وكنيسة وأعفاهم من نصف الرسوم الجمركية المقررة في ميناء المدينة (٣٤) . وهذا كله يكشف لنا أن البيازنة لم يتمتعوا بما حصلوا عليه في المدينة في زمن دايمبرت .

ألا أن معاهدة أكتوبر عام ١١٨٧ م ، التي تمت بين البيازنة وكونراد مونتفرات ، صاحب صور ، كانت أساسا لكل الامتيازات التي حصل عليها البيازنة في مملكة بيت المقدس ، وبشكل خاص في صور وعكا ويافا ، حتى سقوط هذه المملكة في عام ١٢٩١ م . ولعل أهم البنود التي انطوت عليها هذه المعاهدة هي : أولا : منح البيازنة قطعة أرض لبناء بيوت قرب الموانئ فضلا عن أفران وحمامات . ثانيا : منحهم الحق في استخدام موازينهم ومقاييسهم الخاصة . ثالثا : يحق للبيازنة تعيين موظفين من قبلهم للإشراف على جميع المعاملات التي يقوم بها التجار البيازنة . رابعا : إعفاء التجار البيازنة من الضرائب والرسوم . خامسا : منح القناصل البيازنة الاستقلال في إدارة كل ما يتعلق بشؤون المستوطنة البيزاوية . سادسا : منح البيازنة سلطات قضائية على المستوطنين البيازنة في كل الحالات ، ما عدا الجرائم الموجهة ضد غير البيازنة أو مسائل القانون

(32) Lamonte, Feudal monarchy, PP. 270 — 71 .

(33) Tolkowsky, op. cit., P. 87 ; Bease, op. cit., PP: 35 — 36 ;

أيضا : عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(34) Tolkowsky , op. cit., P. 98 ; Boase , op. cit., PP. 35 — 36 ; Lamonte, Feudal monarchy, P. 269 ; Jorga , op. cit., P. 147

الافتراضي ، حيث يجب في هذه الحالة ، أن ينظر في الدعاوي أمام محاكم المملكة . سابعاً : حماية ممتلكات البيازنة وبضائعهم في حالة غرق سفنهم أو تحطيمها قرب « السواحل الصليبية » (٣٥) . ويبدو أن البيازنة تعهدوا للصليبيين ، مقابل هذه الامتيازات السخية ، بتقديم المساعدة لاسترداد مدينتي يافا وعكا . اللتين فتحهما السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وللدفاع عن مدينة صور ضد محاولات صلاح الدين للاستيلاء عليها (٣٦) .

أما الامتيازات التي تمتع بها البيازنة في كونتية (أمانة) طرابلس فقد جاءت متأخرة ، فأول امتياز حصلوا عليه يعود الى أغسطس عام ١١٧٩ م . وهو يتضمن منح ريموند الثالث ، صاحب طرابلس بيتا للبيازنة في المدينة . إلا أنه لم ينته القرن الثاني عشر حتى أصبح للبيازنة محكمة خاصة بهم في طرابلس . وتم إعفاؤهم من الرسوم الجمركية . كما تم منحهم ثلث موارد طرابلس . وذلك مقابل / ٥٠٠ / بيزانتا سنويا . فضلا عن إعفاء البيازنة المقيمين في طرابلس من مسؤولية الأضرار التي يلحقها أبناء وطنهم بأمارة طرابلس (٣٧) .

أما عن الامتيازات التجارية وغيرها التي حصل عليها البنادقة في المدن والامارات الصليبية ، فقد أشار المؤرخان ، تافيل وتوماس في مجموعة الوثائق ، الى أن أمراء انطاكية الأوائل ، بوهيموند الأول وتانكريد وبوهيموند الثاني ، قد منحوا تباعا ، امتيازات تجارية للبنادقة . ورغم أن النصوص الأصلية لهذه الامتيازات قد فقدت ، إلا أننا نستطيع القول بأنها اشتملت على امتيازات تجارية وقضائية وإقليمية في مدينة انطاكية (٣٨) .

وفي عام ١١٤٠ م منح ريموند البنادقة تخفيضا في الرسوم الجمركية، وحماية للبنادقة ومتاجرهم في حالة تحطيم سفنهم أو غرقها إضافة الى حق

(٣٥) انظر بنود هذه المعاهدة في :

Tolkowsky, op. cit., PP. 448 — 52 ' Mayer, The

' commune of Tyre ' , PP. 448 — 52 .

(36) Mayer, ' The Commune of Tyre ' ; P. 45 .

(37) Lamonte , Feudal monarchy , P. 271 .

(38) Tafel and Thomas , 1, docs., 27, 31, 42, PP. 64, 93 . ; William of Tyre, 1, P. 556 .

البنادقة بأن يحاكموا وفقا لقوانينهم الخاصة (٢٩) وعندما جدد أرنط (رينو شاتيون) وكونستانس ، عام ١١٥٣ م ، الامتيازات السابقة ، منحا البنادقة تخفيضا جديدا في الرسوم الجمركية ومحكمة خاصة بهم في أنطاكية تحت اشراف قضاة من البنادقة (٤٠) وفي عام ١١٦٧ م الفى بوهيموند الثالث نصف الضرائب والرسوم التي كان يدفعها البنادقة في انطاكية (٤١) . ويبدو أن هذا التخفيض استمر خلال القرن الثالث عشر .

أما في مملكة بيت المقدس ، فقد وقع جوفري بوايون ، في يونيو عام (١١٠٠ م) ، معاهدة مع البنادقة ، الذين كانوا قد وصلوا بأسطول كبير الى مدينة يافا . وتضمنت المعاهدة اعفاء البنادقة من الرسوم الجمركية والضرائب في المملكة وامتلاك ثلث كل مدينة يساعد البنادقة في احتلالها، إضافة الى سوق وكنيسة فيها . فضلا عن ذلك تعهد الدوق بحماية ممتلكات البنادقة ومتاجرهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها . وذلك كله مقابل ائارة سنوية يدفعها البنادقة للدوق جوفري (٤٢) . وتنفيذا لهذه المعاهدة فقد ساهم البنادقة مساهمة فعالة في الاستيلاء على حيفا ، وانتزاعها من الفاطميين ، في أغسطس من العام نفسه (١١٠٠ م) (٤٣) .

وفي عام ١١١١ م منح الملك ، بلدوين الاول ، البنادقة حيا في عكا اشتمل على كنيسة وسوق وبيوت ، إضافة الى امتيازات تجارية أخرى في عكا وبيت المقدس على السواء (٤٤) . وذلك مقابل المساعدة التي قدمها الاسطول البندقي في احتلال مدينة صيدا وبيروت عام ١١١٠ م (٤٥) .

- (39) Tafel and Thomas , 1, doc. 46 ; PP. 102 — 103 .
- (40) Ibid. , doc. 55, PP. 133 — 35 .
- (41) Ibid., doc. 61, PP. 148 — 49 .
- (42) Tafel and Thomas, 1, doc. 28, PP. 164 — 65 ; Nicholson, op. cit., PP. 109 — 110 .
- (43) Tolkowsky, op. cit., PP. 87 — 88 ; Nicholson, op. cit., P. 113
- (44) Tafel and Thomas, 1, docs. 30 — 34 ; PP. 66 — 75 .
- (45) William of Tyre, 1, P. 554 .

الا أن المعاهدة التي وقعها بارونات بيت المقدس (٤٦) مع دوج البندقية دومينيكو ميخائيل (٤٧) ، عام ١١٢٤ م في عكا (٤٨) تعتبر أساسا لكل الامتيازات التجارية التي حصل عليها البنادقة في مملكة بيت المقدس حتى ايامها الاخيرة . ولعل أهم البنود التي اشتملت عليها هذه المعاهدة — كما وردت عند وليام الصوري وفي مجموعة تافيل وتوماس (٤٩) — هي : أولا : أن يمتلك البنادقة كنيسة وشارعا وساحة وحماما وفرنا في كل مدينة من مدن الملك بلدوين الثاني وخلفائه وفي مدن كل باروناته . ثانيا : اذا رغب البنادقة الإقامة في عكا فيجب أن يحتوي حيهم الخاص فيها على : فرن وطاحونة وحمام . ثالثا : يحق للبنادقة استخدام مقاييسهم وموازينهم الخاصة في معاملاتهم التجارية الخاصة ، أما عندما يشترون من غيرهم فيجب أن يستخدموا المكايل والموازين الرسمية في المملكة الصليبية . رابعا : يعفى البنادقة من كل انواع الضرائب والمكوس الجمركية سواء عند الدخول أو الإقامة أو الشراء أو البيع أو المغادرة ، وانما يدفعون فقط ضريبة على سفنهم عندما تنقل الحجاج . خامسا : يجب أن يدفع الى دوج البندقية ، من موارد صور ، مبلغ سنوي قدره / ٣٠٠ / بيزانتا . سادسا : يحق للبنادقة أن يكون لهم محاكم خاصة ومستقلة لمعالجة القضايا المتعلقة بالبنادقة أنفسهم ، وفي حالة كون الطرف الآخر غير بندقي فان القضية يجب أن تعالج في المحكمة الملكية . سابعا : ان البنادقة الذين يموتون

(٤٦) كان ملك بيت المقدس ، بلدوين الثاني ، آنذاك في سجن حلب . انظر تفصيل ذلك في :

William of Tyre , 1, PP. 552 — 53 .

(٤٧) كان الدوج دومينيكو ميخائيل قد وصل الى عكا على رأس اسطول كبير عام ١١٢٣ م . انظر :

Fulcher, op. cit., PP. 240 — 45 .

(٤٨) يبدو ان وليام الصوري قد جانبه الصواب في تأريخ هذه المعاهدة عام ١١٢٣ م في حين ان التاريخ الصحيح هو ٢٠ يناير أو ١٦ فبراير من عام ١١٢٤ م . انظر :

Fulcher, op. cit., P. 270 , n. 1.

(٤٩) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة في :

William of Tyre ; op. cit., 1, PP. 552 — 56 ; Tafel and Thomas , 1, doc. 40 ; PP. 84 — 89 .

سواء تركوا وصية أم لم يتركوا ، فإن ممتلكاتهم يجب أن تكون تحت تصرف البنادقة أنفسهم ، وكذلك في حالة تحطم سفنهم أو غرقها فإن الممتلكات التي يتم انقاذها يجب أن تعود إلى البنادقة . ثامنا : يحق للبنادقة امتلاك ثلث مدينتي صور وعسقلان مع توابعهما ، وأن يكون حقهم هذا وراثيا ، إذا تم احتلال هاتين المدينتين بمساعدة البنادقة (٥٠) .

وتنفذا لهذه المعاهدة ساهم البنادقة ، تحت قيادة الدوج ميخائيل نفسه ، مساهمة فعالة في احتلال الصليبيين لمدينة صور في العام نفسه (١١٢٤ م) (٥١) . وقال فوشيه شارتر أنه تم تنفيذ هذه المعاهدة وتسلم البنادقة الجزء المخصص لهم في المدينة وامتلكوا كل ما خصص لهم في المدينة وفقا لهذه المعاهدة (٥٢) .

وفي ديسمبر من العام ١٢٢١ م ، منح حنا ايلين ، صاحب بيروت ، امتيازات تجارية للبنادقة في المدينة ، اشتملت على اعفاءات من الرسوم الجمركية المقررة على بعض المتاجر ، اضافة الى محكمة خاصة بهم في المدينة . وذلك تشجيعا للبنادقة للمتاجرة في بيروت (٥٣) .

وكان آخر امتياز منح للبنادقة في مملكة بيت المقدس ، هو امتياز عام ١٢٧٧ م ، الذي أصدره حنا مونتفرات - صاحب صور والذي تضمن اعادة محكمة البنادقة وامتيازاتهم واملاكهم السابقة كلها في مدينة صور ، حيث كان قد صادرها خلال فترة النزاع معهم (٥٤) .

أما في اماره طرابلس فيبدو أن البنادقة لم يتمتعوا بامتيازات رسمية فيها خلال القرن الثاني عشر . وليس لدينا الا اشارة تعود الى عام ١١١٧ م ،

(٥٠) صدق الملك بلدوين الثاني على بنود المعاهدة بعد اطلاق سراحه عام ١١٢٥ م. انظر : Tafel and Thomas , 1, doc. 41, PP. 40 — 44 ; mayer, ' The commune of Tyre ' , P. 448 .

(51) Anonymous , P. 49 ; Vitry, P. 19 ; Wendover, P. 475 .

(52) Fulcher , op. cit., P. 270 .

(53) Riley — Smith , ' Government in latin Syria ' , P. 110 .

(54) Tafel and Thomas , 111 ; doc. 369 , PP. 150 — 59 .

وتتضمن منح صاحب طرابلس بيتا للبنادقة في المدينة لكنيسة القديس مرقس ، راعي مدينة البندقية (٥٥) . ولكن بعد مائة عام (١٢١٧ م) أعفى جاي صاحب جيل التجار البنادقة من ضريبة البيع المقررة على السلع في المدينة (٥٦) . وبعد ستين عاما (١٢٧٧ م) أعفى بوهيموند السابع - صاحب طرابلس - البنادقة من بعض الضرائب المقررة على بعض المتاجر ، وأكد في الوقت نفسه حق البنادقة في الاحتفاظ بمحاكمهم الخاصة في المدينة (٥٧) .

بعد هذا العرض الموجز لاهم الامتيازات التي منحها الملوك ولامرء الصليبيون للمدن الإيطالية ، في المدن والامارات الصليبية ، والظروف التي واكبتها ، يجدر بنا ان نبين الخصائص العامة لهذه الامتيازات ، وابعادها الاقتصادية بالنسبة الى الايطاليين والصليبيين على السواء .

أولا : تنوعت هذه الامتيازات الى أنواع ثلاثة :

أ - امتيازات تجارية : اشتملت على حقهم في الدخول والبقاء والمغادرة في الموانئ وكذلك تخفيض أو اعفاءات ضريبية معينة ، وفي بعض الاحيان امتلاك أسواقهم الخاصة ومستودعاتهم .

ب - امتيازات اقليمية : اشتملت على منحهم احياء في المدن وبيوت وأبنية ادارية وكنائس وحمامات وأفران وشوارع وطواحين ، فضلا عن مناطق محددة في المدن لبناء المنازل .

ج - امتيازات قضائية : اشتملت على حق الايطاليين في حل منازعاتهم وفق قوانينهم الخاصة وفي محاكمهم الخاصة ، وكذلك حقهم في بعض الحالات ، محاكمة الجماعات التي تعيش في أحيائهم من الجنسيات الاخرى وفق قوانينهم ومحاكمهم الخاصة .

(55) Ibid., 1, doc. 36 ; PP. 76 — 77 .

(56) Ibid. , 11, doc. 250 , PP. 196 — 97 .

(57) Lamonte, Feudal monarchy , P. 263 ; Riley — Smith, Nobility, P. 67 ; Idem , ' Government ' , P. 110 .

ثانيا : ان الامتيازات التي حصل عليها التجار الايطاليون في القرن الثالث عشر كانت تجديدا وامتدادا للامتيازات التي حصلوا عليها في القرن الثاني عشر ، وهي بالتالي تشكل كلها حلقة واحدة . ولكن تجدر الإشارة الى أن هذه الامتيازات ، وبالتالي المصالح التجارية الإيطالية في المدن والامارات الصليبية قد تعرضت الى أزمة خطيرة في أواخر القرن الثاني عشر وذلك نتيجة انتصارات صلاح الدين الايوبي وفتوحاته في الشام . وهذا يفسر لنا أمرين على جانبيين كبيرين من الأهمية أولهما : الدور الكبير الذي لعبته المدن الإيطالية في الحملة الصليبية الثالثة في نقل الصليبيين الى الشرق (٥٨) وثانيهما سلسلة الامتيازات الكثيرة التي منحها الامراء الصليبيون للمدن الإيطالية للحصول على المساعدة البحرية من هذه المدن لاسترداد ما فتحه صلاح الدين ، وبالتالي حماية بقايا المدن الصليبية من خطر المسلمين (٥٩) .

ثالثا : لقد مكنت هذه الامتيازات التجار الايطاليين من تحقيق الحد الأقصى من المنافع والمصالح التجارية في المدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر ، فعلى الرغم من اختلاف المعاهدات والامتيازات التجارية في التفاصيل ، إلا أنها جسدت المصالح العليا للتجار وحرصهم الشديد على المتاجرة ضمن شروط مناسبة ، والحفاظ على الحد الأدنى من التكاليف . ومن هنا يمكن أن نفهم مساوماتهم للحصول على إعفاءات مستمرة من الرسوم والضرائب التي فرضتها الحكومات الصليبية كما يقول ماير (٦٠) .

رابعا : أن الايطاليين لم يتمتعوا بكامل هذه الامتيازات، ففي السنوات التي أعقبت الاحتلال الصليبي للمدن الشامية ، منح الملوك والامراء الصليبيون امتيازات سخية للتجار الايطاليين . وشجعوهم بشتى الوسائل على المتاجرة والاستقرار في المدن التي احتلوها . ولكن موقفهم هذا أخذ يتغير منذ أواسط القرن الثاني عشر ، حيث أخذوا يماطلون في تنفيذ الوعود والمعاهدات التجارية ، بل حاول بعض الملوك والامراء استرداد أو

(58) Byrne, ' Commercial Contracts ' , P. 132 .

(59) Smail , The crusades in Syria and Holyland P. 60 .

(60) Mayer, The crusades, P. 59 .

تخفيض الامتيازات التي كانوا قد منحوها للقومونات الإيطالية (٦١) . وربما السبب في ذلك - كما يرى بيرن Byrne (٦٢) هو ادراك الحكام الصليبيين للاخطار أو الاضرار التي تنتج عن وجود اقلية مستقلة ، من البنادقة والبيازنة والجنوية ، في قلب مجتمع صليبي قائم على أساس اقطاعي .

خامسا : ان الامتيازات الهائلة ، التي منحت للتجار الايطاليين في المدن والامارات الصليبية ، قد كشفت عن قصر نظر الحكام الصليبيين ، الذين أهتموا بحماية الهيكل السياسي لدويلاتهم على حساب المصالح الاقتصادية . وفقد الصليبيون السيطرة على التجار داخل المدن والموانئ الصليبية ، وبالتالي حرموا من أهم الموارد المالية ، وهي الضرائب والمكوس الجمركية المتعلقة بتجارة الترانسيت بصفة خاصة ، وأصبح البناء الاقتصادي للدويلات الصليبية ، هزيلا لان النشاط التجاري في المدن والموانئ الصليبية أصبح في أيدي التجار الايطاليين دون سواهم .

(61) Riley — Smith, Nobility ; PP. 67 — 68 .

(62) Byrne, ' The Genoese colonise ' , P. 142 .

الفصل الثاني

التنافس التجاري بين الجمهوريات الإيطالية في المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر

وارتبط النشاط التجاري للمدن الإيطالية وأحيائها في المدن الصليبية ارتباطا مباشرا بمسألة السلام ، سواء في علاقات هذه المدن بملوك وأمراء المملكة الصليبية ، أو في علاقات الصليبيين عامة مع القوى الإسلامية في مصر والشام ، أو في علاقات المدن الإيطالية ذاتها وجالياتها في المدن والإمارات الصليبية . ويبدو أن هذه المعادلات كانت واضحة تماما أمام الإيطاليين ، وحاولوا إقامة التوازن بين أطرافها تحقيقا لمصالحهم التجارية . وإذا كان هؤلاء قد نجحوا ، خلال معظم أيام المملكة الصليبية الأولى (١٠٩٩ - ١١٨٧ م) ، في الحفاظ على توازن هذه المعادلات ، إلا أنهم فشلوا في ذلك ، خلال معظم أيام المملكة الصليبية الثانية في عكا (١١٩١ - ١٢٩١ م) . وذلك نتيجة تفجر التناقضات في المصالح التجارية بين الأطراف المختلفة ، وانقلاب الموازين الاقتصادية والسياسية معا . وكان لهذا كله أكبر الأثر لا في النشاط التجاري للإيطاليين ومستقبله في المدن الصليبية فحسب وإنما في الوجود الإيطالي والصليبي معا في الشام (١) .

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية ، البندقية وجنوه وبيزا ، قد حصلت على امتيازات تجارية في المدن الصليبية ، مقابل مساعداتها للصليبيين ، فقد تعززت هذه الامتيازات وتوسعت عندما اتخذت كل جمهورية موقفا ازاء الصراعات السياسية التي دبت بين الأمراء الصليبيين الطامعين في عرش المملكة الصليبية .

(١) يعتبر المؤرخ الصليبي المعاصر يعقوب ديفتري من أوائل المؤرخين اللاتين الذين أدركوا خطورة التنافس والصراع بين المدن الإيطالية وأحيائها في المملكة الصليبية وأثر ذلك كله على النشاط التجاري والوجود الصليبي .
انظر :

de vitry , op. cit., PP. 64 — 67 .

— ١٤٤ —

فعندما انفجر النزاع (١١٩٠ - ١١٩٢ م) بين كونراد مونتفرات (٢) وبين جاي لوزنجيان (٣) على عرش مملكة بيت المقدس في عكا ، سعى كل من الطرفين المتنازعين الى كسب دعم الجاليات الإيطالية ، عن طريق المنح والامتيازات التجارية . ووقف البيازنة الى جانب جاي ، ودعموا حقه في العرش ، في حين وقف الجنوية الى جانب كونراد . وكانت النتيجة أن طرد الأخير البيازنة من صور وثبت اقدام الجنوية فيها (٤) . وسرعان ما حدثت منازعات دموية بين البيازنة والجنوية في مدينة عكا عقب احتلالها (١١٩١ - ١١٩٢ م) ، حتى أن الجنوية في عكا قاموا بتدبير مؤامرة (فبراير ١١٩٢ م) للاستيلاء على عكا وتسليمها لكونراد . إلا أن البيازنة وريتشارد قلب الأسد نجحوا في احباط المؤامرة ، وبالتالي في التوفيق بين البيازنة والجنوية ، خاصة وقد أدرك الصليبيون خطورة أن يقوم أحد الطرفين المتنازعين ، البيازنة أو الجنوية ، بالتحالف مع المسلمين (٥) .

وكان أن تورط البيازنة والجنوية ثانية في النزاع الذي نشب (١١٩٣ - ١١٩٥ م) حول تاج مملكة بيت المقدس ، بين جاي لوزنجيان ، الذي أصبح حاكما على قبرص ، وبين هنري شمباني ، الذي أصبح حاكما على صور . ووقف الجنوية الى جانب هنري في حين وقف البيازنة الى جانب جاي . وكانت النتيجة أن طرد هنري البيازنة من صور وعكا وبقيّة المدن الصليبية . ولم يتمكن هؤلاء من العودة الى أحيائهم في المملكة الصليبية إلا

(٢) عن ظهور كونراد مونتفرات ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس عامة ومدينة صور بصفة خاصة ، والنزاع بينه وبين جاي . انظر :

Fleming , The Hist. of Tyre , PP. 107 — 110 .

(٣) عن آل لوزنجيان وتاريخهم في الشام وقبرص . انظر :

Painter, s. ; ' The house of Lusignan . 115 — 125 ' ,

Speculum, XXX (1955) , PP. 374 — 84 .

(4) Mayer, ' The communal of Tyre ' ; P. 461 ; Tolkowsky, op. cit., PP. 103 — 104 .

(٥) انظر تفصيل ذلك في : عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٨٥ - ٨٨٧ ، أيضا :

Fleming , op. cit., P. 110 .

— ١٤٥ — العلاقات الاقتصادية م ١٠

بعد أن تم توقيع الاتفاق بين هنري شمباني وآل لوزنجيان عام ١١٩٤ - ١١٩٥ م (٦) .

وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، لعبت الجاليات الإيطالية ، في المدن الصليبية ، دورا كبيرا في الصراع الذي اندلع بين الجبيليين والجولفيين (٧) . فمن المعروف أن هذا الصراع كان في حقيقته صراع بين البابوية والامبراطورية ، وقد دارت رحاه أصلا في إيطاليا . إلا أنه كان ينعكس دائما على الإيطاليين المقيمين خارجها أيضا (٨) . وكان لابد للجاليات الإيطالية في المدن الصليبية « أن تتأثر تأثرا مباشرا بسياسات دولها الأم فالحرب بين جمهورية جنوة وجمهورية بيزا ، كان يعني الحرب بين الجاليات الجنوبية والبيزاوية في المدن الصليبية (٩) . ولهذا فقد انتقل الصراع بين الجبيليين والجولفيين إلى الجاليات الإيطالية ، وتكررت بينها حوادث العنف والاصطدامات المسلحة في شوارع المدن الصليبية ، وبشكل خاص في عكا ، بين الجنوبية ، الذين كانت مدينتهم الأم إلى جانب الجولفيين وبين البيازنة ، الذين كانت مدينتهم الأم إلى جانب الجبيليين (١٠) .

وكان أن وصل النزاع بين الجاليات الإيطالية إلى ذروته بوصول حملة الامبراطور فردريك الثاني إلى الساحل الشامي عام ١٢٢٨ م (١١) . حيث جلبت هذه الحملة معها الصراع بين الجولفيين والجبيليين وذلك لان

- (6) Runciman, Hist. of The crusades , 111 PP. 193 FF. mayer, The crusades P. 240 ; Idem, ' The commune ' P. 461 . , Hill, Hist. Cyprus, 111, P. 42

(٧) الصراع بين الجبيليين والجولفيين هو في حقيقته صراع بين الامبراطورية والبابوية، والجبيليون Ghibelline هم دوقات أسرة هوهنشتاوفن ، نسبة إلى قلعة في اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم ، وهم انصار الاباطرة والجولفيون Guelf هم أمراء سكسونيا. وهم انصار البابوية . وكان لهذين الحزبين أثر كبير في سير الحوادث في المانيا وايطاليا في هذه الفترة . انظر تفصيل ذلك : عاشور : أوروبا العصور الوسطى . ج ٢ ، ص ٣٥٣ - ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ .

- (8) Ludolph , op. cit., P. 54 .
(9) Smail, op. cit. P. 60 .
(10) Ludolph , op. cit., 54 .

(١١) عن حملة فردريك الثاني إلى الشام انظر : عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١١ (١٩٦٣) ، ص ١٩٥ - ٢١٣ .

الامبراطور حاول أن ينتزع من البارونات الصليبيين الاعتراف بحقه في مملكة بيت المقدس الصليبية باعتباره زوجا لابنه الامبراطور ، حنا ديبرين ، يولاند ، ومن ثم بحق ابنه كونراد من يولاند في وراثته المملكة (١٢) . ووقف معظم البارونات بزعامة حنا ايلين ، صاحب بيروت ، في وجه المطالب الامبراطورية ، وشكل هؤلاء البارونات والتجار في عكا قومونا لحماية المملكة الصليبية من فردريك الثاني وعينوا حنا ايلين محافظا على القومون (١٣) .

والذي يهمننا من هذا الصراع الطويل ، بين الجولفيين والجبيليين ، في المدن الصليبية هو انقسام الجاليات الإيطالية . فقد وقف البيازنة إلى جانب الحزب الامبراطوري ودعموا مطالب فردريك وحقوقه في مملكة بيت المقدس (١٤) ، وذلك تمشيا مع سياستهم في ايطاليا القائمة على التحالف مع الجبيليين (١٥) . في حين وقف الجنوبية والبنادقة إلى جانب البارونات الصليبيين والحزب المعادي للامبراطور فردريك في المدن الصليبية . وقامت السفن الجنوبية - اثناء النزاع بين القوات الامبراطورية وقوات حنا ايلين - بنقل المحاربين الصليبيين من عكا وبيروت إلى قبرص وبالعكس . ويؤكد المؤرخ نوفار ، الذي عاش هذه الاحداث كشاهد عيان ، أن سفنا جنوبية اشتركت في مهاجمة القوات الامبراطورية عند صور (١٦) .

ونود أن نؤكد أن الصراع بين هذه الاطراف قد انعكس على العلاقات بين الجاليات التجارية الإيطالية في المدن الصليبية . حيث اندلعت أعمال العنف بين الجنوبية والبيازنة في شوارع عكا . وفي الوقت ذاته أخذ كل طرف من الطرفين المتنازعين في جذب القوى التي تدعمه عن طريق تجديد الامتيازات التجارية القديمة وازافة امتيازات جديدة . ومما يدل على ذلك أن حنا ايلين وقع معاهدة مع الجنوبية في أبريل عام ١٢٣١ م ، منحهم

- (12) Novar, The wars Frederick II against The Ibelins in Syria and Cyprus, PP. 78 — 87 ; 187 — 88, 207 — 208
(13) Novar, op. cit., PP. 136 — 37 ; 144 ; Mayer, ' The commune ' , PP. 444 — 45 .
(14) Novar, op. cit., P. 91 .
(15) Ludolph, op. cit., P. 54 .
(16) Novar, op. cit., PP. 98 — 101 ; 136 — 39 ; 171 — 72 ; 177 — 78 .

فيها امتيازات تجارية واقطاعية في مملكة بيت المقدس وقبرص . وذلك مقابل دعمهم له بحريا في صراعه مع القوات الامبراطورية (١٧) . ويبدو أن الفتنة بين البيازنة والجنوية في عكا قد قامت ثانية في مارس من عام ١٢٤٩ م ، واستمرت قرابة شهر . والدليل على ذلك عدم تمكن الايطاليين من تقديم السفن التي طلبها لويس التاسع أثناء ذلك ، لنقل قواته من قبرص الى مصر آنذاك (١٨) .

وعلى أية حال فإن هزيمة الجبيليين ووفاة الامبراطور فردريك الثاني عام ١٢٥٠ م قد أدت الى ضعف الجبيليين في ايطاليا والمدن الصليبية معا ، بحيث لم يعد البيازنة منافسين خطيرين للجنوية أو للبنادقة في شرق البحر المتوسط ، بل تركزت المنافسة بين الجنوية الذين ازدهرت تجارتهم ازدهارا كبيرا في المملكة الصليبية في عكا ، وبين البنادقة - الذين كانوا يعملون على احتكار تجارة المدن الصليبية وشرق البحر المتوسط عامة (١٩) .

ان أخطر المنازعات التي نشبت بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية، خلال القرن الثالث عشر ، لم تكن بدافع دعم مرشح للعرش ضد مرشح آخر ، ولم تكن نتيجة صراعات الجولفيين والجبيليين ، وانما كانت نتيجة احقاد ومنافسات اقتصادية بين المدن الايطالية . ولقد ركز المؤرخ المعاصر ديفتري تركيزا كبيرا على أن « الجشع الاقتصادي » كان وراء كل أشكال المنافسات والصراعات التي نشبت بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية خلال القرن الثالث عشر (٢٠) .

ويعتقد كوندر Conder أن رغبة المدن الايطالية في السيطرة على التجارة الشرقية كان السبب في كل المنازعات التي نشبت بين هذه المدن في الشام خلال الحقبة الصليبية (٢١) . ونظريين Byrne الى مسألة النزاع بين الجنوية والبنادقة ، بصفة خاصة في المدن الصليبية ، من زاوية أخرى ،

(17) Ibid., PP. 136 ; 144 ; 148 — 49 .

(18) Hill, Hist. of cyprus, 11, P. 141 .

(19) Lane, Venice, A maritime Republic, P. 73 .

(20) de Vitry, op. cit., PP. 66 — 67 .

(21) Conder, op. cit., 305 .

اعتمادا على العقود التجارية غير المنشورة ، الموجودة في أرشيف جنوة ، وراي أن سقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م أدى الى طرد البنادقة للجنوية من الاسواق البيزنطية من جهة والى تركيز الجنوية لنشاطهم التجاري في الشام ، وذلك كتعويض للخسارة التي لحقت بهم في بيزنطة من جهة ثانية (٢٢) . وبالتالي أصبحت المنافسة بينهم وبين البنادقة أمرا لا مفر منه . ويبدو أن التنافس الاقتصادي بين المدن الايطالية في المملكة الصليبية كان أكثر حدة مما كان عليه في بيزنطة ومصر ، وربما السبب في ذلك أن كل مدينة تجارية ايطالية عملت على احتكار تجارة المملكة الصليبية واقتصادها لنفسها ولهذا كان النزاع بينهم أمرا حتميا لتحقيق ذلك (٢٣) .

وكانت أول حرب بين الجنوية والبنادقة في الشام هو الذي عرف باسم « حرب دير القديس سابا في عكا » في أواسط القرن الثالث عشر . وكانت هذه الفتنة نتيجة سلسلة من حوادث العنف التي تبادلها الطرفان في عكا منذ عام ١٢٥٠ م ، حيث قتل البنادقة تاجرا جنويا في المدينة ، وثار على أثر ذلك الجالية الجنوية فيها وهاجمت الحي البندقي ونهبته ، وكان هذا الحادث البداية الحقيقية للشعور العدائي الذي أخذ يتبادلته الطرفان في المملكة الصليبية (٢٤) .

ولم تمض عدة سنوات حتى استأنف الطرفان المنازعات بينهما (١٢٥٦ م) . وكان السبب المباشر في ذلك النزاع هو دير قديم مكرس للقديس سابا ، يقع على هضبة تفصل الحيين البندقي والجنوي في مدينة عكا . وأدعى كل من الطرفين حقه في ملكية هذا الدير . وقطع الجنوية المناقشات الدائرة ، حول هذه المسألة وقاموا بالاستيلاء على الدير (١٢٥٦ م) . واحتج البنادقة على هذا الاجراء ، فرد الجنوية على ذلك بمهاجمة الحي البندقي في عكا ، حيث نهبوا - بالتعاون مع المستوطنين البيازنة - منازل البنادقة ومستودعاتهم ، اضافة الى سفنهم الراسية في الميناء . وتمكن البنادقة - بصعوبة بالغة - من طرد المهاجمين ، الجنوية والبيازنة ،

(22) Byrne, ' Commercial contracts ' , P. 134 .

(23) Thompson , op. cit., 1, P. 411 .

(24) Lane, Venice, A maritime Republic, P. 73 ; Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 240 F., Heyd, 1, PP. 344 FF.

خارج خيهم (٢٥) .

وانقسمت القوى اللاتينية في الشام ازاء هذا الصراع ، فالجنوية تلقوا الدعم من فيليب مونتفرات ، صاحب صور ، الذي قام بطرد البنادقة من الثلث الذي يملكونه في صور بموجب معاهدة عام ١١٢٤ م (٢٦) . وتلقى الجنوية التأييد من بعض الفئات من التجار والفرسان الاستبارية اضافة الى آل امبرياتشو في جبيل . في حين وقف الى جانب البنادقة كل من التجار المرسيليين والفرسان الداوية والتيتون وبوهيموند السادس صاحب انطاكية ، اضافة الى اصحاب يافا وأرسوف (٢٧) . كما انضم البيازنة الى البنادقة في هذا النزاع ووقعوا معاهدة دفاعية هجومية فيما بينهم سنة ١٢٥٧ م (٢٨) .

وعندما علم الجنوية بتغير موقف البيازنة وتحالفهم مع البنادقة ، هاجموا الحي البزاوي في عكا ، وبذلك سيطروا سيطرة كاملة على ميناء المدينة . الا أنه سرعان ما وصل أسطول بندقى بقيادة لورينزو تيبولو Lorenzo Tieplo الى عكا (١٢٥٧) وقام باحراق السفن الجنوية الموجودة في الميناء . ودارت معركة قاسية ، في شوارع عكا ، بين المستوطنين البنادقة والمستوطنين الجنوية ، انتهت بهزيمة الجنوية وامتلاك البنادقة لدير القديس سابا المتنازع عليه الا أنهم لم يتمكنوا من طرد الجنوية خارج خيهم في المدينة (٢٩) .

- (25) Pernoud , The crusades, P. 265 ; Smail, The Crusades, P. 35, Boase, op. cit., P. 203, Runciman , Hist. of the crusades, 111, PP. 282 — 83 .
- (26) William of tyre , op. cit., 1, PP. 552 — 56 .
- (27) Smail, PP. 35 — 36 ; Boase, P. 203, Byrne ' Genoese Colonise ' , P. 178 ; Runciman , Hist. ; of Crusades, 111, PP. 283—84 ; Thompson, 1, P. 421, Hill, op. cit., 11, P. 150

(٢٨) غفاف صبرة : المرجع نفسه ، ص ١٦٨ .

- (29) Lane A maritime, P. 73 ; Hodgson , op. cit., PP. 121 — 22, 163 ; Brown , An Historical Sketch of the Republic , P. 142, Thompson, 1, P. 421 .

لم يكن بإمكان القومون الجنوبي السكوت عما حل برعاياه في عكا ، فأرسل أسطولا في العام التالي (١٢٥٨ م) الى مدينة صور ، وبعد أن انضم اليه من بها من الجنوية اتجه نحو مدينة عكا تسانده قوات فيليب مونتفرات . ودارت معركة عنيفة بين السفن الجنوية والسفن البندقية قرب عكا ، انتهت بهزيمة الجنوية . وفي الوقت ذاته هاجم البنادقة وحلفاؤهم الحي الجنوبي في المدينة واعملوا فيه السلب والتدمير ، ومن ثم تقاسمه البنادقة والبيازنة . وعندها قرر الجنوية — والحالة هذه — التخلي كلياً عن مدينة عكا ، واتخذوا — منذ ذلك الوقت — مدينة صور مقراً رئيسياً لجالياتهم ونشاطاتهم التجارية في المدن والامارات الصليبية (٣٠) .

وحمل البنادقة المنتصرون معهم من عكا الى وطنهم الأسرى الجنوية، وكان يمكن لهؤلاء أن يكونوا ورقة رابحة بأيدي البنادقة في مفاوضات السلام بينهم وبين الجنوية . وذلك لأنه لم يكن بإمكان البندقية استرقاق الأسرى الجنوية . فالمدن الإيطالية اعتادت ألا تسترق رعايا بعضها اطلاقاً ، والأسرى بينها كان يتم اطلاق سراحهم وافتدائهم بموجب معاهدة . ولكن أسرى حرب دير القديس سابا في عكا قد تم اطلاق سراحهم بناء على طلب البابا وإلحاحه (٣١) .

ورغم أن حرب دير القديس سابا قد انتهت باتفاقية سلام عاجلة بين الاطراف المتنازعة ، بعد توسط البابا وملكة قبرص وعدد من الامراء الصليبيين عام ١٢٥٩ م ، الا أن الاصطدامات بين الإيطاليين استمرت بين حين وآخر في مياه عكا وصور ، والحققت ابلغ الاضرار وافدحها في التجارة والملاحة على طول الساحل الشامي (٣٢) . ومهما يكن من أمر فإنه لم يسمح للجنوية بالعودة الى خيهم في مدينة عكا قبل عام ١٢٦٨ ، علماً بأن هذا الحي أصبح خراباً ، في حين لم يتمكن البنادقة من العودة الى صور قبل

- (30) Mayer, The crusades, P. 263 ; Brown, An Historical P. 143 ; Lane, A maritime, P. 73 ; Beazley, 11, P. 426 ; Hodgson, PP. 122 — 23 .
- (31) Lane A maritime, P. 73 .
- (32) Fleming, op. cit., PP. 118 — 19 ; Boase, P. 203 ; Hodgson P. 124 ; Mayer, The crusades, P. 264 ; Runciman, Hist. of the crusades , 111, PP. 286 ; 324 .

أما عن النتائج الاقتصادية والسياسية لهذا النزاع بين الجنوية والبنادقة ، فلا ريب أنها كانت ذات آثار هامة لا بالنسبة الى الجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية في المدن الصليبية ، وإنما أيضا بالنسبة الى مستقبل الوجود الإيطالي والصليبي معا في بلاد الشام . فقال لين Lane أن حرب دير القديس سابا قد مكن البنادقة من أن يصبحوا السادة الحقيقيين في مدينة عكا على منافسيهم الجنوية (٣٤) . في حين يرى هايد Heyd وهل Hill أن طرد الجنوية من عكا - نتيجة حرب دير سابا - هو الذي دفع الجنوية للتحالف مع الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس عام ١٢٦١ م لاسقاط الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وطردها البنادقة من الاراضي البيزنطية (٣٥) . واعتقد بعض المؤرخين المحدثين ، أمثال فليمنك Fleming وكوندو Conder (٣٦) . أن الهزيمة التي حلت بالجنوية ، في حرب دير القديس سابا ، قد دفعت بهم الى التحالف (١٢٦٦ - ١٢٦٧) م مع السلطان الظاهر بيبرس لفتح مدينة عكا (٣٧) . وإذا كان الجنوية قد تخلوا عن تنفيذ اتفاقهم مع الظاهر بيبرس نتيجة « استيقاظ شعورهم المسيحي » كما يقول رنسيمان (٣٨) ، إلا أن انتصارات الظاهر ضد الصليبيين قد قوبلت بالترحاب من قبل الجنوية (٣٩) .

وإذا كان الجنوية لم يتورعوا عن طرح مشروع التحالف بينهم وبين الظاهر بيبرس لفتح عكا انتقاما من البنادقة ، فإن البنادقة لم يترددوا

- (33) Tafel and Thomas , 111, PP. 150 — 59 . Hill, op. cit., 11, PP. 160, 174 ; mayer, The crusades P. 264 .
(34) Lane, A martitime , P. 73 .
(35) Heyd, 1, PP. 428 — 29 , Hill, 11, P. 154.
(36) Fleming, op. cit., P. 119 , Conder, op. cit., P: 388 :
Runciman . Hist. of the Crusades, 111, P. 317 .

(٣٧) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، مخطوط ص ١٠٧٦ .

(38) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, P. 317 .

(٣٩) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٤٥ .

بدورهم عن تحريض السلطان المنصور قلاوون لفتح مدينة طرابلس انتقاما من الجنوية . وذلك أن صراعا كان قد نشب بين ورثة بوهيموند السابع (ت ١٢٨٧ م) على حكم طرابلس وتشكل قومون في المدينة ، على غرار قومون عكا ، ما بين عامي ١٢٨٨ - ١٢٨٩ م ، تحت قيادة بارثولو امبرياتشو Bartholo Embiraco الجنوبي . ووضع القومون نفسه تحت حماية مدينة جنوه التي عينت بينديتو زكريا Bendito Zaccaria ممثلا لها في طرابلس . واتخذ بينديتو لقب بودستا ، وأعطته حكومة جنوه سلطة مطلقة لحماية القومون في طرابلس (٤٠) . إلا أن ذلك قد أثار مجموعة من القوى اللاتينية ، وفي مقدمتها البندقية ، التي لم يكن من مصلحتها أن تصبح مدينة طرابلس معقلا للجنوية في الشام . ولذا قام البنادقة بتحريض قلاوون على فتح المدينة ، وأن خطرا كبيرا يهدد تجارة السلطان فيما إذا امتلك الجنوية طرابلس . وكانت هذه فرصة طيبة أمام قلاوون ، الذي قام بفتح المدينة بعد ذلك بأشهر قليلة من عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٩ م (٤١) .

إن قصة التنافس بين المدن الإيطالية في المدن والإمارات الصليبية ، خلال القرن الثالث عشر ، قصة متعددة الجوانب والأشكال ، وعميقة الآثار والنتائج ، وفصلا مظلما في تاريخ النشاط التجاري للمدن الإيطالية في شرق البحر المتوسط عامة . وهذا كله يفسر اهتمام معظم المؤرخين الصليبيين ، أمثال ديفتري والمؤرخ المجهول ولادولف وغيرهم (٤٢) ، بالمنافسة التي نشبت بين الإيطاليين في الاراضي المقدسة ، وآثارها لا على النشاط التجاري فحسب وإنما على مملكة بيت المقدس الصليبية ومستقبلها .

(٤٠) انظر تفصيل ذلك في : ابن عبد الظاهر : تشریف الايام والمنصور في سيرة الملك المنصور ، ص ١٦٥ .

(٤١) انظر تفصيل ذلك في :

Pernoud, P. 104 ; mayer, The crusades, P. 273 , Hill, 11, PP. 182 — 83 .

(42) de vitry , op. cit., PP. 66 — 67 ; Anonymous, op. cit., 29: Ludolph, op. cit., P. 53 , 55 , 57 .

الفصل الثالث

الأحياء التجارية الإيطالية في المدن والإمارات الصليبية في القرن الثالث عشر

ان قصة استيطان رعايا المدن الإيطالية ، في المدن الصليبية ، ارتبطت ارتباطا وثيقا بالامتيازات التجارية وغيرها التي منحها الملوك والأمراء الصليبيون للقومونات الإيطالية من جهة ، وبالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشها الصليبيون من جهة ثانية ، وبالعلاقات التي قامت بين المستوطنين الإيطاليين أنفسهم ، في المدن الصليبية ، من جهة ثالثة . فلقد تدفق التجار الإيطاليون إلى « الشرق الصليبي » ، واستقروا في الأحياء التي خصصت لهم ، وتحولت جالياتهم فيها إلى ما يشبه الدويلات المستقلة أو بالأحرى - كما يقول طومسون - « كانت هذه الأحياء الإيطالية قطعة من الدولة الأم في أرض أجنبية » (١) مستقلة في شؤونها السياسية والاقتصادية والقضائية في قلب المجتمع الصليبي .

ولقد تركزت الجاليات التجارية الإيطالية ، منذ بدايتها ، في المدن الساحلية الصليبية ، ورغم أن التجار الإيطاليين قد منحوا امتيازات تجارية ، خلال القرن الثاني عشر ، في المدن الداخلية مثل مدينة بيت المقدس ، إلا أن نشاطهم التجاري في هذه المدن كان محدودا . ومما يبرهن على ذلك أنه لم يكن لمدينة بيت المقدس ، على سبيل المثال ، أهمية تجارية ، وذلك لأنها لاتقع على الطرق التجارية الكبرى ، فضلا عن أنها تفتقد إلى منفذ بحري . ودليلنا على ذلك هو أن معظم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا هذه المدينة ، خلال الفترة موضوع البحث ، أمثال تيوروريك Theodorich ورزبورج Wurzburg وغيرهما ، قد تحدثوا بتفاصيل وافية عن كل شيء في هذه المدينة ، إلا أنهم لم يذكروا للنواحي

(1) Thompson, op. cit., 1, P. 402 .

الاقتصادية أو التجارية أو لجاليات إيطالية فيها (٢) . ولهذا لم يستفد الإيطاليون من الامتيازات التي منحت لهم في بيت المقدس ، أو بالأحرى ، بالمقارنة لما تحقق لهم في المدن الساحلية . كما أن المحاولات التي بذلها ملوك وأمراء بيت المقدس ، عن طريق المنح والامتيازات المتكررة والسخية ، قد فشلت في جذب الإيطاليين للاستيطان في المدينة ، وبالتالي في جعل بيت المقدس مركزا تجاريا (٣) . وهذا ربما يفسر لنا عجز الصليبيين عن استرداد هذه المدينة بعد أن فتحها صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧ م (٤) وذلك لعدم قيام المدن التجارية الإيطالية بمساعدة الصليبيين . في حين نجحت الصليبية الثالثة في استرداد معظم المدن الساحلية التي كان قد فتحها صلاح الدين ، وذلك لأنها كانت ذات أهمية فائقة للمدن التجارية الإيطالية ، فالمصالح الاقتصادية لهذه المدن كانت تفوق الدوافع الدينية للحروب الصليبية (٥) .

ولهذا كله فقد استقرت الجاليات التجارية الإيطالية في المدن الصليبية الساحلية . وعلى الرغم من أن الجاليات الرئيسية للإيطاليين قد تركزت - خلال القرن الثالث عشر - في مدينة عكا ، إلا أن جالياتهم في بقية المدن الساحلية لاتقل أهمية ، من حيث النواحي التجارية ، وذلك لأن معظم هذه المدن كانت مراكز تجارية لتبادل المنتجات الشرقية والغربية ومحطات تجارية هامة في طرق التجارة الدولية (٦) .

وبعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس (١١٨٧ م) ، أصبحت مدينة عكا العاصمة السياسية والتجارية للمملكة الصليبية

(2) Theodorich, op. cit., PP. 18 F. Wurzburg, op. cit., PP. 5 — 50 .

(3) Prawer, ' The Settlement ' , P. 502 .

(٤) يتحدث المؤرخ آرنول عن جميع القوى الصليبية واللاتينية التي اشتركت في الدفاع عن مدينة القدس عندما هاجمها صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧/٥٨٣ م) ، ولكن لم يذكر هذا المؤرخ إطلاقا اشتراك أية قوة إيطالية في الدفاع عن المدينة انظر :

Ernoul, op. cit., P. 60 .

(5) Thompson, 1, P. 412 .

(6) Riley — Smith Nobility, P. 62 .

(١١٩١ - ١٢٩١ م) و « قاعدة بلاد الافرنج بالشام » (٧) ومقر الملك بيت المقدس أو نائبه ومحطة رئيسية للحجاج المسيحيين (٨) ، ومركزا أساسيا للجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية في « الإمارات الصليبية » ونقطة التقاء بالغة الأهمية للطرق التجارية التي تتدفق عليها ثروات الشرق الأقصى ومتاجره (٩) .

وأشاد الرحالة والمؤرخون المعاصرون بموقع عكا ومينائها وبالتالي بالأهمية التجارية التي كانت لهذه المدينة خاصة بعد سنة ١١٩١ م ، حيث أشار بركارد (١٠) Burchard الى اتساع مينائها الذي « يمكن اعدادا كبيرة من السفن من الرسو فيه » (١١) . وذكر ثيودوريك « أن سفن الحجاج كانت ترسو بهم في ميناء عكا وتعود بهم من نفس الميناء الى أوربا ، وقال « انني قمت بعد السفن التي كانت موجودة في ميناء عكا - عندما كنت هناك - فكانت ثمانين سفينة اضافة الى السفينة التي كنت قد وصلت على ظهرها الى هذا الميناء (١٢) » ، وقد أشار كل من فيتلوس Fetellus ولادولف Ludolph وديفتري Devitry وغيرهم ، الى النشاط التجاري في مدينة عكا (١٣) . وربما هذا هو الذي مكن اثنين من الرحالة المسلمين ابن جبير وابن بطوطة ، أن يقارنا عكا بمدينة القسطنطينية (١٤) . ولقد استفاد الايطاليون الى أقصى حد ، من الامتيازات التي منحت لهم في مدينة عكا ، حيث تدفقت جموعهم اليها ، واستقرت في الاماكن التي خصصت لهم ، وشكلوا فيها جاليات تجارية غنية (١٥) ، ورغم ان هذه

(٧) ابن جبير ص ٢٤٩ ، وابن بطوطة ص ٦١ .

(٨) The city of Jerusalem, P. 73 .

(٩) Lane , A Maritime, P. 70 .

(١٠) Burchard, op. cit., P. 9 .

(١١) قال ابن جبير « ان السفن الكبار ترسو خارج الميناء ، والمراكب الصغار تدخل اليها . انظر : ابن جبير ، ص ٢٥٠ .

(١٢) Theodorich, op. cit., PP. 59 — 60 .

(١٣) اشار الحنبلي الى ثراء مدينة عكا وكيف كانت « مظنة التجار » الحنبلي شفاء القلوب - مخطوط : ٣١ ، ٣٢ .

(١٤) انظر : ابن جبير ص ٢٤٩ ، ابن بطوطة ، ص ٦١ .

(١٥) Ludolph , op. cit., P. 53

الجاليات قد تعرضت لازمة عنيفة نتيجة فتح صلاح الدين مدينة عكا (١١٨٧ م) ولكن سرعان ما استرد الايطاليون المناطق المخصصة لهم فيها ، بعد أن نجحت الحملة الصليبية الثالثة في الاستيلاء عليها عام ١١٩١ م (١٦) .

شكلت الاحياء الإيطالية في عكا ما يشبه نصف دائرة حول الميناء فالحي الذي خصص للجنوية كان أقرب الى وسط المدينة منه الى الشاطئ ، وبالتالي الميناء (١٧) ، وهذا الامر يدعو الى الاستغراب ، خاصة اذا عرفنا ان الجنوية كانوا الايطاليين الاوائل الذين حصلوا على امتيازات اقليمية في هذه المدينة ، نتيجة المساعدة التي قدموها للملك بلدوين الاول لاحتلالها عام ١١٠٤ م (١٨) . أما حي البيازنة فقد كان قريبا جدا من ميناء المدينة ، وامتد على طول الجزء الجنوبي الغربي من المدينة باتجاه المعبد (١٩) . أما حي البنادقة فكان بالقرب من الميناء (٢٠) وعلى امتداد حي البيازنة ومحاذاته (٢١) . ورغم أن احياء الايطاليين هذه لا تجاور الميناء تماما ، إلا أنه كان بإمكانهم جلب متاجرهم من سفنهم مباشرة الى المستودعات الموجودة في أحيائهم (٢٢) .

واشتملت الاحياء الإيطالية في عكا على بيوت سكنية وفنادق وحمامات وأفران ومستودعات وطواحين ومحاكم خاصة بهم ومكاتب تجارية وحوانيت وأسواق تجارية ، فضلا عن كنائس تتبع كنائسهم في المدينة الأم (٢٣) . كما ضمت هذه الاحياء أبنية للقناصل وحدائق وأبراجا مرتفعة ، وضعت فوقها المنجنيقات وأدوات الحرب والحصار وذلك للتصدي لأي هجوم

(16) Thompson, 1, P. 413 .

(17) Smail, op. cit., P. 75 .

(18) William of Tyre, Hist. of deeds. , 1, PP. 454 — 56 .

(19) Conder, PP. 409 — 410 ; Smail, P. 75 .

(20) William of Tyre, op. cit., 1, P. 554 .

(21) Conder, PP. 409 — 410 ; Smail, P. 75 .

(22) Riley — Smith , ' Government ' , P. 118 .

(23) Tafel and Thomas, 1, doc. 30 ; PP. 66 — 75 ; Byrne, ' Genoese trade ' P. 195 , Pernoud, P. 192 .

قد يوجه ضدها (٢٤) .

وكان معظم سكان الاحياء الإيطالية في عكا تجارا ، اضافة الى اعداد كبيرة من الصناع والحرفيين الإيطاليين الذين استقروا في هذه الاحياء أيضا (٢٥) ، كما اعتاد موظفو المدن الإيطالية « البندقية وجنوه وبيزا » ، أن يمضوا جزءا من السنة في أحياء جالييتهم في الشرق ، قبل أن يعودوا الى إيطاليا (٢٦) ، بالإضافة الى أن رجال الدين ، الذين قدموا من المدن الإيطالية للقيام بالطقوس الدينية ، قد التحقوا بالكنائس التي تضمها أحيائهم في عكا (٢٧) . كما أقام في الاحياء القناصل الإيطاليون والموظفون الذين يساعدونهم في أعمالهم فضلا عن قضاة المحاكم الإيطالية (٢٨) .

وحددت المعاهدات ، التي عقدت بين المدن الإيطالية والامارات الصليبية ، طبيعة العلاقة بين الجاليات الإيطالية والقوى اللاتينية الأخرى في المدن الصليبية . فمن حيث المبدأ كانت الجاليات التجارية الإيطالية تابعة الى مدنها الأصلية الأم . ورغم أن هذه الجاليات الإيطالية كانت ترتاب في الطبيعة الاقطاعية لنظام الحكم في المملكة الصليبية (٢٩) ، إلا أنها شاركت في الدفاع عن المدينة الصليبية التي عاشوا فيها ، اذا تعرضت هذه المدينة الى هجوم . ولكن لم يكن المستوطنون الإيطاليون مسؤولين عن أي خدمات أخرى مهما كان نوعها ، فلم يكن يطلب منهم المشاركة في الاعداد أو الانضمام الى أية حملة عسكرية صليبية ، وعندما كانوا يفعلون ذلك فقد كان يتم في ظل معاهدة خاصة . كما لم يكن التجار الإيطاليون مسؤولين عن الأضرار أو الخراب الذي يلحقه القراصنة الذين ينتمون الى المدينة الأم في ممتلكات

(٢٤) عفاف صبرة : علاقة البندقية بمصر والشام ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

- (25) Ludolph, op. cit., PP. 51 ; 53 .
(26) Smail, op. cit., P. 60 .
(27) Prawer, The latin Kingdom., P. 190 .
(28) A nonymous, op. cit., P. 29 .
(29) Thompson, 1, P. 409 .

أو أراضي المملكة الصليبية (٣٠) . وقد نص امتياز عام ١٢٢١ م ، الذي منحه حنا إيلين - صاحب بيروت - للجنوية والبنداقية (٣١) ، أن هؤلاء غير مسؤولين عما يلحقه أبناء وطنهم من القراصنة بممتلكات حنا من أضرار وأخطار (٣٢) .

وأدركت الجمهوريات الإيطالية أهمية المركزية في إدارة جالياتها في الشرق الصليبي . ولهذا عينت كل منها ممثلا عنها على رأس جالياتها في المدن الصليبية . وكان يعتبر رؤساء هذه الجاليات من بين السادة الكبار في مملكة بيت المقدس ، ولعبوا دورا هاما في الشؤون الداخلية لهذه المملكة (٣٣) . واتخذ هؤلاء المثلون عكا مقرا لهم . فالممثل البندقي في عكا اتخذ لقب بايلو Bailo (٣٤) ، وكان الى جانبه شخصية رسمية أخرى اتخذت لقب الفيكونت Viscount (٣٥) ويعتبر البايو هو ممثل القومون البندقي في المدن الصليبية كلها (٣٦) . وكان مستقل تماما عن حكومة بيت المقدس ، ومركزه يشبه الى حد كبير منصب السفير حاليا (٣٧) . وكانت مهماته واسعة للغاية حيث كان يشرف على شؤون الجاليات البندقية في « الامارات الصليبية » كلها ، ومن حقه عقد معاهدات بالنيابة عن القومون البندقي ، وتقديم الاحتجاجات الى السلطات الصليبية اذا تعرضت مصالح القومون ورعاياه في المدن الصليبية الى خطر (٣٨) . ولقد اثبت لامونت Lamonte ان البايو البندقي في عكا كان يصنف بنفس الدرجة التي كان

(30) Lamonte, Feudal monarchy , PP. 239 — 271 .

(31) Novar, op. cit., PP. 136 ; 144 .

(32) Riley — Smith, Nobility , P. 77 .

(33) Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 227 .

(34) Novar, op. cit., P. 205 .

(٣٥) الفيكونت : هو المشرف على ممتلكات البنداقية في مدن الشام ووكيل البندقية لدى السلطات الصليبية . انظر : عفاف صبرة علاقة البندقية بمصر والشام ، ص ٧ ، حاشية (٥) .

(36) Novar, op. cit., P. 205 ; Hodgson , P. 121 .

(37) Hodgson, P. 121 .

(38) Ibid., PP. 138 — 39 .

عليها الدوق البندقي في كريت والبودستا Podesta البندقي في القسطنطينية ، بمعنى أنه كان واحداً من أبرز موظفي الدولة البندقية في أعمال ما وراء البحار ، كما بين أن جميع الممثلين البنادقة ، في انطاكية وبيروت وطرابلس وصور وحلب والاسكندرية ، كانوا تحت زعامة البايلو Bailo البندقي المقيم في عكا (٢٩) .

أما بالنسبة الى ادارة الحي التابع لمدينة بيزا في عكا فقد عينت حكومة بيزا ممثلاً عن قومون بيزا في المدن الصليبية اتخذ لقب قنصل (٤٠) وكان مقره في الحي البيزاوي في مدينة عكا . وكانت مسؤوليته الرئيسية ادارة شؤون الجاليات البيزاوية في المدن الصليبية ورعايتها . وكان يساعده هيئة من الموظفين البيزانة مهمتهم الاشراف على شؤون التجار البيزانة وتنظيم العلاقة بين الجاليات البيزاوية والحكومات الصليبية (٤١) .

أما ادارة الاحياء التابعة لمدينة جنوة في المدن الصليبية فقد تطورت تطوراً واسعاً خلال القرن الثالث عشر ، وذلك لان عائلة امبرياتشو كانت قد احتكرت ادارة جميع الاحياء الجنوبية في المدن الصليبية بالنيابة عن مدينة جنوة (٤٢) خلال القرن الثاني عشر كله . ولقد برهن بيرن Byrne ان أهم العوامل التي مكنت هذه العائلة من احتكار الادارة كانت جهل قومون جنوة نفسه وعدم خبرته في شؤون الحكم وادارة ممتلكاته فيما « وراء البحار » بالإضافة الى أن الفئة الوحيدة التي كانت قادرة على ادارة احياء جنوة في الشام آنذاك ، هي العائلات الاقطاعية التي كانت تسيطر على جنوة نفسها ، والتي تتحدر اصلاً من الكونتات ذوي الخبرة الواسعة في الادارة والتنظيم ، وكانت عائلة امبرياتشو أشهر هذه العائلات الاقطاعية (٤٣) .

ولقد استمر احتكار آل امبرياتشو في ادارة الاحياء الجنوبية في المدن

(39) Lamonte, The Feudal monarchy , PP. 234 , n. 2.

(40) Riley — Smith , Nobility , P. 70 .

(41) Thompson, 1, P. 403 .

(42) William of Tyre, Hist. of deeds, vol , 1, PP. 476 — 76 .

(43) Byrne, ' Genoese colonise ' PP. 145 — 48 .

الصليبية حتى أواخر القرن الثاني عشر (٤٤) . حيث بدأت هذه العائلة منذ عام ١١٩٠ م تقريباً في استخدام افراد جنوبيين من خارج العائلة ، في حين تفرغ آل امبرياتشو للشؤون السياسية الكبرى في جمهورية جنوة و « الامارات الصليبية » معا (٤٥) . وحدث تطور هام في ادارة الاحياء التابعة لجنوة في المدن الصليبية خلال القرن الثالث عشر ، فقد بدأ القومون الجنوبيون نفسه يتولى مسألة ادارة جالياته في المدن الصليبية ، وجمعت الادارة كلها بيد اثنين من الموظفين الكبار ، الاول اتخذ لقب قنصل (٤٦) ، والآخر اتخذ لقب فيكونت ، وكان القنصل ممثلاً لحكومة القومون الجنوبي (٤٧) ، في حين كان الفيكونت مسؤولاً عن الشؤون القضائية في الحي الجنوبي (٤٨) وكانت مدة خدمة القنصل والفيكونت — من حيث المبدأ — سنة واحدة فقط ، ولكن كانت تمتد هذه الفترة مدة أطول ، وبالتالي حتى يتم تعيين من يحل محلها ، ويساعد القنصل مجلس من المستوطنين الجنوبية (٤٩) . واتخذ القنصل والفيكونت عكا مقراً لهما . ولكن بعد طرد الجنوبية من المدينة الاخرة عام ١٢٥٨ م ، نتيجة النزاع حول دير القديس سابا ، فقد انتقل المقر الرئيسي للادارة الجنوبية في المدن الصليبية الى مدينة صور (٥٠) .

وفي عام ١٢٧٤ م حدث تطور آخر في ادارة احياء جنوة في المملكة الصليبية ، حيث عين القومون الجنوبي شخصاً لادارة احيائه هذه باسم البودستا بدلاً من القنصل ، واتخذ البودستا مدينة صور مقراً له أيضاً (٥١) . ويلاحظ أن هذا التطور في ادارة الجنوبية لحياتهم في المدن الصليبية يشبه التطور الذي حدث في ادارة المستوطنات التجارية الجنوبية

(44) Mayer, The Crusades, P. 175 .

(45) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 154 — 56 .

(46) Novar, op. cit., P. 208 .

(47) Ibid., P. 208 .

(48) Byrne, ' Genoese colonise ' , P. 165 .

(49) Ibid. , PP. 166, 172 .

(50) Ibid., P. 116 Beazley, op. cit., 11, P: 426

(51) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 167 — 68 .

في القسطنطينية في الفترة نفسها تقريبا ، وذلك لان اتساع ممتلكات الجنوية وازدهار تجارتهم في بيزنطة بعد استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م . كما بينا ، جعل الممثل الجنوبي في القسطنطينية يتخذ لقب بودستا بدلا من فيكونت (٥٢) .

ولقد استمر البودستا الجنوبي في منصبه حتى سقوط المملكة الصليبية في أواخر القرن الثالث عشر . واستبدال لقب القنصل بالبودستا لم يغير في حقيقة الامر من المهمات الملقاة على عاتقه وانما زادها تعقيدا واتساعا ، نتيجة ازدهار التجارة الجنوبية في المدن الصليبية في تلك الحقبة . فقد كان على القنصل والبودستا تنفيذ أوامر القومون الجنوبي وتعليماته التي ترسل اليهما بواسطة مندوبين رسميين . وكان يجب عليهما أيضا ارسال تقارير دورية ومنتظمة الى حكومتهما حول أحوال الرعايا الجنوبية ، التجار منهم والمستوطنين ، والقضايا السياسية والاقتصادية في المدن الصليبية كما كان بإمكان القناصل والبودستا توقيع المعاهدات وتصديق الاتفاقيات التجارية وإقامة التحالفات الدفاعية والهجومية بالنيابة عن القومون الجنوبي (٥٣) .

وكان أمرا أساسيا ، بالنسبة الى الاحياء التجارية الإيطالية في المدن الصليبية ، العمل على حماية نفسها من الاخطار والاضرار التي تنتج عن تقاضي رعاياها في محاكم أو بلاد أجنبية ، حيث اللغة والقوانين غير مألوفة لديهم أو بالاحرى غريبة عنهم ، ولهذا سعى الإيطاليون للحصول على امتيازات تمكنهم من التقاضي أمام محاكم خاصة بهم ، في معظم الظروف الممكنة (٥٤) .

ونجح الإيطاليون في الحصول على استقلال قضائي من الملوك والأمراء الصليبيين ، رغم أن هذا الاستقلال كان محدودا ، الا أنه كان انتصارا كبيرا للمستوطنين الإيطاليين في « الإمارات الصليبية » ودلينا على ذلك هو ما

(٥٢) انظر الفصل الرابع من الباب الثاني مما سبق .

(53) Byrne, ' Genoese colonise ' ; PP. 168 — 69 , 177 — 78 Hitti, op. cit., P. 620 .

(54) Smail, op. cit., PP. 40, 59, 75 .

ورد في المعاهدة التي كان قد وقعها البنادقة مع امراء بيت المقدس عام ١١٢٤ م ، حيث أوضح وليام الصوري (٥٥) — أثناء عرضه لبنود هذه المعاهدة — طبيعة الاستقلال القضائي الذي تمتع به البنادقة في المدن الصليبية ، والذي استمر حتى أواخر القرن الثالث عشر . وتضمنت المعاهدة أن المنازعات التي تنشأ بين البنادقة أنفسهم يجب أن يتم النظر فيها أمام محاكم بندقية خاصة بهم ومنهم ، كما يحق للبنادقة ممارسة سلطتهم القضائية على كل السكان غير البنادقة الذين يعيشون في أحيائهم وممتلكاتهم تماما كما يمارسون سلطتهم القضائية على أبناء جلدتهم . أما في حالة نشوب نزاع بين البنادقة وغيرهم ، فانه يجب أن يرفع الامر الى المحاكم التابعة لحكومة مملكة بيت المقدس لان المدعى عليه ليس من رعايا البندقية (٥٦) .

وتمتعت الجاليات الجنوبية والبيزاوية — في المدن والامارات الصليبية — باستقلال قضائي مماثل لما تمتع به البنادقة ، وفق الشروط نفسها ، سواء أكانوا مستوطنين أم تجارا مؤقتين (٥٧) .

واتفق معظم الباحثين على أن الامتيازات القضائية ، التي تمتع بها المستوطنون والتجار الإيطاليون في المدن الصليبية ، قد توسعت تدريجيا خلال القرن الثالث عشر ، بحيث شملت معظم الجنح البسيطة ، في حين أن جرائم القتل والاعتصاب والخيانة التي يرتكبها أحد أفراد الجاليات الإيطالية ، كان ينظر في أمرها أمام المحاكم الملكية La Court Roau كما أنه عندما يتسلم الإيطالي اقطاعا من أمير صليبي ، فانه يجب على الإيطالي التقاضي في شؤون هذا الاقطاع الممنوح له أمام المحكمة الملكية . كما اتفق معظم هؤلاء الباحثين على أن رئاسة المحاكم الخاصة بالإيطاليين ، والاشراف على الشؤون القضائية وأمور العدالة عامة في الجاليات الإيطالية ، كانت من المهمات الرئيسية للبايلو البندقي والقنصل البيزاوي ، والقنصل أو البودستا الجنوبي أو لنوابهم (٥٨) .

(٥٥) انظر : نص المعاهدة : William of Tyer, 1, P. 555 .

(56) Lamonte, The Feudal Monarchy , PP. 264 — 65 , 269 .

(57) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 178 — 79 .

Riley — Smith, Nobility., P. 109 .

(58) Tafel and Thomas, 111, PP. 150 — 59 ; Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 178 — 79 . Boase, PP. 35 — 36 ; mayer, The Crusades, P. 173 .

ورغم أن مدينة عكا كانت مركزا رئيسيا للجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية في المدن الصليبية - كما بينا - إلا أن الإيطاليين وجدوا بكثرة أيضا في معظم المدن الساحلية الأخرى التي يحتلها الصليبيون ، وذلك لأنهم منحوا في هذه المدن امتيازات مشابهة تماما للامتيازات التي حصلوا عليها في مدينة عكا . ولهذا فقد شكلوا فيها جاليات تجارية ، اختلفت في حجمها وفعاليتها التجارية وفقا لحجم المدينة ذاتها وأهميتها التجارية وظروفها السياسية .

ولعل أهم المدن التي وجد فيها الإيطاليون بكثرة هي :

انطاكية : استقر الإيطاليون في هذه المدينة في الأحياء التي خصصت لهم فيها ، وقد اشتملت على فنادق وكنايس ومستودعات فضلا عن بيوت سكنية ومحاكم خاصة بهم (٥٩) . وتركز النشاط التجاري للإيطاليين في هذه المدينة بنقل متاجر الشرق الأقصى التي تدفق عليها عبر حلب ، وكذلك بالمنتجات المحلية الزراعية منها والصناعية . ويبدو أن الجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية في انطاكية قد ازدهرت ازدهارا حقيقيا منذ أوائل القرن الثالث عشر . وربما يعود ذلك إلى أنه لم يحدث انقطاع في عملية استيطان الإيطاليين في هذه المدينة في أواخر القرن الثاني عشر كما حدث في معظم المدن الساحلية الصليبية - نتيجة فتوحات صلاح الدين الأيوبي لهذه المدن . ومن المعروف أن صلاح الدين لم يفتح مدينة انطاكية ، وبالتالي لم تتعرض أحياء الإيطاليين وجالياتهم فيها إلى الأزمة العنيفة التي واجهتها أحياءهم وجالياتهم في المدن الأخرى . يضاف إلى ذلك أنه من المحتمل أن عددا كبيرا من الإيطاليين غادروا المدن الصليبية التي فتحها صلاح الدين وانضموا إلى بني جلدتهم المستوطنين في مدينة أنطاكية . وربما هذا كله يفسر لنا ما رواه ابن عبد الظاهر عن ثراء انطاكية عندما فتحها الظاهر بيبرس (١٢٦٨ م) حيث قال أنه « لما فرغ الناس من نهب

- (59) Tafel and Thomas ; 1, docs. 46 , 55 , PP. 102 — 103 .
133 — 35 ; Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 141 — 42 ;
Lamonte, The Feudal monarchy, PP. 270 — 71 .

انطاكية رسم السلطان باحضر المكاسب للقسم . . وأحضر القبان لوزن الاموال والمصاغ والذهب والفضة ، وطال الوزن فقسمت النقود بالطاسات والشربات . . . ولم يزل السلطان راكبا فرسه إلى المغرب وما ترك شيئا حتى قسمه من الاموال والقماش والمصاغ . . (٦٠) » .

طرابلس : ومنح الإيطاليون امتيازات تجارية واقلية وقضائية في مدينة طرابلس . وسبق الإشارة إلى أن الاستيطان الحقيقي للجاليات الإيطالية في هذه المدينة قد بدأ عمليا في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وربما يعود ذلك إلى أن الامتيازات التي حصل عليها التجار الإيطاليون في هذه المدينة قد جاءت متأخرة نسبيا بالمقارنة مع الامتيازات التي تحققت لهم في المدن الصليبية الأخرى خلال القرن الثاني عشر . وتركز نشاط الجاليات الإيطالية في هذه المدينة في نقل المنتجات المحلية التي اشتهرت بها المدينة ، مثل الحرير والصناعات الزجاجية وقصب السكر ، وفي نقل متاجر الشرق الأقصى التي تدفقت على طرابلس عبر حلب وحمص وحماه إلى الغرب الأوربي (٦١) .

جبيل : رأينا فيما سبق أن أسرة امبرياتشو الجنوبية قد امتلكت هذه المدينة القريبة من بيروت ، وقامت بإدارتها بالنيابة عن القومون الجنوبي مقابل مبلغ سنوي . وفي عام ١١٨٧ م فتح صلاح الدين مدينة جبيل ، وخرب سورها (٦٢) وكان « صاحب جبيل بين الأسرى » ، ولكن سرعان ما تمكن آل امبرياتشو من استرداد المدينة (٥٩٣ هـ / ١١٩٣ م) (٦٣) وظلت هذه العائلة في إدارة جبيل واستثمارها (٦٤) حتى سقوط المملكة الصليبية عام ١٢٩١ م . ورغم أن جبيل كانت مركزا هامما للقومون الجنوبي (٦٥) ، ورغم أن الجنوبية كانوا معفيين من كافة الرسوم والضرائب

(٦٠) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، مخطوط : ص ١١٢٨ - ١١٢٩ .

(61) Burchard, P. 16. Ludolph, PP. 47 — 48 , Beazley , 11, P. 440 :: Boase, P. 38 .

(62) William of Tyre, Hist. of deeds, 1, PP. 476 — 78 .

(63) de Vitry , op. cit., 102 .

(64) Novar, op. cit., P. 95, Byrne, ' Genoese colonise ' , P. 154 .

(65) Mayer, The Crusades , P. 175 .

في المدينة (٦٦) ، إلا أن آل أمبرياتشو قد أصبحوا أفصلا تابعين لامراء طرابلس ، وارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع الصليبيين في المدن المجاورة مما أدى الى ذوبان هذه الاسرة الجنوبية في المحيط الصليبي (٦٧) .

بيروت : تشكلت جاليات ايطالية في هذه المدينة نتيجة الامتيازات التي منحت لهم من قبل الملوك والامراء الصليبيين ، كما بينا في بداية هذا الباب (٦٨) . وازدهرت هذه الجاليات التجارية ازدهارا ملموسا منذ اوائل القرن الثالث عشر (٦٩) ، وبشكل خاص في ظل آل ايلين (٧٠) . ولقد تركز النشاط التجاري للجاليات الايطالية في بيروت بتصدير المنتجات المحلية والمتاجر القادمة من الشرق الاقصى عبر دمشق (٧١) .

صور : كانت صور مدينة حصينة في المرتبة الثانية من حيث الاهمية — بعد مدينة عكا — بالنسبة الى التجار الايطاليين ، حتى أن ابن بطوطة يفضل ميناء صور على ميناء عكا لأن الأخير لا يحمل الا السفن الصغار (٧٢) ، كما أن ابن جبير يقول « انها أنظف من عكا سككا وشوارع ... واهلها الين وخلانهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح » (٧٣) .

وكثر البنادقة في صور ، منذ أوسط القرن الثاني عشر حتى أوسط القرن الثالث عشر ، حيث تدفقوا الى المناطق التي خصصت لهم داخل المدينة بموجب معاهدة عام ١١٢٤ م (٧٤) . كما أنهم امتلكوا بساكنين حول

(66) Lamonte, The Feudal monarchy, P. 267 .

(٦٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٦٨) انظر الفصل الاول من الباب الثالث مما سبق .

(69) Riley — Smith, Nobility, P. 66 .

(70) Lamonte, The Feudal monarchy, P. 265 .

(٧١) انظر : ابن سعد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٥٠ ، الاب اليسوعي : « بيروت

وتاريخها وآثارها » ، ص ٦٧١ .

(٧٢) ابن بطوطة ص ٦٢ .

(٧٣) ابن جبير ص ٢٥٠ .

(74) Fulcher, op. cit., P. 270 .

المدينة اشتهرت بزراعة الليمون والبرتقال (٧٥) . إلا أن الجالية البندقية في صور تعرضت الى أزمة عندما حرمهم فيليب مونتفرات من امتيازاتهم فيها ، نتيجة تحريض الجنوبية (٧٦) ، ولم يتمكن البنادقة من العودة الى المناطق التي خصصت لهم في المدينة الا في عام ١٢٧٧ م (٧٧) . ولعل أبرز نشاطات البنادقة في صور كانت سك عملة ذهبية ، فعندما سقطت صور بيد الصليبيين (١١٢٤ م) حصل البنادقة على حق سك العملة ، وأصدر هؤلاء عملات في صور تحمل نقوشا وعبارات عربية تمجد الله والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وتحمل التأريخ الهجري ، واسم الخليفة الأمر الفاطمي (١١٠١ — ١١٣٠) ، الذي صدرت في عهده . وحتى عهد فيليب مونتفرات لم يفقد البنادقة هذا الامتياز في سك العملة (٧٨) . ويعتقد فليمنج Fleming أن المصالح التجارية للبنادقة كانت تقتضي سك هذه العملات الذهبية لجذب تجار الشرق (٧٩) . ويعتقد كل من واطسون وماير أن الدنانير التي أصدرها البنادقة والصليبيون في الامارات الصليبية (٨٠) ، كانت تقليدا للدنانير الإسلامية (الفاطمية) الى أبعد الحدود . ولقيت الدنانير التي سكها البنادقة والصليبيون (٨١) رواجاً في المتاجرة مع المسلمين (٨٢) .

أما الجاليات التجارية الأخرى من الجنوبية والبيزاوية في مدينة صور فقد ازدادت أعدادها منذ عام ١١٨٧ م (٨٣) ، أي عندما حصل الجنوبية والبيزانة على كثير من الامتيازات التجارية ، نتيجة مساعدتهم لكونراد

(75) Lane, A maritime, P. 72 .

(76) Hodgson, Venice, P. 139 .

(٧٧) انظر ما سبق ، ص ١٥٢ .

(78) Watson, ' Back to Gold — and Silver ' P. 10.

(79) Fleming, Hist. of Tyre ; P. 160 .

(80) Watson, op. cit., P. 10 . mayer, The Crusades, P. 163 .

(٨١) انظر رأي واطسون حول العلاقة بين العملات الذهبية التي أصدرها البنادقة

والصليبيون في صور وعكا والنظم النقدية السائدة في البحر المتوسط .

Watson, op. cit., PP. 9 — 11 .

(82) Ibid., P. 10 ; Mayer , The crusades, P. 163 .

(83) Mayer, ' The Commune of Tyre ' , PP. 450 — 52 .

مونتفرات في الدفاع عن صور ضد صلاح الدين الايوبي . وكسب الجنوية موطيء قدم لهم في صور بعد عام ١١٨٧ م ولكن سرعان ما ازدهرت جاليتهم فيها ، واصبحت اكثر فعالية ونشاطا من بقية الجاليات الإيطالية (٨٤) ، وذلك نتيجة تحالفهم مع اصحاب صور منذ اواخر القرن الثاني عشر ، وحتى نهاية المملكة الصليبية الثانية .

كما اقام التجار الايطاليون مراكز تجارية لهم في بقية المدن الصليبية الساحلية . ولكن حجم هذه المراكز وفعاليتها التجارية تراوحت بالنسبة للمدينة وموقعها وثروتها فضلا عن التسهيلات الملاحية في مينائها . ولهذا فعلى الرغم من وجود التجار الايطاليين في العديد من المدن الساحلية الاخرى ، مثل اللاذقية ويافا وحيفا ، الا أنهم قاموا بدور اقل أهمية وفعالية مما كانت عليه جالياتهم في بقية المدن الصليبية التي أشرنا اليها .

الفصل الرابع

أنواع السلع والمبادر بين جمهوريات الإيطالية والمدن الصليبية بالشام في القرن الثالث عشر

لقد كان أمرا أساسيا بالنسبة الى الجمهوريات الإيطالية ، تنظيم رحلات أساطيلها التجارية ، من وإلى الموانئ الصليبية ببلاد الشام . واعتمدت هذه الرحلات في معظمها على النقل البحري ، وبالتالي على حركة الرياح في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وأشار ابن جبير الى ذلك بقوله « ان التجار لا ينزلون الى عكا بالبضائع الا في فصلي الربيع والخريف ، وذلك لان الرياح الشرقية لا تهب في تلك الجهات الا في هذين الفصلين » وأضاف هذا الرحالة قائلا : « والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الرياح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايو ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الرياح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وقد تكون خمسة عشر يوما أو اكثر أو اقل والرياح الغربية اكثر دواما (١) » .

واعتادت المدن التجارية الإيطالية ، خلال القرن الثالث عشر ، القيام برحلتين تجاريتين في كل سنة ، من الغرب الى « الشرق الصليبي » وبالعكس . وكانت الرحلة الاولى وهي رحلة الربيع تبدأ في شهر مارس من كل سنة ، في حين كانت تبدأ الرحلة الثانية ، وهي رحلة الخريف ، في شهر سبتمبر (٢) . ورغم أن هذه المواعيد كانت للرحلات التجارية ، الا أنها كانت متفقة أيضا مع موسم الحج الى الأماكن المقدسة من جهة ومع مواعيد انعقاد الاسواق والمعارض التجارية في المدن الصليبية من جهة أخرى (٣) .

(١) ابن جبير : رحلته ص ٢٥٦ .

(2) Mayer, The Crusades, P. 220 . Byrne, " Commercial Contracts ", PP. 131 — 33 , Riley — Smith, Nobility ' . , P. 67 ; Hodgson , P. 20 , Smail, P. 77 ; Boase, P. 38 ; Tolko- wesky, P. 124 .

(٣) انظر صبرة : ص ١١٧ — ١١٨

(84) Byrne, ' Genoese colonise ' , PP. 142 , 160 .

واكد ماير (٤) أن البندقية قد حددت يوم ٨ مايو كموعدها لعودة أسطولها التجاري من الأماكن المقدسة بالنسبة إلى رحلة الربيع ويوم ٨ أكتوبر كموعدها لعودة أسطولها التجاري بالنسبة إلى رحلة الخريف (٥) . ومن جهة ثانية فقد كانت الحكومة الجنوبية تكتفي ، أحيانا ، برحلة سنوية واحدة إلى « الشرق الصليبي » ، حيث كانت تبحر سفنها التجارية من جنوة إلى الشام في ٢٤ سبتمبر ، وبعد أن يقضي التجار الشتاء في المدن الصليبية تعود بهم هذه السفن إلى جنوة في شهر مايو أو يونيو (٦) .

وعلى الرغم من أن الرحلات التجارية إلى المدن الصليبية ، في القرن الثالث عشر ، قد أصبحت أكثر دقة وانتظاما مما كانت عليه في السابق ، إلا أنها كانت غير قادرة - في بعض الأحيان - على الالتزام بدقة في مواعيد وصولها وإقلاعها ، وذلك نتيجة تعرضها للعديد من الأخطار ، مثل الحروب في الغرب الأوربي (٧) ، أو القرصنة عبر البحر المتوسط ، أو الأحداث الداخلية في الجمهوريات الإيطالية ذاتها ، أو الكوارث الاقتصادية ، الناتجة عن الحرائق أو الأوبئة أو غير ذلك (٨) . ويضاف إلى ذلك كله أن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تتخذ الطريق المباشر - دائما - أثناء ذهابها أو إيابها من الموانئ الصليبية ، فسفن البندقية كانت تتوقف أثناء رحلتها إلى عكا في نيقروبول فترة وجيزة من الوقت (٩) ، كما أن سفن جنوة التي اعتادت التوجه مباشرة إلى عكا دون توقف في الطريق ، كانت تتوقف في طريق

(٤) Mayer, The Crusades, P. 220 .

(٥) سافر ابن جبير على ظهر مركب جنوي من عكا إلى صقلية في يوم ١٨ أكتوبر .

انظر : ابن جبير : رحلته ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٦) Byrne, ' Commercial contracts ' PP. 132 — 33 .

(٧) كانت الجمهوريات الإيطالية تضطر إلى إلغاء بعض رحلاتها إلى الشرق فمثلا عندما

قام ببربروسا بنشاطات عسكرية في لمبارديا عام ١١٥٥ م وعام ١١٥٩ م ، وعام ١١٦٢ م ، فقد تأثرت جنوة بهذه النشاطات وبالتالي فقد ألغت كل رحلاتها التجارية إلى الشرق في هذه السنوات . انظر :

Ibid., P. 132, n. 1 .

(٨) Smail, P. 77 ; Byrne, ' Commercial Contracts, PP. 131—32

(٩) Hodgson, op. cit., P. 120 .

عودتها في الاسكندرية أو صقلية (١٠) أو بجاية (١١) . كما أن بعض السفن التجارية الإيطالية كانت تقوم في بعض الأحيان برحلات تجارية ما بين المدن الصليبية والمدن البيزنطية أو المدن المصرية قبل عودتها إلى المدينة الأم (١٢) .

وادی ازدهار النشاط التجاري للمدن الإيطالية في « الشرق الصليبي » إلى التوسع في صناعة السفن التجارية وقدرتها على الحمولة . ففي القرن الثاني عشر كان معدل حمولة السفينة المتجهة من إيطاليا إلى المدن الصليبية حوالي ٥٠٠ / طنا ، في حين أصبحت الحمولة في القرن الثالث عشر حوالي (٦٠٠) طنا (١٣) . وهذا التطور قد لبى حاجات التجارة وأصبحت القوافل التجارية لا تضم مئات التجار والمستثمرين فحسب ، وإنما أيضا أعدادا هائلة من المواطنين الإيطاليين الذين استثمروا أموالهم في هذه الرحلات التجارية (١٤) .

واهتمت الجمهوريات الإيطالية اهتماما بالغا في حماية أساطيلها التجارية في رحلاتها إلى المدن الصليبية ، وتأمين سلامة سفنها وتجارها وبضائعها جميعا . فمن جهة كانت السفن التجارية تبحر تحت إشراف أو قيادة مندوب رسمي عن حكومة القومون (١٥) ومن جهة ثانية كان يرافق السفن التجارية مراكب حربية Galleys تصل أعدادها إلى أربعين مركبا أحيانا (١٦) ، لحمايتها من أخطار الملاحه ، وبشكل خاص من القرصنة . إلا أن أبرز أشكال الحماية التي حققتها الجمهوريات الإيطالية ، لرحلاتها التجارية إلى المدن الصليبية كانت حماية أرواح وممتلكات وبضائع تجارها في حالة تحطم أو غرق سفينة من سفنها التجارية قرب السواحل الصليبية . فقد كانت العادة في العصور الوسطى أن سلع وبضائع السفن التي تتحطم أو تفرق على ساحل ما تصبح ملكا للسيد أو الأمير صاحب الساحل ، وكان الأمر نفسه بالنسبة إلى مصير ممتلكات الأجانب الذين

(١٠) لقد توقف المركب الجنوي الذي سافر على ظهره ابن جبير من عكا ، في طريق

عودته ، في جزيرة صقلية ، انظر : ابن جبير ، ص ٢٦٢ .

(١١) Byrne, ' Commercial Contracts ' , PP. 132 — 33 .

Prawer, op. cit., P. 396.

(١٢) انظر أيضا ابن جبير ، ص ٢٨٢ ، أيضا :

(١٣) Boase, op. cit., P. 37 .

(١٤) Byrne, ' Geooese Colonise ' , PP. 160 — 61 ; Smail, P. 60

(١٥) Tolkowsky , op. cit., ; P. 124 .

(١٦) Byrne, ' Commercial Contracts ' , P. 131 .

يموتون في أي مجتمع اقطاعي غريب (١٧) . وتمكنت المدن الإيطالية - بموجب المعاهدات التي أبرمتها مع الملوك والأمراء الصليبيين - من تحقيق الحماية لتجارها ، في حالة تحطم سفنهم أو غرقها ، واستعادة السلع والبضائع التي يتم انتشالها (١٨) . كما استطاعت المدن الإيطالية أن تضمن حماية ممتلكات تجارها الذين يموتون في المدن الصليبية ويتضح ذلك مما أورده وليام الصوري ، اثناء عرضه لبنود معاهدة عام ١١٢٤ م ، بين البندقية وأمراء بيت المقدس ، حيث يقول « اذا تحطمت سفينة أحد البنادقة - قرب الموانئ الصليبية - فإنه يجب حماية ممتلكاته وتسليمها الى ورثته أو أبناء وطنه » كما يبين هذا المؤرخ أيضا أنه « في حالة وفاة أحد البنادقة المقيمين في المدن الصليبية ، فإن يجب وضع ممتلكاته تحت تصرف البنادقة سواء ترك وصية أو لم يترك » (١٩) . ولقد برهن سميث Riley — Smith على أنه اذا مات أحد البنادقة في المدن الصليبية أو غرق قرب سواحلها ، فيجب أن تسلم ممتلكاته لابناء وطنه المستوطنين في هذه المدن ، أما اذا تعذر وجود أحد من أبناء وطنه وقتذاك ، فإن هذه الممتلكات ، والحالة هذه ، يجب أن تحفظ ريثما يصل أمر أو رأي دوج البندقية في مصرها (٢٠) .

أما عن أهم أنواع المتاجر والسلع التي حملها التجار الإيطاليون الى الغرب الأوروبي في عصر الحروب الصليبية فأهمها المنسوجات والزجاج والسكر والشب وزيت الزيتون ، فضلا عن سلع ومتاجر الشرق الأقصى التي تصل الى بلاد الشام .

وكانت المنسوجات الحريرية في مقدمة صادرات الإيطاليين الى الغرب الأوروبي ، حيث ورثت أنطاكية وطرابلس - بصفة خاصة - إنتاج هذه المنسوجات من العصور القديمة والبيزنطية والإسلامية (٢١) . وطبقا لما قاله

(١٧) بحدثنا ابن جبير أن عددا من المسافرين ، الذين كانوا على المركب الجنوبي الذي أقلهم من عكا الى صقلية ، قد ماتوا أثناء الرحلة في البحر ، وقد ورث رئيس المركب ما كان بحوزتهم من ممتلكات وسلع ، وذلك « لأنها سنة عندهم في كل من يموت في البحر » . انظر: ابن جبير ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(18) Lamonte, Feudal monarchy , P. 236 .

(19) William of Tyre, Hist. of deeds, P. 555 .

(20) Riley — Smith, Nobility, P. 78 .

(21) Prawer, op. cit., P. 393 .

بركارد (٢٢) : Burchard - الذي زار الاماكن المقدسة في الشام في منتصف القرن الثالث عشر - فقد كان في طرابلس وحدها حوالي أربعة آلاف انسان يعملون في صناعة الحرير . كما أن الحرير الأبيض ، الذي كان يصنع في صور ، قد شكل مصدرا رئيسيا للحي البندقي الموجود في تلك المدينة (٢٣) . واكد جوتين Goitein أن الحرير كان مادة هامة جدا للتصدير من المدن الصليبية في الشرق ، وأن أوروبا قد شكلت سوقا رئيسيا مربحا للحرير الدمشقي الذي صدره التجار الإيطاليون من المدن الصليبية (٢٤) ، كما جلب هؤلاء أيضا الاقمشة والمنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية من المدن الصليبية ، حيث لعبت أسواق مدينتي عكا وبيروت دورا هاما في تصدير هذه المنسوجات (٢٥) ، فالملايس الكتانية النابلسية كانت لها سمعة عالمية (٢٦) ، كما أن منطقة الرملة قد اشتهرت بالصناعات الصوفية ، فضلا عن أن سهول عكا وطبرية كانت ذائعة الصيت في إنتاج القطن وتصديره (٢٧) .

أما عن الزجاج : لقد شاهد بنيامين التيطلي (٢٨) في انطاكية عشرة يهود يحترفون صناعة الزجاج ، كما أن المؤرخ الصليبي المعاصر دي فتري (٢٩) de Vitry قد أكد أن صناعة الزجاج النفى والصافي كانت قائمة في صور وعكا من قبل صناع مهرة وبارعين . واذا كان الزجاج السوري قد احتل المرتبة الاولى نتيجة نوعيته العالية ، فإن الصناعات الزجاجية ، في طرابلس وصيدا وعكا وانطاكية والخليل وطبرية ، كانت لا تقل أهمية من حيث كونها مادة للتصدير ، على يد التجار الإيطاليين ،

(22) Burchard, op. cit., P. 16 .

(23) Tafel and Thomas, 11, P. 329 .

(24) Goitein, ' The main industries ' , PP. 174 — 75 .

(25) Burchard, P. 100 ; Tafel and Thomas, 11, P. 233 .

(26) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, P. 353 .

(27) Prawer, PP. 393 — 400 .

(28) بنيامين : الرحلة ، ص ٨٧ .

(29) de Vitry, PP. 92 — 93 .

الى الغرب الاوربي (٣٠) . ويعتقد بعض الباحثين المحدثين (٣١) أن الصناعات الزجاجية في البندقية قد استمدت أصولها من الصناعات الزجاجية في بلاد الشام ، وبشكل خاص في مدينة صور التي كانت ذات شهرة واسعة في أوربة (٣٢) .

ويعتبر السكر من أهم صادرات الشرق الى الغرب الاوربي في عصر الحروب الصليبية وأشار المؤرخ دي فتري (٣٣) الى زراعة قصب السكر بوفرة في ضفاف نهر الاردن وأماكن عديدة أخرى في بلاد الشام . كما أكد المؤرخ بركار (٣٤) أن صيدا تعتبر من المدن التي اشتهرت بزراعة قصب السكر ، وقال أيضا أنه كان يزرع بكميات كبيرة في صور وتشكل دخلا سنويا كبيرا لصاحبها (٣٥) ، وأشار الى توفر قصب السكر أيضا في طرابلس (٣٦) . الا أن صور كانت في الحقبة الصليبية مركزا رئيسيا لتصنيع السكر (٣٧) . ولقد كشفت الدراسات الحديثة أن التجار الايطاليين قد قاموا بنقل السكر وقصب السكر الى الغرب الاوربي ، وكانت هذه السلعة ذات أهمية فائقة ، خاصة اذا علمنا أن معظم أوربا كانت قد اعتادت ، حتى الحقبة الصليبية على استخدام العسل وعصير الفواكه كمصادر رئيسية للحلى (٣٨) .

أما عن معدن الشب : فقد أكدت المصادر الصليبية المعاصرة توفر

- (30) Boase, P. 38 ; Fleming, PP. 94 — 95, Runciman, Hist. of crusades, 111, P. 354 ; Riley — Smith, Nobility, PP. 63 — 64.
- (31) Conder, PP. 333 — 34 ; Prawer, P. 394 ; Hayness , Glass, P. 59 .
- (32) Hayness, Glass ; PP. 59, 65, 70 — 71 .
- (33) de Vitry, PP. 27 — 28 , 30 .
- (34) Burchard, P. 14 .
- (35) Ibid., PP. 10 — 12 .
- (36) Ibid., P. 16 .
- (37) Fleming, P. 95 ; Thompson, 1, P. 405 .
- (38) Prawer, P. 364, Runciman, 111, P. 353 .

مادة الشب على شواطئ البحر الميت (٣٩) ، ورغم أن كمية هذه المادة وتنوعيتها أقل بكثير مما كان متوفرا في مصر والاراضي البيزنطية في نفس الحقبة ، الا أن التجار الايطاليين قاموا بتصديرها من الموانئ الصليبية الى الغرب الاوربي نظرا لأهمية هذه المادة في الصناعات الاوربية المعاصرة (٤٠) .

كما صدر التجار الايطاليون من المدن الصليبية أنواعا أخرى من المنتجات الزراعية والصناعية المحلية ، وبشكل خاص زيت الزيتون ، الذي كان يصدر الى أوربا الغربية (٤١) ، ويسمونه بالزيت الطيب ، حيث اشتهر الساحل الشامي والخليل والقدس ونابلس (٤٢) بزراعة الزيتون . كما أن البنادقة قد استثمروا بساكن الزيتون الواقعة حول صور . كما صدر الايطاليون الخمور أيضا ، وبشكل خاص من انطاكية واللاذقية (٤٣) . ويعتقد رنسيمان Runciman أن نسبة كبيرة من فواكه الشام قد تم تصديرها الى أوربا ، مثل عصير الرمان الذي كان يشاهد على موائد الاثرياء في ايطاليا (٤٤) . كما ان الايطاليين قد صدروا الى الغرب الاوربي عددا من الصناعات الشرقية التي تدفقت على الاسواق الصليبية ، مثل الاسلحة وصناعة الحفر والتكفيت في المعادن المجلوبة من دمشق ، فضلا عن الحلبي الذهبية والفضية (٤٥) . وكذلك الصناعات الفخارية ذات الاشكال والنقوش المختلفة . وكانت يافا قد اشتهرت بشكل خاص في هذه الصناعات (٤٦) . ويضاف على ذلك كله فقد جلب الايطاليون من الموانئ الصليبية النيلة من وادي الاردن (٤٧) ، والبلسم من أريحا وبيت المقدس

(39) Anonymous P. 39 ; Wurzburg, P. 60 ; Fetellus , P. 12 .

(40) Boase, P. 38 .

(41) Prawer, PP. 361, 395 .

(٤٢) يقول ابن بطوطة « ومدينة نابلس من اكثر بلاد الشام زيتونا » ابن بطوطة : رحلته ، ص ٦٠ .

(43) Smail, P. 78 ; Prawer, P. 395 .

(44) Runciman, Hist. of the crusades, 111, P. 353 .

(45) Pernoud, P. 192 ; Conder, PP. 333 — 34 .

(46) Tolkowsky, P. 125 .

(47) Prawer, P. 394 .

لاهميته في الطقوس الدينية (٤٨) ، فضلا عن القار (الزفت) أو القطران الذي كان متوفرا بكميات كبيرة على ضفاف البحر الميت (٤٩) . كما جلب التجار الايطاليون الصابون من انطاكية وطرابلس وعكا (٥٠) .

وتجدر الإشارة الى أن المنتجات المصرية الزراعية منها والصناعية ، قد تدفقت على أسواق المدن الصليبية ، بواسطة التجار المسلمين المصريين منهم والشاميين ، فضلا عن المغاربة ، كما أشار الى ذلك ابن جبير (٥١) وقام التجار الايطاليون بتصدير هذه المنتجات المصرية من الموانئ الصليبية الى الغرب الاوربي ، وفي مقدمتها الشب والنطرون والبلسم فضلا عن قصب السكر والكتان (٥٢) .

لقد قام التجار الايطاليون بتصدير المواد والسلع التي تنتجها المدن الصليبية دون وساطة أحد (٥٣) . ولكن نتيجة الطلب المتزايد على سلع الشرق الأقصى في الغرب الاوربي ، فان جزءا رئيسيا من النشاط التجاري للايطاليين ، في المدن والامارات الصليبية ، قد تركز في تصدير هذه السلع . ولهذا كان لا بد للتجار الايطاليين من الاعتماد على تجار آخرين ، يلعبون دور الوسطاء ، في نقل السلع وجلبها من الشرق الأقصى الى المدن والموانئ الصليبية في الشام . ولما كان جزء كبير من متاجر الشرق الأقصى قد وصل الى الاسواق الصليبية عن طريق الخليج العربي (٥٤) ، وعن طريق البحر الاحمر (٥٥) فقد لعب التجار المسلمون - الشاميون منهم والمصريون - فضلا

(48) Ibid., 394 ; Runciman, 111, P. 354

(49) Anonymous, P. 39 ; Wurzburg, P. 60 .

(50) Tolkowsky, P. 124 ; Thompson, 1, P. 405

(٥١) ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(52) Riley — Smith, Nobility , P. 63 .

(53) Beazley , 111, P. 440 .

(٥٤) لقد انتقلت سلع الشرق الأقصى من الخليج العربي الى بغداد ومنها الى ميناء انطاكية أو اللاذقية عبر مدينة حلب ، أو الى ميناء طرطوس واللاذقية عبر مدينة حمص ، أو الى ميناء عكا أو طرابلس أو بيروت عبر مدينة دمشق أو حمص أو حماه . انظر : زكي (نعيم) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١١٨ - انظر أيضا : Smail, PP. 57 — 58 ; Boulonis, P. 200 .

(٥٥) انظر الطرق الموصلة بين مصر والشام الى الشرق الأقصى عند القلشندي : صبح

الاعشي ج ٥ ص ٨٦ - ٨٧ .

عن التجار المسيحيين الشرقيين ، دورا أساسيا في نقل هذه السلع الى التجار الايطاليين المقيمين في الموانئ الصليبية ، أو المترددين عليها ، والذين قاموا بدورهم بتصديرها الى موانئ الغرب الاوربي (٥٦) . فقد أشارت المصادر المعاصرة الى قيام علاقات واسعة بين التجار المسلمين والتجار الايطاليين ، دون الاهتمام بالعوامل الدينية . فقال ابن جبير : « واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض » . وأضاف أن « من أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيلهم يدخل الى بلاد المسلمين (٥٧) » . كما أكد بركارد Burchard ولادولف Ludolph العلاقات الطيبة التي قامت بين التجار المسلمين والتجار المسيحيين في المدن الصليبية ، (وأن عكا كانت تزخر دائما بالتجار والحجاج المسلمين) (٥٨) .

ولعل أهم متاجر الشرق الأقصى التي وصلت الى المدن الصليبية ، والتي نقلها التجار الايطاليون الى أوروبا الغربية كانت : التوابل الهندية بأنواعها ، مثل القرفة والفلفل والزنجبيل والهيل وجوز الطيب . وكذلك الحرير والخزف من الصين (٥٩) ، والاحجار الكريمة ، مثل اللؤلؤ والياقوت والماس ، من جزيرة سيلان والسجاجيد من فارس وآسيا الصغرى . والنيلة والموسلين من العراق (٦٠) . وكشف جوتين Goitein أن إيران كانت مصدرا رئيسيا للحرير التبريزي (٦١) وإضافة الى ذلك فقد نقل الصليبيون الى الغرب الاوربي الفراء الذي يصل الى الاسواق الصليبية

(56) Conder, op. cit., PP. 331 — 32 .

(٥٧) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٥ .

(58) Burchard, P. 103 ; Ludolph , P. 55 .

(٥٩) انظر ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٧٦ . أيضا :

Pernoud, P. 192 ; Boase, P. 38 , Smail, P. 58 .

(٦٠) ابن سعيد : ص ١٥٧ . أيضا :

Riley — Smith, P. 63 ;

Pernoud, P. 192 ; Conder, P. 335

(61) Goitein , ' The Main industries ' , P. 176 .

وتجدر الإشارة الى أن نشاط التجار الإيطاليين في نقل سلع الشرق الأقصى من الموانئ الصليبية الى الغرب الأوربي قد تعرض الى عدة أزمات؛ خلال القرن الثالث عشر ، أدت الى تقلص هذا النشاط واضطرابه . وذلك لأن هذه التجارة اعتمدت اعتمادا كبيرا على الظروف السياسية التي سادت بلاد الشام والشرق الأقصى . فعندما بدأت الحروب الصليبية تدفقت معظم المتاجر الشرقية عن طريق البحر الأحمر ، نتيجة ثروة المدن المصرية من جهة والأمن الذي حققه الفاطميون على امتداد هذا الطريق من جهة ثانية . وبالتالي فقد انحطت أهمية طريق الخليج العربي - بغداد - الموانئ الصليبية (٦٣) كما أن الفتوحات المغولية في الشرق الأقصى ، خلال القرن الثالث عشر ، قد أدت الى تمزق طرق التجارة المتجهة من الشام الى الشرق الأقصى . إضافة الى أن اكتساح المغول لمدينة بغداد وحلب والمدن الشامية الأخرى في أواسط القرن الثالث عشر ، والحروب التي دارت رحاها في الشام بين المغول والمماليك ، قد أدى ذلك كله الى اضطراب نشاط التجار الإيطاليين في نقل سلع ومتاجر الشرق الأقصى من المدن والموانئ الصليبية (٦٤) .

أما بالنسبة الى المتاجر التي قام التجار الإيطاليون بجلبها الى المدن والإمارات الصليبية ، فقد كانت اما للاستهلاك المحلي داخل المدن الصليبية أو للتصدير ثانية الى أسواق الشام ومصر ، عن طريق التجار المسلمين والمسيحيين الشرقيين ، الذين ازدحموا كما أشرنا سابقا ، في الأسواق والموانئ الصليبية . أو عن طريق التجار الإيطاليين أنفسهم الذين تمكنوا من التغلغل ، خلال القرن الثالث عشر ، الى المدن الشامية الداخلية (٦٥) . ولعل أهم هذه السلع والمتاجر كانت الأخشاب . حيث جلب الإيطاليون الأخشاب الى عكا ومنها انتقلت الى المدن الإسلامية (٦٦) وكذلك الأسلحة

(62) Conder, 332 .

(63) Runciman, Hist. of the crusades, 111, P. 354 .

(64) Riley — Smith, Nobility., P. 109 .

(65) Baker, med. Routes, P. 15 .

(66) Riley — Smith, Nobility, P. 64 .

مثل الخوذ (٦٧) والسيوف على الرغم من اشتهار السيوف الدمشقية (٦٨) . وكذلك الرقيق (٦٩) ، حيث كانت صور سوقا رئيسيا لتجارة الرقيق (٧٠) . كما كانت عكا سوقا هاما لبيع المماليك ، سواء الذين تم أسرهم في الحملات العسكرية أو الذين كان يجلبهم الإيطاليون من منطقة البحر الأسود واليونان وبلغاريا وروسيا (٧١) . وكانت الأقمشة بأنواعها المختلفة ، الصوفية منها والكتانية ، من المواد الرئيسية التي جلبها التجار الإيطاليون من الغرب الأوربي الى المدن الصليبية . فلقد كشف بيرن Byrne عن الدور الكبير الذي لعبته عائلة امبرياتشو الجنوية في تصدير الأقمشة والثياب من أوروبا الغربية الى المدن الصليبية ، اعتمادا على الرسائل والتعليمات التي كان يعيها كبار تجار هذه العائلة الى مندوبيهم في عكا (٧٢) . كما بين براور Prawer الدور الذي لعبه الإيطاليون في تصدير الأقمشة الإيطالية والمنسوجات الفرنسية الى المدن الصليبية (٧٣) . وجلب الإيطاليون الذهب والفراء والجلود والمخمل والخيول الى الأسواق الصليبية ، إضافة الى بعض المواد الكمالية مثل العطور ومواد الزينة والتجميل والمساحيق ، وكذلك العصفور والمصطكي (٧٤) . وتجدر الإشارة الى أن عكا كانت مركزا استهلاكيا كبيرا للعديد من المواد الغذائية التي جلبها الإيطاليون مثل الخمور (٧٥) من إيطاليا والقمح من صقلية إضافة الى السمك المملح واللحوم الطازجة والملحة من مصر (٧٦) .

(67) Byrne, ' Genoese trade ' , 217 — 18 .

(68) Prawer, op. cit., P. 400 .

(69) Byrne, ' Genoese Colonise ' , P. 161 .

(70) Fleming, op. cit., PP. 113 — 14 .

(71) Riley — Smith, Nobility, PP. 62 — 63 .

(72) Byrne, ' Genoese colonise ' , P. 158 ; Idem ; ' Genoese trade ' , P. 217 .

(73) Prawer, P. 100 .

(74) Byrne, ' Genoese trade ' , PP. 217 — 218 ; Boulonis, PP. 200 — 201 ; Thompson , 1, P. 405 .

(75) Canon, PP. 155 — 56 .

(76) Riley — Smith ; Nobility , P. 64 .

ويرتبط بموضوع المتاجر الواردة والصادرة ، مسألة أخرى على جانب من الأهمية وهي مسألة الضرائب والمكوس الجمركية التي كان يتوجب على التجار الإيطاليين دفعها في الموانئ والأسواق الصليبية . وفي الواقع ليس هناك وضوحا كاملا بالنسبة الى هذه المسألة بل انها كانت موضع نزاع مستمر بين التجار الإيطاليين والأمراء الصليبيين ، فعلى الرغم من أن الأمراء والملوك الصليبيين قد استمروا في تخفيض الضرائب والمكوس التي يتوجب على الإيطاليين دفعها ، إلا أن الأمر كان في مدى تنفيذ هذه الامتيازات والوعود ، فما كانت تنص عليه المعاهدات شيء والتنفيذ شيء آخر (٧٧) . وعلى أية حال سنحاول رسم صورة للضرائب والمكوس الجمركية التي دفعها تجار المدن الإيطالية في الموانئ والأسواق الصليبية ، خلال القرن الثالث عشر .

عندما كانت تصل أية سفينة تجارية الى ميناء عكا الصليبي ، كان يتم اعلان عن وصولها بواسطة قرع الاجراس ، ثم ينطلق قارب صغير مهمته ارشادها الى المرسى المخصص لها ، أو ربما تقوم مجموعة من القوارب الصغيرة بنقل البضائع من السفينة الى الشاطئ ، ثم تجري أربع عمليات رئيسية للمتاجر : الانزال والتسجيل والتخزين والبيع (٧٨) . ولهذا نجد أن المكوس والضرائب قد تعددت وفق هذه المراحل تقريبا حيث فرض الأمراء الصليبيون على التجار الإيطاليين ضريبة الرسوم وضريبة الميناء ، وضريبة السوق (البيع والشراء) وضريبة المغادرة (الاقلاع) (٧٩) . وكانت نسبة هذه الضرائب تختلف من ميناء صليبي الى ميناء آخر ، بل أن السلعة الواحدة ذاتها كانت تختلف الضرائب والرسوم الجمركية المتوجبة عليها من ميناء الى آخر .

ولا حظنا - أثناء دراستنا للامتيازات التجارية التي منحها الملوك والأمراء الصليبيون للجمهوريات الإيطالية - أنها قد تضمنت اعفاءات مختلفة من الرسوم والضرائب في المدن والموانئ الصليبية . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحسم فيما إذا تم تنفيذ كل ما انطوت عليه هذه الامتيازات من اعفاءات جمركية ، لكنه يمكننا القول بأن ما دفعه التجار

(77) Byrne ; ' Genoese trade ' , P. 195 .

(78) Riley — Smith , Nobility., P. 72 .

(79) Ibid., P. 70 .

الإيطاليون في المدن والموانئ الصليبية كان أقل بكثير مما كان يدفعه التجار الفرنجة أنفسهم أو التجار الأجانب الذين لا ينتمون الى قومون إيطالي معين .

ومن الصعوبة بمكان أن نحدد نسبة الرسوم الجمركية التي كان يدفعها التجار الإيطاليون عمليا ، في الموانئ والأسواق الصليبية ، وذلك لأن المصادر المعاصرة لا تشير الى ذلك . فبعضها اكتفى بالقول « أنه تم اعفاء الإيطاليين جميعا من كل أنواع الضرائب والرسوم الجمركية » (٨٠) . وبعضها الآخر قد أشار الى المدينة التي تم اعفاء الإيطاليين فيها دون أي ذكر الى نسبة الاعفاء أو الرسوم (٨١) . كما أن النصوص التي نشرها المؤرخان تافيل وتوماس ، لا تشير بدقة في معظم الأحيان - الى نسبة الرسوم الجمركية ، التي دفعها أو أعفى منها التجار الإيطاليون . ولكن الدراسات الحديثة ، المعنية بالتاريخ الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وصلت الى صورة تقريبية حول هذه المسألة . فأكد ماير Mayer أن هذه الرسوم كانت تتراوح ما بين ١٦٪ / ١٢٪ / ١١٪ من قيمة السلع الشرقية التي كان يجلبها التجار الإيطاليون الى الموانئ الصليبية والتي سيعاد تصديرها ثانية . أما بالنسبة الى السلع التي كان يجلبها التجار الإيطاليون الى المدن الصليبية بهدف الاستهلاك المحلي فكانت الرسوم المقررة عليها باهظة ، بحيث وصلت أحيانا الى ١٥٪ من قيمة السلعة (٨٢) . ومن المؤكد أن التجار الإيطاليين قد دفعوا الحدود الدنيا ، في معظم الأحيان ، من هذه الرسوم نتيجة الامتيازات التي أشرنا اليها . فالبنادقة - كما أشارت نصوص تافيل وتوماس - قد دفعوا رسوما جمركية ، خلال القرن الثالث عشر ، في انطاكية ، تتراوح ما بين ٤٪ الى ٥٪ على بعض السلع ، مثل الكتان والاقمشة الحريرية ، ورسوما تتراوح ما بين ٥٪ الى ٧٪ على بعض السلع الأخرى (٨٣) . كما دفع البنادقة في عكا - خلال القرن الثالث عشر - رسوما قدرها ٣/٩١٪ من قيمة المتاجر المستوردة من دمشق وغيرها من المدن الإسلامية . أما إذا كانت هذه

(80) Anonymous , P. 29 .

(81) William of Tyre ; 1, P. 554 .

(82) Mayer, op. cit., P. 163 .

(83) Tafel and Thomas, 1, PP. 133 — 35 .

التاجر في حالة « ترانسيت » - عبر عكا - الى البندقية كانت الرسوم حوالي ٦/٤١ ٪ من قيمتها في حين اذا كانت في حالة « ترانسيت » معاكسة ، أي من البندقية الى المدن الاسلامية - عبر ميناء عكا - فالرسوم حوالي ٥ ٪ من قيمتها (٨٤) .

ويرتبط بمسألة الرسوم والضرائب ، مسألة الموازين والمكاييل والمقاييس التي استخدمها التجار الايطاليون في الموانئ والاسواق الصليبية . فلما كانت هذه المعايير التجارية متنوعة ومختلفة من مدينة صليبية الى مدينة اخرى ، فقد رغب الايطاليون في استخدام معاييرهم الخاصة . وكان البنادقة اول من تمتع بهذا الامتياز . حيث نصت معاهدة عام ١١٢٤ م ، التي وقعها البنادقة مع الصليبيين ، على حق البنادقة في استخدام مقاييسهم وموازينهم وفقا للشروط التي أشرنا اليها فيما سبق (٨٥) . ويبدو أن الجنوية والبيازنة قد حصلوا بدورهم على حق استخدام معاييرهم التجارية الخاصة ، فيما بينهم وعندما كانوا يبيعون متاجر الآخرين (٨٦) ، إلا أن سمث Riley — Smith يبدى تحفظا إزاء الجنوية بصفة خاصة ، حيث يرى أن الجنوية لم يتمتعوا بحق استخدام مقاييسهم وموازينهم الخاصة في عكا - كما هو حال البنادقة والبيازنة - وانما استخدموا المعايير الملكية ، كما كشف أن الجنوية في صور استخدموا مقاييس وموازين صاحب صور منذ عام ١٢٦٤ م (٨٧) .

وهكذا فقد نظرت الجمهوريات التجارية الإيطالية الى الحركة الصليبية على أنها مشروع تجاري . وحصلت هذه المدن على امتيازات تجارية واقليمية وقضائية في المدن والموانئ الصليبية . وأفاد التجار الايطاليون من ثروات بلاد الشام ، وضاعفوا دورهم في التبادل التجاري بين الشرق والغرب . وشكل النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية ،

(84) Ibid., 11, PP. 387 — 88 .

(٨٥) انظر الفصل الاول من هذا الباب

(86) Prawer, op. cit., PP. 411 — 12 .

(87) Riley — Smith, Nobility, PP. 71 — 72 ; Idem, ' Government ' , P. 119 .

فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في العصور الوسطى .

واذا كانت المنافسات التي قامت بين الجمهوريات الإيطالية ، للسيطرة على تجارة المدن والموانئ الصليبية ، تعتبر عاملا هاما في انحلال الدويلات الصليبية وسقوطها ، فإن « الفضل » الاول في قيام هذه الدويلات واستمرارها حتى أواخر القرن الثالث عشر يعود الى المدن التجارية الإيطالية . فبدون مساعدة الايطاليين كان احتلال المدن الساحلية أمرا صعبا ، ولولا الاساطيل الإيطالية لكان بقاء مملكة بيت المقدس أمرا مستحيلا ، ولولا النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في المدن والامارات الصليبية لكانت قصة الصليبيين في الشرق أكثر قصرا وأقل أهمية .

البَابُ الرَّابِعُ

النشاط التجاري في جمهورية مصر العربية مع القوى الاقتصادية
في مصر والسودان خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

الفصل الأول

تطور العلاقات التجارية بين الجمهورية الإيطالية ومصر والسام

لعبت مصر والشام دورا هاما في تاريخ تطور المدن الإيطالية التجارية ومستقبلها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وذلك أن مصر امتلكت عوامل جذب للتجار الإيطاليين ، فموقعها جعلها حلقة وصل بين الشرق والغرب ، وسوقا هاما للتبادل التجاري بين أفريقية وآسيا وبلاد البحر المتوسط (١) . وقبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، في أواخر القرن الخامس عشر ، كان طريق البحر الأحمر (٢) أهم الطرق التجارية التي تدفقت من خلاله سلع ومتاجر اليمن والشرق الأقصى الى موانئ الغرب الأوربي (٣) . وحتى أواخر القرن الثالث عشر تقريبا فان الغرب الأوربي لم يكن يعرف شيئا عن التوابل الهندية والحرير الصيني سوى أنها تأتي عن طريق نهر النيل والبحر المتوسط ، أما فيما يتعلق بالبلدان المنتجة لهذه السلع فقد كانت مجهولة بالنسبة له (٤) فضلا عن ذلك كله فقد اتصلت مصر ، عن طريق البحر المتوسط بأقصى بلدان الغرب الأوربي مثل الفلاندرز وإنجلترا والدول الاسكندنافية (٥) وأصبحت بذلك مجمعا لتجار الصين والهند واليمن وأوربا .

ولم تقتصر أهمية مصر ، بالنسبة الى المدن الإيطالية ، على موقعها

(١) ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ص ٢٤ .

(٢) عن الطريق التي سلكتها متاجر الشرق الأقصى من اليمن الى الموانئ المصرية عبر البحر الأحمر .

انظر : عاشور : العصر المملوكي ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، سرور : دولة بني قلاوون

في مصر ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) Ludolph von Suchem , Description of the Holy land., P. 84 .

(٤) Heyd, op. cit., 1, P. 383 .

(٥) Beazley, op. cit., 11, PP. 458 — 59 .

في حركة التجارة الدولية أو كونها محطة رئيسية لسلع ومتاجر الشرق الأقصى ، وإنما امتدت هذه الأهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها . وذلك لأن مصر كانت مصدرا رئيسيا لعدد من السلع ذات الأهمية البالغة بالنسبة إلى المدن الإيطالية والغرب الأوربي بصفة عامة ، مثل الشب والسكر والنظرون والبلسم وغيرها (٦) .

وإذا كانت المدن الإيطالية قد انجذبت إلى مصر للحصول على السلع الشرقية والمصرية ، فإن موانئ مصر ومدنها كانت تشكل ، منذ القرن العاشر ، سوقا رئيسيا لتصريف العديد من السلع والمتاجر التي نقلها التجار الإيطاليون من الغرب الأوربي إلى الموانئ المصرية مثل الخشب والحديد والقار والرقيق (٧) . وبذلك فقد كان وليام الصوري على حق في قوله أن الإسكندرية « سوق العالمين » (٨) .

ولم تكن الشام أقل أهمية عن مصر بالنسبة إلى النشاط التجاري للمدن الإيطالية التجارية ومستقبلها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فقد تدفقت متاجر الشرق الأقصى إلى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ومصر (٩) . وشكلت المدن الداخلية الشامية ، مثل دمشق وحلب ، محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط (١٠) . فضلا عن ذلك فإن منتجات الشام كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة إلى التجار الإيطاليين ، وبصفة خاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع والمتاجر (١١) . وبذلك تحولت الموانئ الشامية إلى أسواق هامة لا بالنسبة إلى متاجر الشرق الأقصى فحسب

(6) Lane, Amaritime., P. 72 .

(7) Niccolo, op. cit., P. 91

(8) William of Tyre , Hist. of deeds, 11, P. 336 .

(9) Beazley , op. cit., 11, PP. 442 — 43 .

(10) Thompson, op. cit., 1, P. 404 .

(11) Lane, Amaritime., P. 286 .

وأنما بالنسبة إلى المنتجات الشامية والمصرية أيضا (١٢) .

ونتيجة لهذه الأهمية الاقتصادية والتجارية الكبرى لمصر والشام ، فقد حرصت المدن الإيطالية أشد الحرص على إقامة أوثق العلاقات التجارية وأوطدها مع حكام هذين البلدين . وكان أمراً طبيعياً ألا تقوم العلاقات التجارية ما لم تكن هناك مصالح واضحة للطرفين معا ، ولهذا لم تكن رغبة حكام مصر والشام لتقل عن رغبة الإيطاليين في قيام هذه العلاقات التجارية وتطورها . وعندما كانت تنقطع التجارة بينهما ، نتيجة ظروف سياسية أو عسكرية ، فإن الأضرار الاقتصادية التي تلحق بمصر والشام لم تكن لتقل عن الأضرار والخسائر التي تلحق بالمدن الإيطالية (١٣) .

وتعتبر البندقية في مقدمة المدن الإيطالية ، التي أقامت علاقات تجارية مع مصر والشام ، فمنذ القرن التاسع حملت البندقية إلى الموانئ المصرية والشامية بعض المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بها مثل الأخشاب والحديد (١٤) . وفي القرن العاشر أقامت البندقية علاقات ودية مع الفاطميين في مصر والشام ونقلت إلى المسلمين الخشب اللازم لبناء السفن . ولما تعرضت البندقية لتهديدات الإمبراطور البيزنطي حنا زيمسكيس بالانتقام منها إذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الإسلامية بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن ، أصدرت البندقية أمراً بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بامدادها بأنواع أخرى من الخشب لا تصلح لإنشاء السفن (١٥) .

ألا أن البندقية رأت ألا تضحي بمصالحها الاقتصادية في سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، فأرسل دوج البندقية بطرس أورسيلو Pietro Orseolo ، بعثات إلى مصر عام ٩٩٢ م ، تمكنت من الحصول على امتيازات تجارية لتجار البندقية وسفنها في الموانئ المصرية وبالتالي من استئناف نشاطها التجاري مع المسلمين في مصر والشام (١٦) .

(12) Beazley, op. cit., 11, P. 446 ; Heyd, op. cit., 1, P. 384 .

(13) Runciman, A Hist. of the crusades, 111, P. 356 .

(14) Baker, med. trade routes, P. 8 ; Beazley, op. cit., 11, P. 404 .

(١٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، الترجمة العربية ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(16) Beazley, op. cit., 11, P. 404 .

وخلال القرن الحادي عشر الميلادي ، تمكنت البندقية من كسب موطيء قدم لها في أسواق الاسكندرية وانطاكية وطرابلس الشام ، وقامت سفنها برحلات تجارية منظمة ما بين البندقية وانطاكية والقسطنطينية (١٧) وذلك نتيجة سياسة التسامح التي تبناها الخلفاء الفاطميون بعد وفاة الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١ م) (١٨) . ويلاحظ أن هذه التجارة المربحة التي تحققت للبندقية في مصر والشام ، وقتذاك ، تفسر لنا الأسباب التي جعلت البندقية تترئث في تقديم المساعدة للصليبيين عند قدومهم في الحملة الصليبية الاولى (١٩) .

واستمرت السفن التجارية التابعة للبندقية ، خلال القرن الثاني عشر ، تقوم برحلاتها التجارية ما بين الاسكندرية وعكا وصور والقسطنطينية . وحملت الى مصر الرقيق والحديد والاششاب . ونقلت من الموانئ المصرية التوابل الهندية والحريير الصيني والمنتجات المصرية وذلك على الرغم من الحروب بين المسلمين والصليبيين (٢٠) . فابن جبير الذي زار ، مصر والشام في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٧١ - ١١٩٣ م) ، قد أشار الى هذه الحقيقة بقوله : « وما أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسببهم يدخل الى بلاد المسلمين » (٢١) .

وفي الربع الاخير من القرن الثاني عشر لعبت البندقية دورا مزدوجا في علاقتها مع الصليبيين والمسلمين ، فمن جهة كانت تمد يد العون للصليبيين لمواجهة صلاح الدين الايوبي ، وذلك حرصا على امتيازاتها التجارية في المدن الصليبية ، ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والمتاجر ، وبخاصة الاسلحة وأدوات القتال ، الى المسلمين في مصر والشام . ولقد أشار الى ذلك القاضي الفاضل في الرسالة التي كتبها عن السلطان

- (17) Bautier, op. cit., P. 99 .
(18) Stillman ; ' The merchant . ' ; PP. 15 — 16 .
(19) Fleming, op. cit., P. 93 .
(20) Bautier, op. cit., P. 101 ; Thompson ; op. cit., 1, PP. 320—321 ; Ashtor ; E., Asocial and Economic, P. 196 .

(٢١) ابن جبير ، رحلته ، ص ٢٤٥ .

صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد عام (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) ، والتي ورد فيها « ومن هؤلاء : البنادقة البياشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجزون سفارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ونقص عنهم يد الاحكام المرهوبة . وما منهم الآن الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب اليها باهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواقفة ، وانتظمت معه المسألة ، على ما نريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون » (٢٢) . وربما هذا كله يفسر لنا السياسة السمحة ، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الجالية البندقية في عكا عندما افتتحها عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م (٢٣) .

واحتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الايوبي الملك العادل (١١٩٩ - ١٢١٨ م) وانعكس ذلك على نشاطها التجاري في مصر ، خاصة وان الملك العادل كان يرغب في تعزيز العلاقات التجارية بين مصر والبندقية ، فاحدى وثائق الجيزة ، التي تعود الى عام ١٢٠٠ م ، تؤكد استمرار نقل البنادقة ، في سفنهم التجارية ، للأسلحة والاششاب الى الموانئ المصرية (٢٤) . كما أنه من المعروف أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل أقدم معاهدة تجارية وصلت اليها ، مع مصر ، وذلك عام ١٢٠٨ م (٢٥) على يد السفيرين مارينو داندولو Marino Dandolo وبطرس ميخائيل Pietro Michiet واشتملت المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانئ المصرية ، وعلى تعهد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة . كما منحت المعاهدة البنادقة فندقا ثانيا لهم في الاسكندرية ، اضافة الى الفندق الذي كانوا يملكونه في هذه المدينة نفسها . ومن ناحية أخرى انطوت المعاهدة على تعهد البنادقة ألا يقدموا أية مساعدة لاي مشروع صليبي ضد مصر (٢٦) ، ووعدوا بالعمل على كبح جماح الصليبيين ومنعهم من التوجه

(٢٢) انظر النص الاصل للرسالة : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨١-٩٠ . انظر أيضا : ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

(٢٣) عفاف صبرة : ص ٣٢ .

(24) Goitein, A mediterranean Society, vol. 1, P. 301 .

(25) Heyd, op. cit., 1, PP. 403 — 404 .

(٢٦) يرى بعض الباحثين أن الملك العادل قد كافأ البندقية بهذه المعاهدة على الجهود التي بذلتها في تحويل الحملة الصليبية الرابعة من مصر الى القسطنطينية . انظر : Labib. s., Handels. P. 30 ; Heyd, 1, P. 401 .

وأرسلت البندقية ، عام ١٢٠٧ - ١٢٠٨ م ، سفيرا من قبلها الى حلب ، يدعى مارينياني Mariniani حيث أبرم هذا السفير معاهدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك وهو الامير غياث الدين غازي بن صلاح الدين (٢٨) . وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة ، وتحددت فيها الرسوم التي يتوجب على التجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢٪ ، كما تعهد الامير الايوبي بتقديم كافة المساعدات الى التجار البنادقة في مدينته (٢٩) .

ويلاحظ الباحث أن نشاطا غير عادي للبنادقة - في هذه الفترة - مع المسلمين في مصر والشام . ويبدو أن تفسير هذا النشاط يرتبط بأحوال البنادقة في بيزنطة عامة والقسطنطينية بخاصة ، فقد لاحظنا في الباب الثاني من هذا البحث أنه كان هناك محاولة - في هذه الفترة بالذات - لتقويض نفوذ اللاتين والتجار الايطاليين في القسطنطينية وذلك من قبل اباطرة نيقية . ولهذا ربما شعرت البندقية بأن نفوذها ومصالحها التجارية مهددة في القسطنطينية وبالتالي كان عليها ان تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر ولهذا قامت باتصالاتها ، الأنفة الذكر مع حلب والقاهرة .

وكان أن أخذ التجار البنادقة يتدفقون الى الموانئ المصرية ، على أثر توقيع معاهدة عام ١٢٠٨ م ، بين البندقية والملك العادل حتى أن الايوبيين أخذوا يشعرون بالقلق ازاء التزايد المستمر للتجار البنادقة في الاسكندرية ، والدليل على ذلك ما رواه الحنبلي من أنه في عام ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م « توجه العادل الى الاسكندرية ، لأنه اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاثة آلاف رجل وملكان من ملوكهم ، وعزموا أن يثوروا بأهل الاسكندرية فأمسك

(٢٧) انظر :

Mas La trie , Traite des Paix et de commerce, PP. 70 — 72

أيضا : عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٣٢ - ٩٣٣ ، مضاف صبرة : ص ٨٤ .

(28) Tafel and Thomas, 11, PP. 62 — 66 .

(29) Heyd, op. cit., 1, PP. 374 — 75 ; Ashtor, op. cit., P. 240 , Conder, op. cit., P. 305 .

العادل التجار وصادر أموالهم واعتقل الملكين وعاد الى القاهرة » (٣٠) . وعلى الرغم من أن المقريري نقل هذا الحادث عن الحنبلي (٣١) ، إلا أن كلا المؤرخين لا يذكر اسم هذين الملكين أو الرئيسين ، وان كانا يشيران الى اعتقاد السلطات المصرية بوجود خطة تستهدف احتلال الاسكندرية بالتعاون مع التجار الفرنجة المقيمين فيها . وطالما أن البنادقة كانوا يشكلون غالبية هؤلاء التجار كما يعتقد بازيلي Beazley (٣٢) ، فإن الاضرار التي لحقت بهم من جراء عملية الاعتقال والمصادرة التي قام بها العادل كانت فادحة .

ومع أن المصادر المتداولة لا تحدد التاريخ الذي أفرج فيه العادل عن التجار البنادقة ولا تذكر ما اذا كانت السلطات الايوبية قد أعادت اليهم أموالهم وبضائعهم التي صودرت إلا أنه يبدو أن البندقية حاولت ايجاد تسوية لهذه المسألة . والدليل على ذلك أن الملك الكامل ، نائب السلطان العادل ، قد استقبل سفيرا بندقيا عام ١٢١٧ م (٣٣) وقد رحب الكامل بكل المطالب التي تقدم بها السفير البندقي ، وأعرب عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الامم الفرنجية الاخرى (٣٤) . واذا كانت هذه السفارة لا تشير الى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثة الاسكندرية (١٢١٥ م) ، ولا الى مصير التجار البنادقة وأموالهم ، إلا أنها تدل على عودة العلاقات الودية بين البندقية ومصر وبالتالي استئناف البنادقة لنشاطهم التجاري في مصر .

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، مرة ثانية ، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها جان دي برين على مصر (٦١٥ هـ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ -

(٣٠) الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط ، ورقة ٦١ ا .

(٣١) المقريري : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٧٥ .

(32) Beazley, The dawn of Modern Geography, 11, P. 416 .

(33) Runciman, A Hist., of the crusades , 111, P. 151 .

(34) Heyd, op. cit., 1, P. 404 .

١٢٢١ م (٢٥) . وعندما احتل الصليبيون مدينة دمياط رحب البنادقة في هذه المدينة بقدوم الصليبيين واستيلائهم عليها (١٢١٩ م) ، وذلك لان البنادقة نظروا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين على أنه انتصار تجاري أكثر من كونه انتصارا عسكريا (٢٦) . يضاف الى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين لرفض شروط الصلح التي تقدم بها السلطان الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط ، وذلك لان التجار البنادقة ، وغيرهم من التجار الايطاليين ، كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزا تجاريا لهم ولأنها تفوق بأهميتها ، من الناحية التجارية ، مدينة بيت المقدس (٢٧) . وعندما أخذ المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين كان التجار البنادقة في مقدمة المدافعين عنها (٢٨) .

وقد استرد المسلمون مدينة دمياط وطردها الصليبيين منها ، ولم تتخذ الحكومة المصرية أية اجراءات ضد التجار البنادقة في مصر ، على الرغم من الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة ، في حين اتخذت جمهورية البندقية ذاتها اجراءات معينة ، نتيجة أخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط ، بأن منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار الى مصر ، وقامت بمراقبة تجارها وسفنها وفرضت عقوبات على أي تاجر أو سفينة تنقل هذه المتاجر الى الموانئ المصرية (٢٩) . ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الاجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الأضرار وأفدحها ، الا أنها ربما اضطرت الى ذلك تحت ضغط من البابوية والأمراء الصليبيين في الشام .

ويبدو أن البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارها من خسائر نتيجة أخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة ، والاجراءات التي

(٢٥) عن احتلال دمياط من قبل الحملة الصليبية الخامسة ، انظر : المقرئ : غفر دمياط ، مخطوط ، ورقة ٢٦ أ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٤ ، ص ١٥ - ١٩ ، ٢٢ - ٢٤ .

(36) Heyd, op. cit., 1, P. 404.

(٢٧) عاشور : الحركة الصليبية : ج ٢ ، ص ٩٧٥ ، عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٧٥ .

(38) Heyd, op. cit., 1, P. 405 .

(39) Ibid., 1, PP. 404 — 405

اتخذتها لمنع المتاجرة مع مصر من جهة أخرى ، لهذا نجد السناتو البندقي يبعث ، عام ١٢٢٥ م ، سفارة الى مدينة حلب برئاسة توماس فوسكاريني Thomas Foscarini ونجحت السفارة في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز بن الظاهر غازي ، صاحب حلب ، اشتملت على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية (٤٠) . ولم تمض اربع سنوات (١٢٢٩ م) ، حتى وصلت سفارة بندقية أخرى الى حلب ، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه انطوت على تجديد للامتيازات التي حصل عليها البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥ م (٤١) .

وفي عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م بعث دوج البندقية سفارة الى القاهرة برئاسة روموس كورينو Romous Quirino ويعقوب باروشيو Jacebus Barocio ووقعت هذه السفارة معاهدة تجارية مع السلطان الملك العادل الثاني (٤٢) . وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الاهمية لانها كانت أساسا لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الايوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر . وذلك لانها حددت أشكال الحماية التي تعهدت السلطات المصرية بمنحها للبنادقة وسفنها في مصر وموانئها . كما انها حددت أشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الاسواق المصرية . فضلا عن انها حددت حقوق البنادقة وواجباتهم (٤٣) .

وفي ظل المعاهدة السابقة انتظمت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر ، وازداد النشاط التجاري للبنادقة في الديار المصرية ، وأخذت الاساطيل التجارية تصل الى الاسكندرية بانتظام من البندقية ، وأخذت الجالية البندقية في الاسكندرية تمارس نشاطها وفق المعاملات التجارية التي حددتها هذه المعاهدة . ولم تمض سنوات قليلة حتى تمكنت سفارة

(40) Heyd, op. cit., 1, P. 375 ; Beazley, op. cit., 11, P. 417

(41) Heyd, op. cit., 1, P. 373 ; Beazley, 11, P. 416 .

(٤٢) انظر النص الاصلي لهذه المعاهدة في :

Maslatrie, 'Traite des paix et de commerce, PP. 72 — 74 .

وانظر أيضا : الترجمة العربية للنص : عفاف صبرة ، ملحق رقم ٢ ، ص ٢٤٠-٢٤٦ .

(43) Maslatrie, Traite des paix et de commerce ; PP. 72 — 73 .

بندقية أخرى من توقيع معاهدة تجارية أخرى مع السلطان الإيوبي نجم الدين أيوب عام (٦٤١ هـ - ١٢٤٤ م) ، انطوت على تجديد الامتيازات التجارية التي منحت للبنادقة في معاهدة ١٢٣٨ م ، وأضافت إليها امتيازاً آخر ينص على تعهد السلطان بحماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة (٤٤) .

وفي عام ١٢٥٤ م تمكنت سفارة بندقية أخرى من توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الملك المعز أيك ، أول سلاطين المماليك في مصر (٤٥) . ورغم أن هذه المعاهدة كانت في حقيقتها تجديداً للامتيازات التي انطوت عليها معاهدة عام ١٢٣٨ م ، إلا أنها اشتملت على اتفاقيات جديدة تتعلق بحماية البنادقة ومتاجرهم في الأراضي والمياه المصرية ، وعلى إعفاء التجار البنادقة من بعض الرسوم والضرائب (٤٦) ، وعلى تنظيم الشؤون القضائية بالنسبة إلى البنادقة المتمرددين والمقيمين في الديار المصرية . يضاف إلى ذلك أن المعاهدة حددت حقوق البنادقة في الإسكندرية ونظم فنادقهم (٤٧) .

وأرسلت البندقية ، عام ١٢٥٤ م ، سفيراً إلى حلب ، وقد حمل هذا السفير معه عند عودته خطابين من صاحب هذه المدينة ، الملك الناصر صلاح الدين بن الظاهر غازي ، يحتويان على وعود الأمير بالصدقة والحماية للبنادقة داخل بلاده (٤٨) .

ولقد استمر النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام على الرغم من القتال الذي دار بين الصليبيين والظاهر بيبرس (٥٦٨ - ٦٧٩ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٩ م) . وكان الظاهر بيبرس نفسه حريصاً أشد الحرص على استمرار العلاقات التجارية بين المسلمين في مصر والشام والتجار البنادقة . وقد أشار المؤرخ ابن عبد الظاهر إلى اهتمام السلطان الظاهر

(44) Ibid., PP. 76 — 77 .

(٤٥) انظر نص المعاهدة في :

Ibid., PP. 77 — 80 .

وانظر أيضاً الترجمة العربية : عفاف صبرة : ملحق رقم ٤ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٤ .

(46) Mas Latrie, PP. 77 — 79 .

(47) Mas Latrie. Traite des paix et de commerce, PP. 79 — 80 .

(48) Heyd, op. cit., 11, P. 25 .

بتشجيع « التجار الفرنجة » بصفة عامة للقدوم إلى الديار المصرية ، وكشف ابن عبد الظاهر الأهمية الاقتصادية الكبرى التي كانت لهؤلاء التجار في الحياة الاقتصادية للمسلمين في مصر والشام . وأشار أيضاً إلى أن من الأسباب التي دفعت الظاهر بيبرس لتوقيع الصلح بينه وبين صاحب يافا وممتلك بيروت عام (٦٥٩ هـ / ١٢٦١ - ١٢٦٢ م) هو القلاء الذي عم بالشام لأن « كثرة الجلبانما يكون من بلاد الفرنج (٤٩) » وفي أعقاب هذا الصلح « أمنت السبل وكثر الجلب (٥٠) » و « ترددت التجار وسلكت السفار (٥١) » . وبالرغم من الأضرار الفادحة التي لحقت بالبندقية وتجارتها نتيجة فتح الظاهر بيبرس لامارة انطاكية عام ١٢٦٨ م فقد استمر التجار البنادقة ينقلون الأسلحة والمؤن والأخشاب إلى الإسكندرية (٥٢) ، فعندما وصل الأمير الإنجليزي إدوارد إلى عكا عام ١٢٧١ م ، استاء لأنه وجد البنادقة يحتفظون بتجارة مزدهرة مع السلطان الظاهر بيبرس ، ويمدونه بالأخشاب والحديد ، وقد أظهر له البايو البندقي في عكا آنذاك ، ويدعى فيليب بيلكنو Beligno ترخيصاً كتابياً منحه ملوك بيت المقدس يسمحون بموجبه للتجار البنادقة بالتجارة مع المسلمين في مصر (٥٣) .

واحتفظت البندقية بعلاقاتها التجارية النشطة مع مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون ، وذلك لأن البندقية كانت حريصة أشد الحرص وقنذاك على التعويض عن الخسائر التي لحقت بتجارتها وامتيازاتها في المدن الصليبية ، نتيجة ازدياد النفوذ التجاري الجنوبي ، الذي وصل إلى ذروته بتشكيل قومون لهم في مدينة طرابلس عام ١٢٨٨ م . وهذا يفسر لنا — كما بينا في الباب السابق — الاتصالات التي قام بها البنادقة في عكا مع السلطان المنصور قلاوون وتحريضهم له على فتح طرابلس واستخلاصها من أيدي الجنوية . كما وقعت البندقية معاهدة مع السلطان المنصور قلاوون عام ١٢٨٩ م ، تعتبر امتيازاً جديداً منحه السلطان للبنادقة ، فقد خفض

(٤٩) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، مخطوط ورقة

٩٤٤ - ٩٤٥ .

(٥٠) المصدر السابق : ورقة ٩٤٥ .

(٥١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط ورقة ٤٨ - ٤٩ .

(52) Hodgson, op. cit., P. 138 .

(53) Runciman, Hist. of the Crusades, 111, PP. 335 — 36 .

فيه الرسوم الجمركية عنهم الى جانب منحهم الامن والحماية على ممتلكاتهم وأرواحهم (٥٤) .

وتدقق التجار البنادقة بأعداد كبيرة الى الموانئ المصرية في عصر السلطان المنصور نتيجة السياسة الودية التي تبناها هذا السلطان تجاه الفرنجة بصفة عامة والبنادقة بصفة خاصة . والدليل على ذلك الوصية التي كتبها السلطان المنصور الى ابنه الملك الصالح علاء الدين علي ، والتي يوصي فيها ابنه على ضرورة « حفظ فنادق الفرنج وحفظ مفاتيحها في الليل وفي وقت صلاة الجمعة » وفي حفظ الامكنة المجاورة لها ، وفي حفظ الموانئ من جميع الجهات (٥٥) . وطلب السلطان المنصور الى ابنه بأن يأمر « ولاية الثغرين ، الاسكندرية ودمياط ، باستمالة قلوب التجار ومعاملتهم بالعدل والاحسان والرفق والانصاف ليتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار (٥٦) » ، « فالعدل اجلب للبركات وأحلب لثدي المرضعات وبه عمارة البلاد وتثمر الاموال (٥٧) » .

غير أن النشاط التجاري للبنادقة ، في مصر والشام ، ضعف نتيجة فتح السلطان الاشرف خليل مدينة عكا الصليبية عام (١٢٩١ م) ، وما تبع ذلك من طرد الصليبيين نهائيا من الشام في العام نفسه . فقد فقدت البندقية بذلك أحياءها وامتيازاتها التجارية ، التي كانت قد تمتعت بها في المدن الصليبية على امتداد قرنين من الزمن ، كما أن أعدادا كبيرة من تجارها ، الذين كانوا يقيمون في عكا ، قد وقعوا أسرى بأيدي السلطان الاشرف عندما فتح المدينة . وتم جلب هؤلاء الأسرى الى القاهرة حيث أودعوا سجونها (٥٨) . فضلا عن ذلك فقد ألقى السلطان الاشرف القبض على سفينة تابعة للبندقية بالقرب من غزة ، وكانت تحمل هذه السفينة عددا كبيرا من التجار البنادقة ، الذين حاولوا النجاة بأنفسهم وأموالهم من ميناء عكا بعد أن سقط بيد المسلمين ، ولقد تم نقل السفينة بحمولاتها

(٥٤) انظر : عفاف صبرة ، ٩١ .

(٥٥) شافع بن علي : الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور ، مخطوط ، ورقة ٨٦ أ ، ب .

(٥٦) المصدر السابق ، ورقة ٨٦ ، ٨٧ أ ، ب .

(٥٧) المصدر السابق ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ أ ، ب .

(٥٨) Hodgson, op. cit., P. 323 .

الى مصر ، حيث أودع تجارها في السجون بالقاهرة (٥٩) .

وردت البندقية ، على ما حل بتجارها وسفينتها ، ردا سريعا ، الا أنه الحق بنشاطها التجاري وجاليتها في مصر أفدح الاضرار . فقد قامت بعض سفن البندقية عام ١٢٩٢ م بأسر عدد من التجار المسلمين في عرض البحر . وعندما سمع السلطان الاشرف بهذه الحادثة أمر باعتقال « جماعة من البنادقة (٦٠) » الموجودين في الاسكندرية وجلبهم الى القاهرة ، حيث أودعوا السجون (٦١) . وبذلك أصاب الركود النشاط التجاري للبنادقة في مصر وتحولت العلاقات فيما بين الطرفين عما كانت عليه .

وقد زاد النشاط التجاري للبنادقة ضعفا ، في مصر والشام ، الرسوم الذي أصدره البابا نيقولا الرابع ، على أثر سقوط عكا (١٢٩١ م) والذي ينطوي على تعهد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على كل من يتاجر مع المسلمين في مصر والشام وعلى كل من ينقل أي نوع من السلع والتاجر الى البلدان التابعة للسلطان الاشرف خليل (٦٢) . وبالرغم من ادراك البنادقة أن مصالحهم التجارية في مصر والشام أهم من أي اعتبار ديني أو صليبي ، إلا أنهم لم يكن باستطاعتهم أن يتحدوا البابوية وحكام الغرب الاوربي بعد سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان هذا عاملا من عوامل تردي العلاقات التجارية بين البندقية والمسلمين في مصر والشام في سنة ١٢٩١ م .

ولكن سرعان ما أدركت البندقية أن استمرار تردي علاقاتها مع السلطان الاشرف خليل وبقاء تجارها في سجون القاهرة ، سيؤدي الى دمار تجارتها ومستقبلها لا في مصر والشام فحسب وإنما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ايضا . ولهذا فقد حاولت البندقية التقرب الى السلطان الاشرف ، فبعث دوج البندقية سفارة الى الاسكندرية (١٢٩٢ - ١٢٩٣) برئاسة شخص يدعى « تنقولا » كما يقول ابن عبد الظاهر (٦٣) . وبعد أن

(٥٩) Ibid. ; Labib , Handelsgeschichte., P. 74 .

(٦٠) ابن عبد الظاهر : الاطراف الخفية ، ص ٤٤ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ٤٥ . أيضا انظر :

Labib, Handelsgeschichte., P. 74 .

(٦٢) Ashtor, op. cit., P. 298 ; Boase ; op. cit., P. 215

(٦٣) ابن عبد الظاهر : الاطراف الخفية ، ص ٤٥ .

Francisco كنفصل للبندقية لرعاية مصالح التجار البنادقة في الاسكندرية (٧٠) .

ولم يمض عامان على توقيع المعاهدة السابقة حتى ساءت العلاقات بين البندقية ومصر ، وذلك نتيجة استيلاء دوق البندقية في كريت على سفينة جنوية ، تحمل رقيقا متجهة بهم من القسطنطينية الى مصر عام ١٣٠٤ م . وعلى الرغم من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد رد على هذا الحادث باعتقال الكنفصل البندقي في الاسكندرية ، فان دوق كريت رفض الافراج عن السفينة الجنوية (٧١) . وأسرت جمهورية البندقية بارسال سفارة الى القاهرة ، تمكنت من الوصول الى حل اللازمة القائمة (٧٢) ، وربما تم الافراج عن الكنفصل البندقي مقابل الافراج عن السفينة الجنوية المحتجزة في كريت .

وبعثت البندقية سفارة الى نائب صفد عام ١٣٠٤ م وذلك لابرام معاهدة تجارية معه والحصول على امتيازات تجارية في المناطق التابعة له آنذاك ، وهي عكا وصور وصيدا وجزء من دمشق . وبعث نائب صفد الى السلطان الناصر يخبره بأمر السفارة ويطلب امداده بالتعليمات بخصوص ما يجب اتباعه معها . فبعث اليه السلطان رسالة موجهة الى دوج البندقية يخبره فيها بأنه يمكن لرعاياه أن يحضروا الى أراضي السلطان دون خوف على ممتلكاتهم ، بل انه التزم بامداد الحجاج البنادقة بحرس لحمايتهم أثناء زيارة الاماكن المقدسة . كما نصت الرسالة على تعهد السلطان بحماية البنادقة الذين يرغبون في القدوم لمصر والشام ومعاملتهم معاملة طيبة (٧٣) .

ويبدو أن معاهدة عام ١٣٠٢ م ، بين البندقية ومصر ، لم تمكن النشاط التجاري البنادقة ، في مصر والشام ، لان يعود الى ما كان عليه قبل سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية . وربما ظلت بعض المسائل معلقة

(70) Hodgson, op. cit., 323 .

(71) Ibid., P. 323 .

(٧٢) انظر : عفاف صبرة : ، ص ٩٥ .

(73) Heyd, op. cit., 11, PP. 41 — 42; ; Ashtor, op. cit., P. 229

قابلت السفارة السلطان الاشرف في القاهرة « وقدمت له هدايا كثيرة وتحفا فاخرة » طلب الافراج عن التجار البنادقة المعتقلين مقابل مبلغ قدره سبعين الف درهم ، وهو تعويض عما لحق بالتجار المسلمين من اضرار نتيجة هجوم البنادقة عليهم في البحر ووافق السلطان الاشرف خليل على ذلك وأمر باطلاق سراح البنادقة من سجون القاهرة ، ومن ثم أعلن السلطان « أمان شريف » اشتمل على منح التجار البنادقة ، والبيازنة والجنوية وغيرهم ، حرية المتاجرة في مصر والشام والتردد « الى الثغور الاسلامية آمنين مطمئنين » (٦٤) .

وفي عام ١٣٠٢ م نجحت سفارة بندقية برئاسة جيدو دي كانالي Guido Canali في توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، اشتملت على تجديد للامتيازات التجارية التي كانت قد حصلت عليها البندقية في مصر في عهد السلاطين السابقين (٦٥) ، كما حصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على اعفاء من نصف الرسوم الجمركية المقررة على تجارتها في مصر (٦٦) . كما انطوت المعاهدة على تعهد بحماية التجار البنادقة ومتاجرهم وأموالهم وممتلكاتهم في الديار المصرية (٦٧) . فضلا عن ذلك فقد تضمنت المعاهدة امتيازات تتعلق بالاستقلال القضائي للبنادقة في مصر وحرية ممارسة عبادتهم وطقوسهم الدينية (٦٨) . يضاف الى ذلك أن سفارة البندقية تعهدت للسلطان الناصر بأن يستمر التجار البنادقة في جلب السلع والمتاجر الحربية المحرمة من قبل البابوية ، وبصفة خاصة الاخشاب والحديد والقار ، شريطة أن يسمح السلطان بتصدير سلع ومتاجر مصرية بقيمتها مع اعفائها من الرسوم الجمركية (٦٩) . وقبل مغادرة السفارة البندقية مصر وافق السلطان على أن يبقى أحد أفرادها ، وهو فرانسيسكو دي كانالي de Canali

(٦٤) المصدر السابق : ص ٤٥ ، انظر أيضا :

Labib, Handelsgeschichte, P. 74 .

(65) Maslatrie , Traite des paix et de commerce, PP. 82 — 85 .

(66) Labib, Handelsgeschichte., P. 75 ; Maslatrie op. cit., P. 83.

(67) Maslatrie, Traite despaix et de commerce, PP. 83 — 85 .

(68) Ibid., PP. 84 — 85 .

(69) Hodgson, op. cit., P. 323 ; Pernoud, op. cit., PP. 212 — 13

بين البندقية ومصر ، والدليل على ذلك ما يخبرنا به ابن أبيك الدواداري من أن « افرنجي من البنادقة » قد وصل الى القاهرة عام ٧١٨ هـ / ١٣١٧ م ، وقدم هدية الى السلطان الناصر « لم يعهد أن وصل مثلها ولا قريب منها في زمن من الأزمان » (٧٤) . ومع أن المصادر لا تمدنا بتفاصيل هذه السفارة الا أن أحد الباحثين يرى أن والي الاسكندرية قد أطلق عام ١٣١٧ م سراح البنادقة المعتقلين في المدينة وأنه بعث بهدايا ثمينة الى دوج البندقية اشتملت على الحرير والصبار والزنجبيل اضافة الى بعض المنتجات والسلع الشرقية الاخرى (٧٥) . وهذا قد يوضح مهمة هذا المبعوث البندقي في مصر ورغبة البنادقة في تحسين علاقتهم بسلطنة المماليك .

واعتقد بعض الباحثين أن البابا حنا الثاني والعشرين قد تمكن عام ١٣٢٢ م من اقناع البندقية في قطع علاقاتها التجارية مع مصر والشام . واستجابت البندقية لرغبة البابا ، حيث أصدرت قرارا في العام التالي (١٣٢٣ م) حرمت فيه رعاياها من المتاجرة مع مصر والبلاد التي تخضع لسلطانها . واعتقد هايد أن العلاقات التجارية بين البندقية ومصر قد انقطعت في الفترة الممتدة ما بين ١٣٢٣ - ١٣٤٥ م (٧٦) . الا أنه من المؤكد أن العلاقات التجارية بين البندقية ومصر لم تنقطع بدليل أن الرحالة لادولف ، الذي زار مصر والشام في الفترة ما بين ١٣٣٩ - ١٣٤١ م ، قد شاهد بنفسه البنادقة في الاسكندرية يمارسون نشاطهم التجاري ، ويتمتعون بحريتهم الدينية ، ويمارسون طقوسهم وعبادتهم في الكنيسة المرقسية فيها (٧٧) . يضاف الى ذلك أن البابا كليمنت السادس ١٣٤٤ م ، استجابة لرغبة دوج البندقية والحاجه ، أصدر مرسوما سمح فيه للبنادقة بالمتاجرة ، ولمدة خمس سنوات ، مع المسلمين في مصر والشام ، وذلك « شفقة على البندقية التي تعتمد على التجارة الحرة وحدها للحصول على قوتها اليومي » . الا أن المرسوم البابوي حذر ، في الوقت ذاته ، من نقل الخشب والحديد والاسلحة والرقيق الى المسلمين ، وألزم دوج البندقية

(٧٤) ابن أبيك : الدر الفاخر ، ص ٢٩٤ .

(٧٥) Hodgson, op. cit., P. 323 .

(٧٦) عن ذلك انظر :

Heyd, op. cit., 11, PP. 35 — 37 , 42 — 44 , Ashtor, op. cit., PP. 298 — 300 .

(٧٧) Ludolph , op. cit., P. 46 .

وقومونها بتفتيش سبلع البنادقة ومتاجرهم قبل شحنها الى مصر والشام (٧٨) .

ولم تدع البندقية فرصة الافادة من هذا الامتياز البابوي ، فبعثت عام ١٣٤٤ م ، سفيرا الى مصر يدعى نيقولا زينو Nicolozeno . وفي فبراير من العام نفسه أصدر السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد منشورا أعلن فيه ترحيبه بمطالب السفير البندقي وتعهد « بحماية الرعايا البنادقة ، المقيمين في الاراضي المصرية أو المترددين عليها ، ومعاملتهم اطياب معاملته على أساس الاحترام المتبادل . وحدد المنشور ضريبة الاستيراد التي يتوجب على البنادقة دفعها ، فضلا عن أن المرسوم قد انطوى على مجموعة من التدابير والاجراءات الاحتياطية لضمان حرية التجار البنادقة وحمايتهم » (٧٩) .

وبعد عودة السفير نيقولا أرسلت البندقية الى السلطان نفسه مبعوثا آخر يدعى آنجيلو سيربي Angelo Sérbi . وحمل هذا السفير الى حكومته كتابا من السلطان الصالح اسماعيل مؤرخا في ٦ أغسطس عام ١٣٤٥ م يحتوي على تجديد السلطان وعده بالترحيب بالتجار البنادقة . كما اذن لحكومة البندقية بانفاذ قناصلها الى الاسكندرية وغيرها من البلاد الخاضعة لنفوذه . وعندئذ أرسلت البندقية الى الاسكندرية قافلة من غليونين ، وعلى ظهر احد الغليونين وصل القنصل البندقي الجديد الذي اختارته البندقية للاقامة في الاسكندرية (٨٠) .

ومن المؤكد أن النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام قد ازداد بعد التوقيع على المعاهدة الاخيرة ، فالرحالة نيقولو Niccolo ، الذي زار مصر والشام بعد ثلاثة أعوام من توقيع هذه المعاهدة ، التقى بالعديد من التجار اللاتين بصفة عامة والبنادقة بصفة خاصة في القاهرة والاسكندرية ودمياط (٨١) . ولكن على الرغم من ذلك يمكننا القول بأن حجم التجارة البندقية في مصر والشام ، خلال العقد التالي على توقيع معاهدة عام

(78) Hodgson, op. cit., P. 380 .

(79) Ibid., P. 382 .

Heyd, op. cit., 11, PP. 45 — 46 . (٨٠) انظر :

سرور : دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٢ ، غلاف صيرة ، ص ١٠١ .

(81) Niccolo, op. cit., PP. 85, 89, 120 — 21 .

١٣٤٥ م كان ضئيلا بسبب عاملين أساسيين ، أولهما : انتشار الطاعون (الموت الاسود) في عام ١٣٤٧ - ١٣٤٨ م ، الذي أدى الى تحطيم اقتصاديات عالم البحر المتوسط (٨٢) . وكان أمرا طبيعيا أن يلحق بالبنادقة ونشاطهم التجاري ، في مصر والشام ، أبلغ الأضرار وافدحها ، وثانيها : اندلاع الحرب بين البنادقة والجنوية (١٣٤٩ - ١٣٥٢) ، في بيزنطة وامتدادها الى أجزاء أخرى من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ويبدو أنه كان لهذه الحرب أثر بالغ على النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام ، والدليل على ذلك ما يرويه القاضي عبد الباسط من أنه في عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م قد « عز الخشب في مصر وغلا سعره وتعذر وجود الكثير من الاصناف التي يجلبها الفرنج ، كالقصدير والزعفران بسبب الفتنة التي قامت بينهم » (٨٣) .

وبعد أن استردت البندقية قواها مما الحق بها الوباء والقتال مع الجنوية من اضرار اقتصادية وبشرية ، عقدت معاهدة تجارية مع السلطان الناصر حسن عام ١٣٥٥ م ، اشتملت على تجديد الامتيازات التجارية التي كان قد حصل عليها البنادقة بموجب المعاهدات السابقة (٨٤) . وفي عام ١٣٦١ م حصلت البندقية على اذن من البابا انوسنت السادس بالتجارة مع المسلمين في مصر والشام (٨٥) . واسرعت البندقية بتوقيع معاهدة تجارية أخرى مع السلطان الناصر حسن في العام نفسه (١٣٦١ م) . ولقد انطوت هذه المعاهدة على زيادة الامتيازات التجارية للبنادقة في مصر ، كما أمر السلطان بإزالة المطعم المجاور لفندقهم في الاسكندرية بعد أن كثرت شكاواهم من الاذى الذي يسببه لهم الدخان ورائحة الطعام وكذلك الصعاليك من

(٨٢) تحدث ابن حجر العسقلاني عما لحق بمصر والشام من دمار اقتصادي وبشري من جراء هذا الطاعون . ابن حجر : بذل الماعون في فوائد الطاعون ، مخطوط ، ورقة ٩٢ - ٩٣ ، ٩٦ - ٩٧ .

(٨٣) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، مخطوط ، ج ١ ، ورقة ٤٠ ب .

(٨٤) انظر نص المعاهدة في :

Mas latrie, Traite., PP. 88 — 92 .

وانظر الترجمة العربية للنص : عفاف صبرة ، ملحق رقم/٦ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٩ .

(85) Hill, op. cit., 11, P. 311 .

اهل الاسكندرية الذين يترددون على هذا المطعم (٨٦) . ويتبين لنا أن هاتين المعاهدتين قد عززتا مكانة البنادقة ونشاطهم التجاري في مصر (٨٧) .

وعلى الرغم من أن جمهورية البندقية كانت تدرك أن الحرب ضد المسلمين تتناقض ومصالحها التجارية في مصر والشام ، فإنها لم تكن تتردد في دعم أية حملة صليبية تأمل أن تحقق من خلالها توسعا في امتيازاتها التجارية . وهذا يفسر لنا اشتراكها في الحملة البحرية التي قادها بطرس الاول ملك قبرص ، ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ (٨٨) ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين البندقية والمسلمين في مصر والشام طيبة والنشاط التجاري للبنادقة في الاسكندرية مزدهرا (٨٩) .

الا أن البندقية اخطأت في تقديرها ، فعندما بدأت قوات بطرس لوزيجنان باقتحام المدينة اعتقل متولى ثغر الاسكندرية (٩٠) نحو خمسين تاجرا فرنجيا وقناصلتهم وقادهم الى دمنهور (٩١) ، وكان من بينهم بعض تجار البندقية وقنصلهم في الاسكندرية ، وعندما احتلت هذه القوات المدينة تعرضت مستودعات البنادقة وحوانيتهم وفنادقهم فيها الى أعمال النهب والسلب التي قام بها القبارصة في المدينة (٩٢) .

ولا ريب في أن احتلال الاسكندرية ، من قبل الملك القبرصي كان ضربة

(٨٦) انظر : Heyd, 11, P. 48, Ashtor, P. 299.

(٨٧) انظر : Beazley, 111, P. 473 .

(٨٨) انظر : المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ص ١٠٧ .

(٨٩) انظر : عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ورقة ٧٦ - ٧٧ .

(٩٠) انظر : المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٩١) النويري السكندري : الاعلام بالاعلام ، مخطوط ، ج ١ ورقة ٣٢٢ ، المقرئ : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ . أيضا :

Atiya, Crusade in the later middle ages, P. 358 .

(٩٢) انظر تفاصيل الخراب الذي الحقته هذه الحملة بمدينة الاسكندرية : النويري :

الاعلام بالاعلام ، ورقة ٣٢٦ - ٣٣٥ ، المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة التركية ،

مخطوط ، ورقة ٤٦ ، عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول : ورقة ٧٦ - ٧٧ ،

ابن دقماق : الجوهر الثمين ، مخطوط ، ورقة ١٦٨ - ١٦٩ . ابن حبيب : درة

الاسلال مخطوط ، ج ٢ ، ورقة ٤٣ ، المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ص ١٠٦

- ١٠٧ ، أيضا : قيرص والحروب الصليبية ، ص ٦٦ ، أيضا :

Atiya, Crusade in the later, PP. 365 — 66 .

عنيفة لمصالح البندقية في مصر والشام ، حتى أنه كان من الصعوبة على البنادقة أن يستعيدوا مكانتهم في الاسكندرية كما كانت عليه (٩٢) . كما أن الأمير يلبغا قد حمل جزءا كبيرا من مسؤولية ما حدث للجاليات التجارية الفرنجية المقيمة في مصر والشام ، بما فيها البنادقة ، ولهذا نجده يأمر / عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م / ، « بالقبض على جميع من بديار مصر والشام من الفرنج » (٩٤) . ولئن تمكن بعض التجار الفرنجة من الفرار على ظهر سفنهم من الاسكندرية قبل أن ينفذ هذا الأمر (٩٥) ، فلقد تم القبض على جميع التجار الفرنج الموجودين في بلاد الشام (٩٦) .

وأخذت البندقية تبعث الى القاهرة بسفارة اثر اخرى (١٣٦٥ - ١٣٧٠ م) في محاولة منها للتوصل من أية مسؤولية عن الفارة التي قام بها ملك قبرص ضد الاسكندرية وإعادة السلام بين البندقية ومصر وإطلاق سراح التجار البنادقة المعتقلين في القاهرة وبالتالي السماح للبنادقة باستئناف نشاطهم التجاري في مصر والشام (٩٧) .

والذي يهمنا أن نؤكد أنه النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام ، خلال السنوات الخمس التالية على حملة بطرس ، كان متوقفا من الناحية العملية ، فعلى الرغم من أن الأمير يلبغا قد أطلق سراح البنادقة المعتقلين في مصر والشام عام ١٣٦٦ م وجدد مع البندقية ، أثناء ذلك ، كل المعاهدات التجارية القديمة بين مصر والبندقية (٩٨) ، إلا أنه لم يتم استئناف النشاط

(93) Atiya, Crusade in the later middle ages, P. 367 ; Hill, op. cit., 11, P. 337 .

(٩٤) عبد الباسط : نيل الأمل في ذيل الدول ، ج ١ ، ورقة ٧٧ ، القريري : السلوك ،

ج ٢ ق ١ ١٠٧

(٩٥) عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٧٨ ، القريري : السلوك ، ج ٣ ،

قسم ١ ، ص ١١٤ .

(٩٦) عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٧٧ .

(٩٧) انظر تفاصيل ذلك في : عبد الباسط : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة

٧٩ ، القريري : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، أيضا :

Atiya, Crusade in the later, PP. 370—71 ; Hill, op. cit., 11, PP. 337 — 341 .

(98) Hill, op. cit., 11, PP. 339 — 41 .

التجاري للبنادقة في مصر والشام ، وذلك لان السلطات المملوكية اعتقلت سنة ١٣٦٦ م في بيروت ثمانية وخمسين تاجرا بندقيا كانوا قد وصلوا الى الميناء على ظهر ثلاث سفن تجارية ، وتمت مصادرة سلع ومتاجر هؤلاء التجار ، كما أن اجراءات مماثلة اتخذت ضد البنادقة في ميناء طرابلس في العام نفسه (٩٩) . وفي العام التالي ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م يخبرنا القريري أن نائب السلطنة في الاسكندرية اعتقل مئة وخمسين من الفرنج كانوا قد وصلوا الى الميناء على ظهر عدة مراكب « في هيئة مراكب تحمل البضائع » (١٠٠) . وفي العام الذي يليه (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) أسرت البحرية المصرية سفينة بندقية (١٠١) .

ولقد استأنف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر والشام بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وقبرص عام ١٣٧٠ م . خاصة وأن البابا أصدر فور التوقيع على هذه المعاهدة (١٣٧٠ م) مرسوما ألقى فيه كل المراسيم السابقة المتعلقة بتحريم المتاجرة مع مصر (١٠٢) . وفي عام ١٣٧٣ م أبرمت البندقية معاهدة مع السلطان الأشرف شعبان اشتملت على امتيازات تجارية جديدة وتعهد بحماية تجارة البندقية في بلاد الشام بصفة عامة ودمشق بصفة خاصة (١٠٣) ، وبذلك كله بدأت مرحلة جديدة في النشاط التجاري للبنادقة في مصر والشام ، واستمرت خلال الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، دون أن يعكر صفوها أية اجراءات من الطرفين . وبالرغم من أن البنادقة اضطروا الى الهرب مع قناصلهم من بلاد الشام نتيجة استيلاء تيمورلنك على حلب ودمشق في عهد السلطان فرج بن برقوق (١٣٩٩-١٤١٢) (١٠٤) ولكن صالح بن يحيى يحدثنا عن وجود الجالية البندقية في بيروت وثرائها عندما تحدث عن مهاجمة الجنوية لها عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ،

(99) Ibid., P. 343

(١٠٠) القريري : السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ١٥٦ .

(١٠١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

(102) Hill, Hist. of Cyprus, 11, P. 376 .

(١٠٢) انظر :

Mas La trie . Traite, PP. 93 — 94 .

أيضا : عفاف صبرة : ، ص ١٠٦ .

(104) Heyd, op. cit., 11, P. 469 ; Beazley , op. cit., 111, P. 473

حيث نهب الجنوية من بيروت «حواصل بها بضائع لفرنج البنادقة بقيمة عشرة آلاف دينار» وهذا الرقم بذاته يدل على ثراء هذه الجالية البندقية واستمرارها (١٠٥) .

أما بالنسبة إلى النشاط التجاري للبيازنة في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، فمن المؤكد أن المصالح التجارية والاقتصادية الكبرى للبيازنة في هذين البلدين ، لم تكن تقل أهمية عن مصالح البنادقة فيهما . وعلى الرغم من أننا لا نعرف البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين بيزا ومصر والشام ، إلا أنه من المعروف أن مدينة بيزا قد حرصت أشد الحرص على توثيق صلة المودة بينها وبين الخلفاء الفاطميين في مصر (١٠٦) . ففي عام ١١٥٤ م وصل سفير بيزاوي ، يدعى رينية بوتاشيو Raniri Bottaccio ، إلى بلاط الخليفة الظاهر الفاطمي بالقاهرة ، يحمل خطابات من رئيس أساقفة بيزا وقناصلها تتعلق بتسوية بعض المشاكل المتعلقة في العلاقات بين بيزا ومصر (١٠٧) وذلك أن عددا من التجار البيازنة كانوا قد أبحروا في العام السابق (١١٥٣ م) على ظهر سفينة مع عدد من زملائهم التجار المسلمين ، وقام فريق من هؤلاء البيازنة بقتل التجار المسلمين وسلبهم ، وثارت الخلافة الفاطمية لرعاياها المصريين بالانتقام من التجار البيازنة المقيمين في مصر والمترددن عليها ، حيث تم اعتقالهم ومصادرة أموالهم ومتاجرهم ، وأدى ذلك إلى توقف النشاط التجاري للبيازنة في مصر (١٠٨) .

ولقد تمكن سفير بيزا ، رينية ، من الوصول إلى تسوية مع الخلافة الفاطمية وتوقيع معاهدة سلام وتجارة معها ، تضمنت تعهد السفير البيزاوي ، باسم حكومته ، بمعاينة الذين ارتكبوا جريمة قتل التجار المسلمين ، وبالإسعاد لجمهورية بيزا الصليبيين في الشام أو في أي مكان آخر ، ضد مصر . وتعهد السفير أيضا بأن ينقل التجار البيازنة الأخشاب

(١٠٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٣٤ .

(١٠٦) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٩ .

(١٠٧) Amari, M., *Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino*, PP. 241 — 42 .

(١٠٨) Heyd, op. cit., 1, P. 392 .

والحديد والقار . ومن جهة أخرى تعهدت الخلافة الفاطمية بإطلاق سراح المعتقلين البيازنة في مصر ، وبالسماح لتجار جمهورية بيزا بممارسة نشاطهم التجاري في مصر وشغل فندقهم في الاسكندرية واستخدام فندق آخر في القاهرة . كما تعهد الفاطميون ألا ينتقموا من البيازنة الذين يرتكبون جرائم ضد رعاياهم وممتلكاتهم ، وإنما تعطى حكومة بيزا فترة سنة لكي تقوم الأخيرة خلالها بمعالجة الموقف ومعاينة الجناة . كما تعهدت الخلافة الفاطمية أيضا بحماية التجار البيازنة الذين يسافرون في سفن غير حربية ، في حين من حقها أن تعتبر كل بيزاوي على ظهر مركب حربي أو يتبع القراصنة هو عدو لها (١٠٩) . وبموجب هذه المعاهدة استأنف التجار البيازنة نشاطهم في مصر ، وكذلك على ذلك فقد عاد السفير البيزاوي ، رينية ، إلى بلاده وبصحبه خمسة وعشرون من أهل بيزا كانوا معتقلين في مصر منذ عام ١١٥٣ م (١١٠) .

وبلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الخلافة الفاطمية ، أنه عندما أسندت الوزارة في مصر إلى طلائع بن رزيك (١١٥٥ م) سارعت إلى إرسال وفد لتقديم تهنئتها إليه ، فرحب بقدمهم وأكرم وفادتهم ووعد بالعمل على حماية رعاياهم (١١٢) . ولقد نشر ميخائيل آماري M. Amari خطابين بعثهما ابن رزيك إلى حكومة بيزا ، أحدهما مؤرخ في ٢٠ مارس عام ١١٥٥ م وثنانيهما مؤرخ في ٢ فبراير عام ١١٥٦ م ، وفيهما أعرب عن رغبته في استمرار العلاقات الودية بين مصر وبيزا وتعهد بحماية التجار البيازنة وممتلكاتهم وأموالهم في أراضي مصر ومياهاها ، كما ضمن فيهما لحكومة بيزا كل الامتيازات التجارية التي تمتع بها تجارها في مصر بموجب المعاهدات السابقة ، سواء منها ما يتعلق بالدخول والخروج أو الإقامة ، أو ما يتعلق بحرية المتاجرة في البلاد المصرية ، شريطة ألا يتعاون البيازنة مع الصليبيين ضد مصر (١١٢) .

إلا أن حكومة بيزا لم تكن مخلصة في تقربها من الفاطميين وهذا الحق بتجارتها في مصر أضرارا بالغة ، ففي عام ١١٥٦ م وقع البيازنة اتفاقا مع

(109) Amari, op. cit., 1, PP. 241 — 45 , 47 — 49 .

(110) Heyd, op. cit., 1, P. 394 .

(١١١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ .

(112) Amari, op. cit., 1, PP. 250, 252 .

ملك بيت المقدس تعهدوا فيه بالآي ينقلوا الى مصر الخشب والحديد والقار وأنه يحق للصليبيين مصادرة هذه السلع من السفن البيزاوية في حالة وجودها (١١٣) . وهذا الاتفاق يخالف أهم بنود معاهدة بيزا مع مصر عام ١١٥٤ م ، وبذلك أخذ البيازنة يلعبون دورا مزدوجا في سياستهم ، فمن جهة أخذوا يشاركون في الحملات الصليبية التي اتجهت ضد مصر ، بغية الحصول على امتيازات تجارية في المدن الصليبية بالشام ، وفي الوقت ذاته كانوا يستخدمون كل امكانياتهم لتعزيز امتيازاتهم التجارية في الممتلكات والاراضي الفاطمية (١١٤) . ووضح ذلك حين أخذ عموري ملك بيت المقدس ، يهدد الفاطميين في مصر ، فظهرت بيزا استعدادها لمعاونة الصليبيين . ووعد عموري البيازنة ، مقابل ذلك ، ببعض الامتيازات التجارية في الديار المصرية . لما اتضح للبيازنة أن الصليبيين لن يتيسر لهم البقاء في مصر وأنهم في سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد، سارعت حكومة بيزا الى الوساطة بين الطرفين . وأفادها هذا الموقف اذ منحها الخليفة العاضد الفاطمي امتيازات تجارية في مصر . ولكنها لم تلبث أن عادت الى اثار مصالحها الخاصة ، فاشتكرت مع الصليبيين ، عام ١١٦٩ م ، في الهجوم على ثغر دمياط رغم الامتيازات التي منحتها لها الحكومة الفاطمية (١١٥) . وبذلك ساءت العلاقات بين بيزا ومصر نتيجة مخالفة البيازنة لمضمون معاهدة عام ١١٥٤ م .

وسرعان ما أدركت حكومة بيزا الاضرار التي يمكن أن تلحق بتجاريتها ورعاياها في مصر وبالتالي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط نتيجة ترددي علاقاتها مع حكام مصر ، ولهذا بعثت عام ١١٧٣ م سفيرا الى القاهرة ، يدعى ايلد براندو Ilde Brando ، تمكن من توقيع معاهدة جديدة مع السلطان صلاح الدين الايوبي في مصر بتاريخ ٢٥ سبتمبر من العام نفسه (١١٧٣ م) (١١٦) . واشتملت المعاهدة على تعهد السلطات المصرية بحماية البيازنة ومتاجرهم وأموالهم في الاراضي المصرية ، وعلى حق البيازنة المقيمين في الاسكندرية بأن يكون لهم حمام وكنيسة اضافة الى فندقهم

(113) Beazley , op. cit., 11, P. 431 .

(114) Beazley, op. cit., 11, P. 430 .

(١١٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ ، أيضا : البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي ، رسالة دكتوراه - آداب القاهرة ص ١٩٤-١٩٥ .

(116) Amari, op. cit., P. 257 .

فيها ، وأن يكون لهم أيضا حرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية واستخدام مكابيلهم وموازينهم الخاصة بهم (١١٧) . كما انطوت المعاهدة على اعفاء التجار البيازنة من كل الرسوم المتعلقة باستيراد الذهب والفضة الى الاراضي المصرية شريطة أن يسلموا رجال الجمارك المصريين ، عند مغادرتهم الاراضي المصرية ، كل ما تبقى لديهم من ذهب وفضة ، وتعهد البيازنة بأن يستمروا في نقل متاجر الغرب وسلعه بصفة عامة والخشب والحديد والقار بصفة خاصة ، الى المسلمين في مصر (١١٨) .

وتجلى أهمية المعاهدة السابقة في كونها كانت أساسا للنشاط التجاري لمدينة بيزا في مصر ، على الرغم من أن هذا النشاط كان مقتصرا على الاسكندرية ، لأن صلاح الدين الايوبي لم يسمح للتجار الاوربيين عامة بالتغلغل الى داخل البلاد ، وذلك بهدف اقصائهم عن التجارة الداخلية (١١٩) ، واغلاق البحر الاحمر في وجههم وذلك بغية الابقاء عليه كبحر اسلامي خالص (١٢٠) ، لانه يطل على الحرمين الشريفين ، وبالتالي لم يكن بإمكان المسلمين أن يسمحوا لاية سفينة أن تبحر في هذا البحر الذي اعتبروه « بحرا مقدسا » .

وعلى الرغم من اعتداء اثنين من القراصنة البيازنة ، عام ١١٧٣ م ، على سفينة جنوية تحمل كمية من الشب تعود الى شمس الدولة تورانشاه (١٢١) ، شقيق صلاح الدين (١٢٢) ، إلا أن العلاقات التجارية بين بيزا ومصر كانت تتوطد يوما بعد آخر ، حتى أن البيازنة شاركوا في الدفاع عن الاسكندرية عندما هاجمها نورمان صقلية عام ١١٧٤ م وكافأهم صلاح الدين على موقفهم هذا بأن أعفاهم من بعض الضرائب ، ووضع حدا لعدد من المضايقات التي كانوا يتعرضون لها ، كاجبارهم مثلا ، على بيع سلعهم

(117) Ibid., PP. 258 — 59 .

(118) Ibid., PP. 259 — 60 .

(119) Labib, ' Egyptian commercial policy. P. 66.

(120) Fischel, ' The Spice trade ' , P. 160 .

(١٢١) انظر تفاصيل هذه الحادثة في آمري :

Amari, op. cit., P. 262.

(١٢٢)

« ويشير آمري في الوثيقة نفسها الى ان السلطان صلاح الدين قد اقطع أخاه شمس الدولة تورانشاه مدينة الاسكندرية . وبالرغم من أن الشب كان من محتكرات الدولة إلا أن صلاح الدين كان قد بعث بأوامر الى أخيه بأن يصدر هذه الحمولة من الشب . انظر :

Amari, PP. 262 F.

وتعاقبت سفارات بيزا الى مصر ما بين ١١٧٦ - ١١٨٠ م وتمكنت بفضلها من اطلاق سراح البيازنة الذين وقعوا أسرى أثناء الحرب بين المسلمين والصليبيين وتجديد الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البيازنة في مصر من قبل ، وبصفة خاصة ما يتعلق بجالياتهم في الاسكندرية وحماية التجار البيازنة واموالهم في مصر والمدن الشامية والداخلية (١٢٤) ، ويفسر هذا ازدياد النشاط التجاري للبيازنة في مدينة حلب في أواخر القرن الثاني عشر ومستهل القرن الثالث عشر (١٢٥) .

وفي عام ١٢٠٨ م ألقت السلطات المصرية القبض على عدد من التجار البيازنة في ميناء الاسكندرية . ووفقا للخطاب الذي بعثته حكومة بيزا الى الملك العادل في ذلك العام ، مع سفيرها مارزوكو تيبيرتي Marzucco Teperti ، فان التجار البيازنة كانوا يتاجرون في بيروت ، ومن ثم اتجهوا الى قبرص ، حيث قاموا بأعمال تجارية فيها ، وبعد ذلك اتجهوا من قبرص الى مصر ، ودخلوا ميناء الاسكندرية ودفعوا الرسوم الاعتيادية ، وأقاموا في المدينة أياما ، ثم اشترؤا عددا من السلع والمتاجر ، من ضمنها « سمك البوري » وعندما طلبوا السماح لهم بالسفر احتجزتهم السلطات المصرية في الاسكندرية بحجة أنهم قبارصة وليسوا ببيازنة ، مما أدى الى فساد تجارتهم من السمك (١٢٦) . وقد تمكن السفير البيزاوي تيبيرتي من تسوية المسألة مع الايوبيين وتوقيع معاهدة تجارية مع السلطان الملك العادل في العام نفسه (١٢٠٨ م) اشتملت على تثبيت امتيازات البيازنة في مصر وملكيتهم لفندقهم وكنيسة القديس نيقولا والحمامات الخاصة بهم في الاسكندرية . وتعهد السلطان أن يقوم باصلاح فندق البيازنة وكنيستهم في الاسكندرية ، على نفقته وبألا يزيد الضرائب الاعتيادية على البضائع والسلع وأن يستمر اعفاء البيازنة من الضرائب المتعلقة بالذهب

(123) Heyd, op. cit., 1, P. 397 .

(124) Amari, op. cit., PP. 264 , 266 , 268 ; Brand, op. cit., P. 20 ; Beazley, op. cit., 11, P.431 .

(125) Beazley , op. cit., 11, P. 445 .

(١٢٦) انظر تفاصيل هذه الحادثة :

Amari, op. cit., PP. 70 — 71 .

وبعثت الحكومة البيزاوية عام ١٢١٥ م سفارة أخرى الى القاهرة برئاسة بنديتو ديل فرنانشو Benedettodel Vernaceio ، الذي تمتع بصلاحيات مطلقة من حكومته (١٢٨) . وتمكنت السفارة من عقد معاهدة مع الملك العادل في ٢٩ مارس ١٢١٥ م ، اشتملت على تعهد الملك بضمان حرية البيازنة وأعمالهم التجارية في مصر ، والحماية الشخصية للبيازنة المقيمين أو المترددين الى الديار المصرية ، وتجديد ملكيتهم لفندقهم وكنيستهم في الاسكندرية . وثبتت المعاهدة الرسوم التي يتوجب على البيازنة دفعها في الموانئ المصرية ، كما نصت المعاهدة على الاعفاءات الجمركية التي يحق لهم التمتع بها . وأكدت المعاهدة حرص الجانبين على احترام بنودها وضمان تنفيذها (١٢٩) . وعلى اثر هذه المعاهدة أطلقت السلطات المصرية عددا من الاسرى البيازنة المعتقلين في مصر (١٣٠) .

وقد واجهت تجارة بيزا في مصر ضعفا نتيجة عودة الحكومة البيزاوية الى السياسة المزدوجة في علاقاتها مع المسلمين والصليبيين . فلقد تحالفت بيزا مع الصليبيين وشاركتهم في الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت دمياط (١٣١) ، على الرغم من المعاهدات التي وقعتها مع الملك العادل عام ١٢٠٨ وعام ١٢١٥ م . كما أن قوات بيزاوية اشتركت في حملة لويس التاسع ضد مصر (١٣٢) ولكن السلطات المصرية - فيما يبدو - لم تتخذ أية اجراءات انتقامية ضد التجار البيازنة المقيمين في الديار المصرية والمدن الشامية أو المترددين عليها ، مع أن هذه السياسة البيزاوية تعتبر انتهاكا لاهم ما نصت عليه المعاهدات الموقعة بين البيازنة من جهة والفاطميين والايوبيين من جهة أخرى .

الا أننا نستطيع القول ان التجارة البيزاوية في مصر والشام قد

(127) Ibid., P. 81 .

(128) Ibid., PP. 81 — 82 .

(129) Ibid., PP. 280 — 81 .

(130) Heyd, op. cit., 1, PP. 412 — 13 .

(131) Conder, op. cit., P. 326 .

(١٣٢) انظر عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٨٤ .

عانت تدهورا كبيرا منذ أواخر القرن الثالث عشر ، ويرجع ذلك الى ضعف جمهورية بيزا من جهة وسقوط مملكة بيت المقدس عام ١٢٩١ م من جهة ثانية ، كما يرجع أيضا الى المراسيم البابوية ، التي حرمت المتاجرة مع المسلمين . ولكن على الرغم من كل ذلك فقد كانت الجالية البيزاوية وقنصلها لا تزال تمارس نشاطها التجاري في الاسكندرية عام ١٣٠٥ م وان قرار الحكومة البيزاوية في عام ١٣٢٢ م ، بمنع رعاياها من نقل الخشب والحديد والقار الى مصر والشام (١٣٢) ، دليل على استمرار النشاط التجاري للبيزانة في هذين البلدين . كما أن السفارة البيزاوية التي تفاوضت مع السلطان برقوق عام ١٣٨٥ م ، بشأن التعويض عن بعض الاضرار التي لحقت بعدد من التجار البيزانة في مدينة الاسكندرية (١٣٤) دليل على استمرار النشاط التجاري للبيزانة في مصر والشام وبقاء الجالية البيزاوية فيها حتى أواخر القرن الرابع عشر .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للجالية في مصر والشام ، فيبدو انه يعود الى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، فقد استولى أمير سالرنو (١٠٥٣ - ١٠٧٧ م) على عدد من المراكب الجنوبية أثناء مرورها على مقربة من بلاده ، مما يدل ، كما يعتقد هايد ، على أنها كانت تعتزم اختراق مضيق مسينا في طريقها الى موانئ مصر والشام (١٣٥) . كما ان حاجا انكليزيا يروي انه جاء الى يافا عام ١٠٥٦ على ظهر اسطول جنوي (١٣٦) . ومن المؤكد ان مدينة جنوة كانت تحرص على التودد الى الفاطميين ، ولهذا فقد عقد مندوب عنها معاهدة مع الحكومة الفاطمية ، عام ١٠٦٣ م . كما وافق بعض الخلفاء في أواخر العصر الفاطمي على حماية رعايا جنوة أثناء اقامتهم بأراضي الدولة الفاطمية ، ولهذا توافد كثير من التجار الجنوبية الى الاسكندرية لاستيراد بعض السلع ومن بينها الشب والنظرون ، التي احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم (١٣٧) . ولقد أكدت وثائق الجنيزة التي تعود الى مستهل القرن الثاني عشر ، ازدهار النشاط

(133) Heyd, op. cit., 11, P. 49.

(134) Amari, op. cit., PP. 315 --- 16 .

(135) Heyd, op. cit., 1, P. 124 .

(136) Ashtor, op. cit., P. 196

(١٣٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

التجاري للجنوية في مصر ، حيث كانوا ينقلون اليها الاخشاب (١٣٨) . وفي الوقت الذي كان فيه التجار الجنوبية يقومون بالمتاجرة في مصر كان بعض أبناء جلدتهم يساعدون الصليبيين في الاستيلاء على الساحل الشامي وربما كان هذا أحد الاسباب التي دفعت السلطات المصرية الى اعتقال التجار الجنوبية في مدينة القاهرة عام ١١٠٣ م (١٣٩) .

ولقد ازدهر النشاط التجاري لجنوة في مصر والشام خلال النصف الاول من القرن الثاني عشر . فمن المعروف أن سفينة جنوية قد تحطمت في البحر عام ١١٣١ م أثناء عودتها من الاسكندرية وهي محملة بالسلع والتاجر الشرقية (١٤٠) . كما أن الوثائق الجنوبية ، المتعلقة بنشاط أهل هذه المدينة في مصر والشام ، تذكر مدينة الاسكندرية أكثر من أي ميناء آخر في الحوض الشرقي للبحر المتوسط كهدف لرحلاتها التجارية ، التي تنقل منها الشب والتوابل والفلفل والسلع الشرقية الاخرى (١٤١) .

وفي الربع الاخير من القرن الثاني عشر ، كانت سفن جنوة تقوم بنقل القمح من المغرب وبلاد الاندلس الى الاسكندرية ، كما كانت تقوم بنقل الحجاج المسلمين من شمال افريقية الى مصر والشام . ومن المعروف أن ابن جبير قد وصل الى ميناء الاسكندرية ، في أيام السلطان صلاح الدين ، على ظهر واحدة من سفن الجنوبية ، وهذا يدل على مدى نشاطهم ورحلاتهم الى الموانئ المصرية آنذاك (١٤٢) .

ويبدو أن الجنوبية ارتبطوا بعلاقات ودية مع مصر في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي بدليل أن الحكومة الجنوبية وقعت عام ١١٧٧ م معاهدة مع السلطان صلاح الدين كانت أساسا متينا للعلاقات التجارية بين جنوة ومصر لسنوات طويلة (١٤٣) . وخلال شتاء سنة ١١٨٧ - ١١٨٨ م كان

(138) Goitein, A mediterranean society, 1, P. 46 .

(139) Ibid., PP. 45 , 59 .

(140) Beazley, op. cit., 11, P. 423 .

(141) Byrne, ' Genoese trade ' , PP. 201 — 202 ; Beazley, op. cit., 11, P. 423 .

(١٤٢) ابن جبير : ص ١٢ .

(143) Beazley, op. cit., 11, P. 423 .

في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركبا تجاريا من جنوة وبيزا والبندقية ، ومن المعروف أن أكثر التجار كانوا يأتون الى مصر في فصلي الربيع والخريف ، كما أن قادة السفن كانوا يفضلون أن يقضوا الشتاء بين أهليهم ، فلا بد من القول بأن ما كان يأتي الى مصر في فصول الربيع والخريف والصيف ، لم يقتصر على سبع وثلاثين سفينة بل جاء الى الاسكندرية مئات من السفن (١٤٤) .

ويعتبر موضوع العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، خلال القرن الثالث عشر ، من أعقد الموضوعات وأصعبها ، وذلك نتيجة انعدام المعلومات التي تتعلق بهذه المسألة . فالمصادر المتداولة لا تمدنا الا بمعلومات مبشرة حول وصول مراكب أو سفارات جنوية الى مصر أو رحيلهم عنها ، دون أن نخبرنا عن أهداف هذه السفارات أو النتائج التي تحققت من مهماتها .

ويبدو أن النشاط التجاري لجنوة في مصر والشام في عصر السلطان الايوبي العادل كان مزدهرا ، فعلى الرغم من عدم معرفتنا بتوقيع أية معاهدات تجارية بين الحكومة الجنوية والسلطان الملك العادل ، غير أنه من المؤكد - كما يقول هايد - أنه كان بالاسكندرية قنصل جنوي يشرف على المصالح التجارية لبلده فيها (١٤٥) ومن ناحية أخرى فإننا نعلم أن السلطان العادل ارتبط بعلاقات طيبة مع بعض الجنوية ، والدليل على ذلك ما يرويه المقريزي عن علاقة السلطان العادل مع أحد كبار التجار الجنوية ، فهو يروي قدوم التاجر كليام الفرنجي الجنوي (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) الى القاهرة ، فاتصل بالملك العادل وأهدى اليه نفائس ، فأعجب العادل به ، وأمره بملازمته ، وكان كليام - كما يقول المقريزي في باطن الامر « عينا للفرنج يطالعهم بالاحوال » ، فقبل هذا للعادل فلم يلتفت الى ما قيل عنه (١٤٦) . وفي عام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م أمر الملك العادل « أن يقيم معه كليام الفرنجي الجنوي بدار الوزارة » (١٤٧) . يضاف الى ذلك أن دراسة العقود التجارية

(144) Heyd, op. cit., 1, P. 399 .

(145) Heyd, op. cit., 1, PP. 414 — 15 .

(١٤٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ١٧٣ .

(١٤٧) المصدر السابق : ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٠ .

الجنوية أثبتت أنه كان للتجار الجنوية نشاطات واضحة في حلب ودمشق في مستهل القرن الثالث عشر (١٤٨) .

وعلى الرغم من أن أهل جنوة شاركوا في الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٨ م (١٤٩) ، وفي حملة لويس التاسع عام ١٢٤٩ م (١٥٠) ، ضد مصر ، الا أننا لا نستطيع القول أن تلك المشاركة قد أدت الى انقطاع في العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، وذلك لاننا لا نجد ذكرا لأية اجراءات معادية للجنوية في مصر ، أثر وقوع هاتين الحملتين . وإذا كانت السلطات المصرية قد اتخذت مثل هذه الاجراءات فربما كانت من قبيل تشديد المراقبة على التجار الفرنجة عامة في مصر أثناء الاحداث حتى اذا ما زال الخطر أعيدت الى التجار حريتهم وسمح لهم بمواصلة أعمالهم التجارية وفق الامتيازات التي يتمتعون بها في الديار المصرية .

ويلاحظ أن الضعف الذي أصاب تجارة جنوة في المدن الصليبية عامة وعكا بصفة خاصة ، في أواسط القرن الثالث عشر ، نتيجة حرب دير القديس سابا بينهم وبين البنادقة وبالتالي طردهم من مدينة عكا ، كما بينا في الباب السابق ، قد دفع الجنوية للتقرب من حكام مصر المسلمين بغية تعزيز نشاطها التجاري في الديار المصرية من جهة والتحالف مع المسلمين في مصر والشام للانتقام من منافسيهم البنادقة من جهة أخرى . ووضح ذلك كله في العلاقة الطيبة التي قامت ، بين الجنوية والظاهر بيبرس ، ففي عام ٦٣١ هـ / ١٢٦٢ م وصل الى القاهرة رسول من جنوة ، فأحسن الظاهر اليه وأكرم وفادته (١٥١) . وعلى الرغم من أن المصادر لا تكشف عن أهداف هذه السفارة والمناقشات التي دارت بينها وبين الحكومة المصرية آنذاك ، الا أنه يمكن القول بأنها تتعلق بتجديد امتيازات الجنوية في مصر ، وقيام التحالف بين مصر وجنوة ضد الصليبيين في عكا . ويتضح ذلك مما ذكره ابن عبد الظاهر من أن السلطان الظاهر بيبرس قد وقع تحالفا مع الجنوية

(148) Byrne, ' Commercial Contracts ' , P. 143 .

(١٤٩) عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٣٦ ، ٣١٠ .

(150) Runciman , A Hist. of the Crusades, 111, PP. 237 , 356 , 363 .

(١٥١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٩٩٥ ، ايضا انظر : المقريزي السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٥ .

في عكا (١٥٢) .

ولقد حرصت حكومة جنوة حرصا شديدا على ألا يضعف الصراع بين المسلمين والصليبيين بالشام من علاقاتها التجارية مع مصر ، بل أن انتصارات الظاهر بيبرس على الصليبيين قد قوبلت بالترحاب من الجنوية (١٥٣) . وعلى الرغم من أنهم عانوا خسائر فادحة من جراء فتح الظاهر بيبرس لامارة انطاكية عام ١٢٦٨ م ، فقد استمروا في نشاطهم التجاري مع المسلمين في مصر والشام ، كما نجد أنهم كانوا يصدرون الخشب والحديد والقار الى مصر عام ١٢٧١ م على الرغم من تحريم البابوية نقل هذه السلع الى المسلمين (١٥٤) . كما أننا نسمع بوصول سفارة جنوية تحمل « هدية سنية » الى القاهرة عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٥-١٢٧٦ م (١٥٥) ، ولا تسعفنا المصادر في الكشف عن أهداف هذه السفارة ولكن يبدو أنها قد حلت بعض المسائل المعلقة بين جنوة ومصر ، والدليل على ذلك أن الظاهر بيبرس قد أصدر وقتذاك عدة مراسيم تضمن للجنوية الامن والحماية لأعمالهم التجارية في مصر (١٥٦) . ولقد عادت السفارة الجنوية الى بلادها بكل الحفاوة والتكريم من السلطان (١٥٧) .

ولم يمض عشر سنوات على السفارة الجنوية السابقة حتى وصلت (١٢٨٥/٦٨٤ م) « رسل من الفرنج بتقادم من عند الجنوية (١٥٨) » . ويعتقد لين بول Lane Poole أن معاهدة تجارية قد تم توقيعها بين الجنوية والسلطان المنصور قلاوون آنذاك (١٥٩) ، وإذا كنا لا نستطيع الجزم بتوقيع مثل هذه المعاهدة ، إلا أنه يمكننا القول أن النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام كان مزدهرا آنذاك .

ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين جنوة ومصر نتيجة استيلاء المماليك

(١٥٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٠٧٥ - ١٠٧٦ .

(١٥٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٤٥ .

(154) Hodgson, op. cit., P. 138 ; Runciman, A Hist. of the crusades, 111, PP. 325 — 26 .

(١٥٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٤ .

(١٥٦) المصدر السابق : ج ٧ ، ص ٤٤ .

(١٥٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢١ .

(١٥٨) المصدر السابق : ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٩ أيضا : ابن الفرات : تاريخ

الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(159) Lane — Pool, A Hist. of Egypt, P. 281 .

عام ١٢٨٧ م على سفينة تجارية جنوية ، محملة بالسلع والمتاجر ، كانت راسية في ميناء الاسكندرية عقب عودتها من الشام . ورفض السلطان المنصور قلاوون التخلي عن السفينة وحمولتها قبل دفع فدية كبيرة (١٦٠) . ولقد ازدادت العلاقات بين جنوة ومصر سوءا نتيجة فتح السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ١٢٨٩ م . وذلك أن هذه المدينة كانت قد شكلت قومونا برئاسة أحد الشخصيات الجنوية (٦٨٦/١٢٨٧) يدعى بينديتو زكريا (١٦١) . وأعلنت حكومة جنوة بموجب ذلك ، حمايتها لمدينة طرابلس ، ولهذا فان فتح السلطان قلاوون لها كان ضربة قاسية للنشاط التجاري الجنوي لافي الشام فحسب وانما في شرق البحر المتوسط (١٦٢) . وأثر ذلك بدأ آل زكريا الجنوية بأعمال قرصنة انتقامية ضد المسلمين ، نتيجة لما حل بهم في طرابلس ، وهذا الحق بدوره أبلغ الاضرار في تجارة جنوة في مصر . فبعد استرداد السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس بأشهر قليلة ، قام بينديتو زكريا الجنوي (١٢٨٩) باختطاف سفينة مصرية « كانت قد خرجت من الاسكندرية وفيها تجار وأموال ، وذلك بالقرب من شواطئ آسيا الصغرى (١٦٣) » . كما قام أحد القراصنة الجنوية بمهاجمة ميناء مصري صغير ، وهو ميناء الطينة ، الواقع في الدلتا (١٦٤) . ويذكر المؤرخ المعاصر ابن عبد الظاهر أن الجنوية المقيمين في الاسكندرية قد خافوا أن تنعكس عليهم أعمال القرصنة التي كان يقوم بها بينديتو زكريا ، وغيره من الجنوية فركبوا في مركب وهربوا (١٦٥) . ولما بلغ السلطان المنصور قلاوون ذلك « أمسك من بقي من الجنوية في الثفور ، ولم يتعرض الى شيء من أموالهم وضيق المسالك على جنس الجنوية ، وتبرا منهم أهل عكا وجميع الفرنج » . وعندما ذهب بينديتو زكريا الى مدينة جنوة « أنكروا عليه ذلك

(160) Heyd, op. cit., 1, P. 415 .

(١٦١) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام ، ص ١٦٥ .

(162) Beazley, op. cit., 111, P. 477 .

(١٦٣) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام ، ص ١٦٥ .

(١٦٤) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام ، ص ١٦٥ .

(١٦٥) المصدر السابق : ص ١٦٥ .

وأخذوا منه التجار والمال (١٦٦) » .

وفي عام ١٢٩٠ ، بعثت الحكومة الجنوبية سفارة من قبلها الى القاهرة برئاسة البرتو سبينولا ، وجلب البرتو معه التجار المصريين الذين أسرههم بينديتو زكريا في العام الماضي ، كما جلب معه أموال هؤلاء ومتاجرهم . وأبلغ السفير السلطنة بالنيابة عن حكام جنوة ، أن القومون الجنوبي غير مسؤول عن أعمال القرصنة التي يقوم بها رعاياه ، أمثال آل زكريا ، ورجا السفير أن تعود العلاقات الودية بين جنوة ومصر الى ما كانت عليه . وبعد أن تردد السلطان المنصور قلاوون في هذا الامر ، وافق على توقيع هدنة مع الجنوبية « لاجل عمارة الثغور » كما يقول ابن عبد الظاهر (١٦٧) ويرى هايد أن هذه الهدنة كانت في حقيقتها معاهدة سلام وتجارة وتعتبر بداية مرحلة جديدة في العلاقات التجارية بين جنوة ومصر ، وذلك لانها اعطت التجار الجنوبية كل الضمانات اللازمة لهم في مصر ، ومنحتهم الحماية على ارواحهم وأموالهم وممتلكاتهم في الديار المصرية ، وأعفتهم من بعض الرسوم الجمركية في موانئ مصر وأسواقها (١٦٨) . ومن ناحية أخرى فقد تعهد السفير الجنوبي بأن يحترم الجنوبية رعايا السلطان وأرضه ، وبحماية مراكب المسلمين ومتاجرهم وبأن يتعاون الجنوبية مع أي طرف ضد المسلمين في مصر والشام (١٦٩) .

لم يلحق سقوط مملكة المقدس الصليبية (١٢٩١ م) أضرارا «بالغة» بالجنوية ، كما هو الحال بالنسبة الى البنادقة ، وذلك لان تجارة جنوة في هذه المملكة كانت تعاني آنذاك ضعفا نتيجة سيطرة البنادقة وتفوقهم في عكا بصفة خاصة . فضلا عن ذلك كله فإن « الامان الشريف » الذي أصدره السلطان الاشرف خليل (١٢٩٢ - ١٢٩٣ م) (١٧٠) قد شمل الجنوبية كما أشرنا من قبل (١٧١) ولكن على الرغم من كل ذلك فإن جنوة قد

(١٦٦) المصدر السابق : ص ١٦٥ .

(١٦٧) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٦٨) Heyd, op. cit., 1, PP. 417 — 18 .

(١٦٩) ابن عبد الظاهر : تشریف الايام ، ص ١٦٦ .

(١٧٠) ابن عبد الظاهر : الاطراف الخفية ، ص ٤٥ .

(١٧١) انظر ما سبق ص ٢٠٠ .

لجأت في تلك الفترة الى تهريب السلع والمتاجر الى الديار المصرية، وبخاصة الخشب والحديد والقار . ولقد أثبت بعض الباحثين أن الموثقين الجنوبية كانوا لا يسجلون في العقود التجارية هذه المواد ، وذلك خوفا من الحرمان الكنسي (١٧٢) .

وهكذا فقد استمر النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام في مستهل القرن الرابع عشر ، وظلت جالياتهم في مدن وموانئ السلطنة المملوكية تتمتع بامتيازاتها التجارية التي ضمنتها لها معاهدة عام ١٢٩٠ م (١٧٢) . ولكن ساءت العلاقة بين جنوة ومصر عام ٧١١ هـ / ١٣١١ وقد انعكس ذلك على أحوال الجالية الجنوبية في الثغور المصرية ونشاطها التجاري ، حيث أن آل زكريا الجنوبية ، أصحاب جزيرة خيوس ، قد أسروا في هذا العام رسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذين كانوا في طريقهم الى خان مغول القفجاق اضافة الى رسل طقاي الذين كانوا قد أرسلوا الى السلطان الناصر محمد ، وبلغ عدد الاسرى جميعا حوالي ستين أسيرا ، على ما يروي المقرئزي (١٧٤) . ورفض آل زكريا اطلاق سراح الاسرى قبل الحصول على فدية قدرها ستون ألف دينار . وعندئذ رد السلطان على ذلك فأمر باعتقال « تجار الفرنج » في الاسكندرية ودمياط ومصادرة ممتلكاتهم ، « فأحيط بحواصلهم وحبسوا بأجمعهم » . ولكن سرعان ما تمت تسوية لهذه المسألة ، عندما تعهد أحد التجار الجنوبية المعتقلين ، للسلطان الناصر باحضار الرسل ومن معهم من المصريين المعتقلين في خيوس (١٧٥) .

وعلى الرغم من بعض أعمال القرصنة التي قام بها بعض الجنوبية ضد السواحل الشامية كاغارتهم على بيروت (عام ١٣٣٣/٧٣٤ - ١٣٣٤ م) (١٧٦) ، فإننا نستطيع القول أن العلاقات التجارية بين جنوة ومصر والشام كانت مزدهرة خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، لان الجنوبية كانوا القوة

(١٧٢) Prawer, op. cit., PP. 398 — 99 ; Mayer, op. cit., P. 174

(١٧٣) Beazley, op. cit., 111, P. 484 .

(١٧٤) المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠١ .

(١٧٥) المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٠٢ .

(١٧٦) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٩٧ .

الرئيسية المهيمنة على تجارة الرقيق في منطقة البحر الاسود ، منذ استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م . وهذا أمر يهم سلاطين الممالك ، خاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ - ١٣٤١ م) الذي « أكثر من جلب الممالك والجواري وأكثر من طلب التجار اليه وبذل لهم المال ، وكان اذا أتاه بالجلبة من الممالك بذل له فيها أغلى القيم » (١٧٧) .

وضعف النشاط التجاري للجنوية ، نتيجة حملة بطرس الاول ، لوزيجنان ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ ، وقد أكد المقريري اشتراك الجنوية بهذه الحملة « بفرابين » (١٧٨) . وقد عانى التجار الجنوية في الاسكندرية - كزملائهم من التجار الفرنجة - من أعمال الاعتقال والمصادرة التي قامت بها السلطات المملوكية أثناء احتلال الصليبيين للمدينة .

وقد سارعت جنوة الى ارسال سفارة الى القاهرة بغية تبرئة نفسها من انه لم يكن لها أي دور في حملة بطرس لوزيجنان ، وحاولت اطلاق سراح تجارها المعتقلين ، وبالتالي استئناف نشاطها التجاري في مصر والشام . فيروي القاضي عبد الباسط أنه في عام (٣٦٧ هـ / ١٣٦٥ م) « قدمت الديار المصرية رسل ممتلك جنوه ومعهم هدية جلييلة وستون من الاسرى من أهل الاسكندرية ، وأن هؤلاء الاسرى كانوا نصيبه في واقعة الاسكندرية (١٧٩) ، وهو يعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الاسكندرية ، الا بعد أن حدثت ، وأنه متى قدر على ملك قبرص قبضه وقتله ، فأجيب الرسول الجنوي بالشكر والثناء وأثنى عليه الاسرى خيرا ، وأنهم لما وصلوا اليه أحسن اليهم وكساهم ورتب لهم ما يليق بهم حتى بعث بهم » (١٨٠) . وفي العام التالي (٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) قدمت سفارة أخرى ، كما يقول المقريري والقاضي عبد الباسط من « ممتلك جنوه » بمراسلة يسأل فيها أن يمكن تجارهم من النزول الى الاسكندرية على العادة في ذلك ، فأجيبوا الى ذلك (١٨١) . وبذلك

(١٧٧) المقريري : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(١٧٨) المقريري : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٧ .

(١٧٩) المقريري : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(١٨٠) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ج ١ ، ورقة ٨٠ أ .

(١٨١) المصدر السابق ، ج ١ ورقة ٨٢ ب ، المقريري : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ،

استأنف الجنوية نشاطهم التجاري في مصر ، بعد انقطاع دام قرابة عام ، على حين لم يتمكن البنادقة ، كما بينا ، من استئناف نشاطهم التجاري في مصر والشام قبل توقيع معاهدة الصلح بين قبرص ومصر عام ١٣٧٠ م .

الا أن تدهورا خطيرا أصاب العلاقات التجارية بين جنوة ومصر خلال العقدين الاخيرين من القرن الرابع عشر ، وذلك أن تفوق النشاط التجاري للبنادقة ، منذ عام ١٣٧٠ ، في بيروت والاسكندرية كما يرى لايدوس Lapidus ، قد أثار الحنوية (١٨٢) . فأغاروا على الموانئ المصرية والشامية وهاجموا السفن الاسلامية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ولعل أبرز هذه الغارات مهاجمة الاسطول الجنوبي (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) لمدينة صيدا والاستيلاء على بعض المراكب في مينائها ، والاغارة على مدينة بيروت ، في العام نفسه ، واستولى المغيرون الجنوية من بيروت على سفينتين تجاريتين للبنادقة (١٨٢) . وعلى الرغم من أن صلحا قد تم توقيعه بين الجنوية والسلطان المملوكي برقوق (٧٨٨ هـ / ١٣٨٥ - ١٣٨٦) (١٨٤) فقد استولى القراصنة الجنوية على سفينة اسلامية (٧٩١ - ٧٩٢ هـ / ١٣٨٨ - ١٣٨٩ م) تحمل بعض أقارب السلطان برقوق وعددا من التجار المسلمين (١٨٥) ، وهي في طريقها من بلاد الشام الى مصر ، وعندما علم السلطان بذلك « شق عليه ذلك غاية المشقة وطلب الى جميع البلاد الساحلية أن يقبض نوابها على كل من عندهم من الفرنج وتجار وغيرهم » . ويروي المقريري : « أن شخصا قدم من ثغر الاسكندرية وأنه كان قد رأى نائب السلطنة فيها وحاشيته قد قبضوا على من بثر الاسكندرية من الفرنج وختموا على حواصلهم وتسلموا

(١٨٢) Lapidus, Muslim cities, P. 27 .

(١٨٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٣١ - ٣٢ .

(١٨٤) المقريري : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ .

(١٨٥) عن أعمال القرصنة الجنوية ضد الموانئ المصرية والشامية ، ما بين ١٢٨٢ -

١٣٨٧ ، انظر : المقريري : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٩٠ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ،

٥٦٢ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ، ص ٧ ، عاشور : العصر

الماليكي ص ٢٧٨ .

أمتعتهم وكان ما كان لهم « (١٨٦) . كما أمر السلطان بمنع دخول التجار الجنوية الى بلاد المسلمين « حتى يحضر الجنوية الاسرى (١٨٧) » واسرعت جنوه في ارسال سفارة الى القاهرة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م ومعها جميع الاسرى المسلمين فضلا عن هدية ثمينة الى السلطان برفوق وتم توقيع الصلح بين مصر وجنوه ، و « أمر السلطان بفك خواتم حواصل الفرنج وخلع على القاصد » (١٨٨) . الا أن هذا الصلح لم يوقف أعمال القراصنة الجنوية ضد الموانئ المصرية والشامية وبالتالي فقد كان النشاط التجاري للجنوية في مصر والشام ، يعاني ضعفا وصعوبات بالغة ، وذلك في أواخر القرن الرابع عشر .

الفصل الثاني

السلطان البحري والاساطيل الحربية

لقد حرصت المدن الإيطالية على تنظيم أساطيلها التجارية المتجهة الى مصر والشام ، الا أن ظروفًا معينة لعبت دورًا حاسمًا في تحديد مواعيد رحلات هذه الأساطيل ، وذلك أن حركة الرياح في البحر المتوسط قد حددت المواعيد الملائمة للملاحة بين المدن الإيطالية والسواحل المصرية والشامية (١) ، كما أن مواعيد الحج الى بيت المقدس قد لعبت دورًا هامًا في تحديد مواعيد اقلاع السفن الإيطالية وعودتها ، وذلك لأن نقل الحجاج المسيحيين كان بالنسبة الى المدن الإيطالية موسمًا تجاريًا هامًا ، جمعوا فيه ، في بعض الأحيان ، بين نقل السلع والحجاج وتقاضوا أجورًا عالية من هؤلاء الحجاج ، وبتعبير آخر فإن نقل الأساطيل الإيطالية للحجاج الى الأماكن المقدسة كان جزءًا لا يتجزأ من النشاط التجاري للمدن الإيطالية في مصر والشام (٢) . ويضاف الى ذلك أن مواعيد وصول التوابل ، وغيرها من سلع ومتاجر الشرق الأقصى ، الى الموانئ المصرية والشامية ، قد لعبت بدورها دورًا كبيرًا في تحديد مواعيد رحلات الأساطيل التجارية الإيطالية الى مصر والشام (٣) .

واقترنت المدن الإيطالية ، حتى أواسط القرن الثالث عشر على القيام برحلة تجارية واحدة ، في العام ، الى مصر والشام ، وكانت أساطيلها التجارية تنطلق في فصل الربيع ، وبخاصة في شهر أبريل أو مايو ، وتعود الى إيطاليا في أغسطس أو سبتمبر ، أو أنها كانت تبخر في شهر أغسطس أو سبتمبر ، وتعود الى إيطاليا في أواخر يونيو من العام التالي ، بعد أن

- (١٨٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك : ج ٩ ، ص ٣٣ ، انظر أيضا : المقرري : السلوك ج ٣ ، قسم ٢ ص ٥٨١ - ٥٨٥ .
- (١٨٧) ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٨ .
- (١٨٨) عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول : ورقة ١٤٧ أ ، المعيني : تاريخ البدر في اوصاف أهل الاصر ، مخطوط ، ورقة ١٣١ ب .

- (1) William of Tyre, Hist. of deeds, 1, PP. 548 — 49 .
- (2) Canon, op. cit., PP. 124 , 155 .
- (3) Heyd, op. cit., 11, PP. 440 — 42 .

تمضي فصل الشتاء في أحد الموانئ المصرية أو الشامية (٤) .

غير أن الاساطيل التجارية الإيطالية أخذت ، منذ أواخر القرن الثالث عشر ، تقوم برحلتين تجاريتين سنوياً إلى مصر والشام (٥) وذلك نتيجة استخدام البوصلة والخرائط البحرية . الأولى : رحلة الربيع ، التي يقلع فيها الاسطول من إيطاليا في فبراير ويعود في مايو والثانية : رحلة الصيف ، التي يقلع فيها الاسطول من إيطاليا في أغسطس ويعود في ديسمبر (٦) .

وكان الاسطول التجاري البندقي ، الذي يتجه إلى مصر يتوقف في محطتين تابعتين للبندقية وهما : مودون : Modon وكورون : Coron ثم يتجه إلى كريت ، وبعدها يتجه إلى الإسكندرية مباشرة ، أما إذا كان متجهاً إلى الموانئ الشامية فعليه أن يتابع طريقه من كريت إلى قبرص أو رودس ثم إلى الشاطئ الشامي (٧) .

أما بالنسبة إلى السفن الجنوبية والبيزاوية ، المتجهة إلى مصر والشام ، فقد كان عليها أن تتوقف في أحد الموانئ الصقلية ، ثم إلى كريت وقبرص ورودس إذا كان اتجاهها نحو الشام . أما إذا كان هدفها مصر فكانت تتجه من كريت إلى الشواطئ المصرية مباشرة (٨) . أما طريق العودة ، فالسفن الإيطالية التي تغادر مصر في فصل الصيف إلى الغرب الأوربي بصفة عامة تنطلق من الموانئ المصرية باتجاه الشمال الشرقي ، حيث تتوقف في أحد

- (4) Lane, ' The Economic meaning ' P. 608 ; Idem, Amaritime P. 72 , Atiya, Crusade, Commerce., P. 176 ; Goitein, Amediterranean., P. 317 .

(٥) وضع لين لوحة حدد فيها مواعيد اقلاع سفن البندقية إلى مصر والشام ، وبين أنه من ١٠ إلى ١٥ فبراير موعد اسطول الربيع إلى الشام وفي ٢٥ أغسطس موعد اسطول الصيف إلى بيروت ، وفي ٢٠ أغسطس موعد اسطول الصيف إلى الإسكندرية . انظر تفصيل ذلك :

Lane, ' Rhythm and rapidity ' , P. 110 .

(6) Lane, ' Rhythm ' , P. 110 .

(7) Heyd, 1, PP. 180 — 81 ; Lane, Operation. ; P. 188 .

(8) Heyd, op. cit., 1, P. 182 .

الموانئ الشامية ، أو في جزيرة قبرص قبل أن تجد الرياح المناسبة لتدفع بها غرباً ، أما السفن الإيطالية التي تغادر الموانئ المصرية والشامية في فصل الربيع أو الخريف فانها تتجه مباشرة إلى إيطاليا لأن حركة الرياح ملائمة لاتجاهها (٩) .

وكانت قوانين المدن الإيطالية تحتم على اساطيلها التجارية السفر إلى مصر والشام على شكل قوافل (١٠) ، فالسناو البندقي كان يلزم السفن التجارية المتجهة إلى مصر والشام بالسفر على هيئة قوافل كما أن القوانين البحرية للبندقية لم تسمح بنقل التوابل من الشرق إلى البندقية إلا بواسطة القوافل التجارية . كما ألزمت القوانين الجنوبية السفن التجارية بالسفر إلى مصر والشام على شكل قوافل ، وكان يرافق هذه الاساطيل التجارية ممثل عن حكومة المدينة ، فضلاً عن سفن حربية لحراسة القوافل والدفاع عنها ضد القراصنة (١١) . وكانت قافلة السفن التجارية التابعة للبندقية التي تتجه إلى مصر تتألف من أربع إلى ست سفن ، أما قافلة الشام فقد تألفت من خمس سفن من بينهم سفينتين مخصصتين لنقل الحجاج (١٢) . ولكن ذلك لم يكن قاعدة مقررة ، ففي مستهل القرن الرابع عشر أصدرت حكومة البندقية أوامر تقضي بالآثار السفن التجارية التابعة للبندقية أي ميناء في الشام إذا كان عددها يقل عن سبع سفن (١٣) . أما قافلة السفن التجارية الجنوبية فكانت تتألف من اثني عشر سفينة موزعة بين مصر والشام (١٤) .

- (9) Lane, Amaritime, P. 72 ; Stillman, op. cit., P. 28 .

(١٠) عرفت قوافل الاساطيل التجارية التي تخرج من البندقية باسم Mudua أو Mudae وهي كلمة تعني المدة أو الموسم ، وهي تشير إلى الفترات التي حددتها القوانين البندقية بالنسبة إلى تحميل السفن التجارية المتجهة إلى الشرق ، وفي القرن الخامس عشر أصبحت هذه الكلمة تعني السفن التجارية البندقية التي تحمّل إلى الشرق خلال شهر مارس . انظر : Lane, ' Fleets ' PP. 128 — 29 .

أيضاً صبره ، ص ١١٦ .

- (11) Atiya, crusade, commerce., P. 176 ; Lane; The merchant ' , PP. 143, 45 .

(12) Lane, A maritime, P. 287 ; Heyd, op. cit., 11, P. 453

(13) Lane, ' Operation ' , P. 187 .

(14) Goitein, A mediterranean., 1, P. 317 .

وكانت القوافل الرسمية غالبا ما تعجز عن نقل كميات السلع والمتاجر المدة للتصدير من موانئ مصر والشام ، لذلك كانت تسبقها عادة ، الى كل من الاسكندرية وبيروت سفينة اخرى ، كانت تعرف في البندقية باسم الكوكا Coca ، وكانت الكوكا تنتظر في هذين المينائين حتى وصول القافلة ومن ثم يتم شحنها بالتوابل والبضائع الشرقية الاخرى ، الفائضة عن حمولة السفن التجارية التابعة للقافلة (١٥) .

اما اهم السلع والمتاجر التي تم تبادلها بين المدن الإيطالية ومصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد نقلت المدن الإيطالية من مصر والشام نوعين من السلع ، أولهما السلع المحلية وثانيهما سلع ومتاجر الشرق الأقصى التي تصل الى الموانئ والمدن المصرية والشامية . أمام اهم السلع والمنتجات المحلية ، التي كانت مركز اهتمام النشاط التجاري للمدن الإيطالية فهي :

المنسوجات : نقلت المدن الإيطالية من مصر والشام المنسوجات والاقمشة بأنواعها المختلفة ، وكانت المنسوجات الكتانية من اهم المنسوجات التي نقلتها المدن الإيطالية ، فعلى الرغم من أن أوروبا كانت تعنى عناية فائقة آنذاك بالكتان وصناعاته ، غير ان المنسوجات الكتانية المصرية كانت أكثر متانة ، وذات شهرة عالمية واسعة ، واستمرت تحقق تفوقا على المنسوجات الكتانية الأوروبية حتى القرن الرابع عشر (١٦) . وقد أكدت وثائق الجنيزة أن المنسوجات الكتانية المصرية كانت من السلع الرئيسية في التجارة الدولية منذ القرن الحادي عشر (١٧) . وقد نقل التجار الإيطاليون المنسوجات الكتانية المصرية لا الى الغرب الأوربي فحسب ، وانما الى بيزنطة أيضا (١٨) وبالإضافة الى المنسوجات الكتانية (١٩) نقلت المدن الإيطالية من مصر أنواعا

(15) Heyd, op. cit., 11, P. 447 .

(16) Stillman, op. cit., P. 28 ; Prawer, op. cit., P. 398 .

(17) Goitein, A Mediterranean, PP. 104 — 105 .

(18) Baker, med. routes, P. 18 .

(١٩) كانت أشهر مراكز صناعة المنسوجات الكتانية في مصر : الاشمونين والفرمسا والمحلة وسمنود وبناسير والاسكندرية وتنبس ودمياط . انظر : المقرئ : الخطط ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ٢٣٦ ابن أبياس : نشق الازهار مخطوط ، ورقة ٢٧٧ - ٢٧٨ . ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٦١ - ٦٢ .

اخرى من المنسوجات كالمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية والقصب (٢٠) .

كما نقلت المدن الإيطالية منسوجات من الشام الى الغرب الأوربي وبصفة خاصة المنسوجات الحريرية والقطنية ، التي كانت دمشق مركزا رئيسيا لصناعتها (٢١) ، حتى أنه كان فيها سوق للحريرين وآخر للقطنيين (٢٢) ، كما كانت كل من حلب وحماه مركزا رئيسيا للصناعات القطنية (٢٣) . كما جلب الإيطاليون من مدينة طرابلس المنسوجات الحريرية (٢٤) . ومن مدينة بعلبك الثياب البعلبكية التي ذاع صيتها في الغرب الأوربي (٢٥) .

الشب : تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوربي في العصور الوسطى ، استخدام أحجار الشب بشكل واسع النطاق (٢٦) وذكر ابن مماتي : « أن الشب حجر معروف يحتاج اليه في أشياء كثيرة أهمها صبغ الاحمر ، والروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة ، وهو عندهم ما لا بد منه ولا مندوحة عنه » . وكان يجلب الشب من صعيد مصر والواحات الى الاسكندرية (٢٧) . وأكد الصفدي أن أكثر أنواع الشب المصري هو الشب الأبيض الموجود في الواحات (٢٨) . وقد احتكرت الدولة المصرية حق بيع الشب

(٢٠) انظر تفصيل ذلك في : المقرئ : ثمر دمياط ، مخطوط ، ورقة ٦٠ - ٦١ ، ابن أبياس : نشق الازهار ورقة ٦٥ ، ابن مماتي : ص ٨١ ، المقرئ : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٩ ، ابن شاهين ص ٤١ ، ابن ظهيرة : ص ٦١ - ٦٢ ، عاشور : العصر المالكي ص ٢٨١ .

(21) Goitein ; A Mediterranean ; P. 102 .

(٢٢) ابن نصري : الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٧٣ .

(٢٣) انظر : ابن سعيد : ص ١٥٤ ، ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٦٧ .

(24) Poloner, P. 33 ; Burchard ; P. 16 ; Ludolph ; PP. 19 — 20 .

(٢٥) انظر : ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ ، ابن أبياس : نشق الازهار ، ورقة ١٧١ .

(26) Cahen, op. cit., P. 433 .

(٢٧) ابن مماتي : قوانين السدواوين ، ص ٣٢٨ ، المقرئ : الخطط ج ١ ، ص ١٠٨ ، ربيع : النظم المالية ، ص ٤٥ .

(٢٨) الصفدي : نزعة الملك والمالك ، مخطوط ، ورقة ١٥٠ .

الى التجار الايطاليين الواردين الى مصر ، وفرضت أقصى العقوبات على التجار الذين يحاولون بيع الشب (٢٩) . ولهذا لم يقد التجار المصريون بنقل الشب الى الغرب الاوربي ، وانما جاء التجار الايطاليون الى مصر لشراء هذه المادة وتسويقها في الغرب الاوربي (٣٠) .

النطرون : نقل التجار الايطاليون من مصر النطرون ، وقد حدد المقريري الجهات التي يوجد فيها معدن النطرون في مصر فقال : « أما النطرون فيوجد في البر الغربي من أرض مصر بناحية الطرانة وهو احمر وأخضر ، ويوجد فيه بالفاقوسية شيء دون ما يوجد في الطرانة » (٣١) . وكان ينقل هذا المعدن الى الاسكندرية حيث كان يخزن فيها ريثما يتم بيعه للتجار الايطاليين من قبل الدولة المصرية لانه كان من احتكارات الدولة كما هو الحال بالنسبة الى الشب (٣٢) .

البلسان : ونقل التجار الايطاليون من مصر دهن البلسان أو ما تسميه العامة بالبلسم . وحجر البلسان لا ينبت الا بمصر وبخاصة في المطرية، وكان « ملوك النصارى يعظمونه وهو عندهم أنفس الاشياء » وهذا يفسر لنا اهتمام السلطات المصرية بحماية انتاج البلسان ، وكذلك اهتمام الرحالة اللاتين بالبلسان واصطحابهم كميات كبيرة منه أثناء عودتهم الى أوروبا (٣٣) .

(٢٩) انظر : المقريري : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ، ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(30) Labib ; Handelchsichte., P. 314 .

(٣١) المقريري : الخطط ، ج ١ ص ١٠٩ .

(٣٢) انظر تفصيل ذلك في : ابن مماتي ، ص ٣٢٤ . ابن العمري : التعريف ، ص ١٧٥ ، المقريري : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ ، ربيع : النظم المالية ، ص ٤٥ ، ايضا

Lapidus, ' The grain economy ' , P. 1 .

(٣٣) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٢٣ ، ايضا :

Burchard, P. 62 ; Niccolo , P. 93 ; Mandeville ; PP. 36 — 38 .

الزمرد : « وهو معدن لا يوجد الا بمصر » ومنها « يحمل الى سائر الدنيا » (٣٤) . الا ان انتاجه قد أهمل بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون لقلّة ما يتحصل منه على قول القلقشندي (٣٥) . كما نقل التجار الايطاليون مواد أخرى عديدة مثل الزجاج من مصر والشام (٣٦) وقصب السكر والسكر المصنع (٣٧) من مصر والشام ايضا (٣٨) .

ولقد قام التجار الايطاليون بنقل سلع ومتاجر الشرق الاقصى من المدن والموانئ الشامية والمصرية مثل الحرير والخزف والتوابل الهندية بأنواعها المختلفة مثل الفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل وكذلك الاحجار الكريمة من سيلان ، وخشب البرازيل ، الذي تستخرج منه الصباغة الحمراء (٣٩) . وكانت هذه السلع تصل الى اليمن بواسطة التجار الهنود ثم ينقلها التجار المسلمون عبر البحر الاحمر الى مصر ، حيث يتسلمها التجار الايطاليون . كما كانت تصل هذه السلع الى الشام عن طريق الخليج العربي وفارس ومن ثم الى الشام عبر العراق (٤٠) . كما نقل التجار الايطاليون بعض سلع شبه الجزيرة العربية ، التي كانت تصل الى مدن مصر والشام ، مثل اللؤلؤ من البحرين والعنبر من عمان (٤١) . كما نقل التجار الايطاليون من مدن

(٣٤) انظر تفصيل ذلك : ابن مماتي ، ص ٨١ ، ابن ابيك : الدر الفاخر ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٢٣ .

(٣٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٩ .

(36) Niccolo, PP. 58, 79 ; Haynes ; Glass Through the ages, PP. 52, 55, 57 ;

(٣٧) انظر : ابن دساق : الانتصار ، ص ٤٠ - ٤٦ .

(٣٨) انظر تفصيل ذلك : المقريري : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، ابن شاهين : ص ٣٥ ، ابن ظهيرة : ص ١٢٤ ، ايضا :

Burchard, P. 16 ; Poloner, P. 30 . Stillman, P. 47 .

(٣٩) انظر تفصيل ذلك : ابن بطوطة ، ج ١ ص ٥٩٤ - ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٩ .

Also : Goitein, Amediterranean ; P. 45 ; Stillman, op. cit., PP. 44, 49 ; Atiya, Cursade, commerce., P. 115 .

(40) Lane, Amaritime, PP. 70 — 71 .

(٤١) الدمشقي : محاسن التجارة ، ص ١٩ ، ابن العمري : التعريف ، ص ٨٠ - ٨١ .

الشام بعض سلع آسيا الصغرى ، مثل الشب الذي كان يأتي من آسيا الصغرى الى حلب عن طريق القوافل (٤٢) .

أما بالنسبة الى السلع والمتاجر التي نقلها التجار الايطاليون الى مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فهي :

الخشب : لقد أكدت وثائق الجنييزة أن الخشب كان السلعة الرئيسية التي نقلها التجار الايطاليون من الغرب الاوربي الى مصر خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (٤٣) . وبين القاضي عبد الباسط ، والرحالة نيقولا ان التجار الايطاليين كانوا ينقلون الاخشاب الى مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٤٤) . وكانت هذه المادة ذات أهمية فائقة في مصر للحاجة الماسة اليها للبناء وصناعة السفن (٤٥) .

المعادن : ونقل التجار الايطاليون الى مصر والشام انواعا عديدة من المعادن مثل الحديد ، فالرحالة نيقولا تألم عندما شاهد « التجار المسيحيين » ينقلون الحديد الى مصر (٤٦) . وكذلك نقل الايطاليون الى مصر والشام ، القصدير والنحاس والرصاص ، من إنجلترا وإيرلنده كما يقول ابن سعيد (٤٧) . وأشار المقرئزي الى كثرة جلب التجار الفرنج للنحاس الاحمر ، وذلك لان دولة المماليك كانت تسك فلوسا نحاسية وبخاصة في عهد السلطان برقوق (٤٨) .

ويعتبر الرقيق من أهم ما حملة التجار الايطاليون الى موانئ مصر والشام ، وحتى أوائل القرن الثالث عشر كان التجار الايطاليون ينقلون الرقيق الى مصر من أوربا الوسطى ، الا أن تحول الهنغار والسلاف الى المسيحية قد وضع نهاية مؤقتة لهذه التجارة ، خاصة

(42) Cahen ; ' L'alum Avant phocée ' , PP. 442 — 43 .

(43) Goitein ; Amediterranean , P. 301 .

(٤٤) انظر : عبد الباسط : نيل الامل في ذيل الدول ، ورقة ٤٠ ب ، ايضا :

Niccolo, op. cit. , P. 91.

(45) Niccolo, op. cit., P. 91 ; Goitein , Amediterranean., 1, P. 46

(46) Niccolo, op. cit., P. 91 .

(٤٧) ابن سعيد : ص ١٨١ ، ايضا : عبد الباسط : ج ١ ورقة ٤٠ ب .

(٤٨) المقرئزي : اغانة الامة ، ص ٧١ ، شذر العقود ، ص ٣٩ .

وأن الكنيسة حرمت استرقاق المسيحيين (٤٩) . وفي أواسط القرن الثالث عشر انعش الجنوية هذه التجارة ، ونقلوا أعدادا كبيرة من الرقيق الاتراك والمغول من منطقة البحر الاسود الى مصر لبيعها الى سلاطين المماليك (٥٠) .

ولقد وصلت تجارة الرقيق الى ذروتها في أيام سلاطين بني قلاوون الذين اكثروا من شراء الرقيق وشجعوا التجار الايطاليين على جلب المزيد منهم ، ودفعوا لهم أغلى الاثمان . حتى أن السلطان الناصر محمد عين تاجرا جنوبيا كوكيل له لجلب المماليك من كافا (٥١) .

كما جلب التجار الايطاليون انواعا من المنسوجات والاقمشة من الغرب الاوربي الى مصر والشام ، مثل المنسوجات الكتانية والصوفية من الفلاندرز وإيطاليا (٥٢) ، ولهذا ذاع صيت « الجوخ البندقي » في مصر والشام ، ويقول القلقشندي : « والى البندقية ينسب الجوخ البندقي الفائق لكل نوع من الجوخ » (٥٣) . وكانت الثياب البندقية في مقدمة الهدايا التي كانت تصل الى سلاطين المماليك من ملوك أوربا (٥٤) ، ولقد كان في القاهرة « سوق الجوخيين » ، وهو السوق المخصص « لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج » (٥٥) . واشتكى المقرئزي من مسألة انتشار الاقمشة والمنسوجات الايطالية وتفضيل الناس في مصر والشام للبضائع والاقمشة القادمة من أوربا (٥٦) .

كما نقل التجار الايطاليون الى مصر والشام كل انواع الفراء مثل السنجاب والقاقم والسمور ، من موانئ البحر الاسود ، التي تصلها

(49) McNeill, op. cit., P. 54 .

(٥٠) ابن دقماق : الجواهر الثمين ، مخطوط ، ورقة ٩٣ أ ، ايضا :

Labib, Handelsgeschichte, PP. 327 — 28 .

(٥١) انظر تفصيل ذلك في : المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة التركية ، مخطوط ،

ورقة ٣١ ، شافع بن علي : الفضل المأثور ، مخطوط ، ورقة ٩٨ — ٩٩ .

(52) Labib, Handel, P. 311 ; Pounds , P. 192 .

(٥٣) القلقشندي : ج ٥ ، ص ٤٠٥ .

(٥٤) ابن العمري : التعريف ، ص ٦٣ .

(٥٥) المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

(56) Lapidus, Muslim cities, P. 34 .

بدورها من روسيا الشمالية (٥٧) . وكان في القاهرة سوق خاص للفرايين (٥٨) . كما جلب التجار الايطاليون الى مصر والشام انواعا اخرى من السلع والمتاجر ، مثل الخمور من كريت وغرب اوريا (٥٩) والجبن والعسل من كريت وصقلية وبيزنطة (٦٠) ، والمرجان من ايطاليا (٦١) وزيت الزيتون (٦٢) والزعفران (٦٣) .

ولقد أدركت المدن الايطالية أن أول عنصر من عناصر استقرار نشاطها التجاري في مصر والشام ، هو أن يطمئن تجارها على حياتهم وأموالهم ومتاجرهم ، ولهذا فقد اشتملت المعاهدات ، التي وقعت بين المدن الايطالية وحكام مصر والشام ، على تعهد السلاطين بحماية السفن التجارية الايطالية التي تتحطم أو تفرق في المياه المصرية والشامية ، وتسليم ما يتم انقاذه من السلع والمتاجر الى أصحابها أو لذويهم أو للقنصل الذي يتبع اليها أصحاب السلع (٦٤) . كما منحت السلطات المصرية الحق للسفن التجارية الايطالية بالالتجاء الى الشواطئ المصرية والشامية عندما تضطرها ظروف الطقس أو نفاذ المؤونة أو حالات العطب . وتعهدت أيضا بحماية هذه السفن وتجارها ومتاجرهم . وتعهدت دولة المماليك بحماية ممتلكات التجار الايطاليين الذين يموتون في مصر والشام ، وتسليم ممتلكاتهم وأموالهم الى ورثتهم أو الى قناصلهم أو الى حكوماتهم (٦٥) .

وترتبط حركة نقل السلع والمتاجر بين المدن الايطالية ومصر والشام — خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر — بمسألة الرسوم

(٥٧) ابن بطوطة : ج ١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٥٨) المقرئبي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٥٩) ابن اياس : نشق الازهار ، مخطوط ، ورقة ١٦٨ ب .

(٦٠) ابن سعيد : ص ١٩٧ ، ابو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٩٥ .

(٦١) Goitein, Amediterranean, 1, P. 303 .

(٦٢) Ashtor, op. cit., PP. 251, 253 .

(٦٣) عبد الباسط ، ورقة ٤٠ ب ، ايضا :

Heyd, 11, P. 42 .

(٦٤) Mas latrie, Traité. P. 77 — 78 , 84 ; Amari, 1, P. 286 .

(٦٥) Mas latrie, Traité., PP. 74 , 90 ; Amari ; 1, P. 243 ; Heyd, op. cit., 1, P. 418 .

والضرائب التي كان يدفعها التجار الايطاليون في الموانئ المصرية والشامية . فعندما كانت تصل السفن التجارية الى أحد هذه الموانئ ، يتم تفريغ حمولتها وتفتيشها وتسجيل السلع والمتاجر التي تحملها (٦٦) ، وذلك من أجل تحديد الرسوم والضرائب المستحقة عليها عند بيعها . وفي الوقت ذاته كانت كل سفينة تدفع ضريبة الميناء فور وصولها ، وكانت هذه الضريبة تختلف وفقا لحجم السفينة ونوعية حمولتها (٦٧) . كما كان على كل تاجر وصل على ظهرها أن يدفع ضريبة قدرها ٢٪ من قيمة ما معه من سبائك أو عملة نقدية (٦٨) .

ولقد تنوعت الضرائب التي دفعها التجار الايطاليون ، في مصر والشام ، إلا أن أهمها ضريبتا الصادر والوارد Sadro et Verdo وكان الجمرك هو الهيئة المختصة بتحصيل هاتين الضريبتين (٦٩) ولم تحصل ضريبة الوارد إلا على البضائع التي كانت تباع فعلا ، أما إذا لم تجد بعض البضائع سوقا لها في البلاد فلا يدفع عنها ضريبة وارد (٧٠) .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان التجار الايطاليون يدفعون رسوما ، على السلع التي يجلبونها الى مصر ، قيمتها خمس قيمة هذه السلع . وقد أشار المخزومي ، الذي عاش في أواخر أيام الدولة الفاطمية ، الى الخمس ، ولكنه صنف الرسوم المفروضة على التجار « الفرنجة » وفقا لانواع السلع التي يحملها هؤلاء التجار (٧١) .

وفي مستهل القرن الثالث عشر أكد ابن مماتي بأن الخمس هو الضريبة

(٦٦) انظر تفصيل هذه الاجراءات في : المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ،

مخطوط ، ورقة ٦٣ ، ٨٧ ب ، ٩٠ — ٩١ .

(67) Smith, Nobility, P. 92 ; Idem, ' Government ' P. 112 .

(٦٨) عاشور : المجتمع المصري ، ص ٥٥ ، ايضا :

Heyd, 11, PP. 429 .

(69) Maslatrie, Traité., PP. 75 , 90 ; Amari, op. cit., 1, P. 289 .

(70) Mas latrie, Traité., P. 92 .

(٧١) المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ، ورقة ٥٠ ، انظر مناقشة هذا

الموضوع في :

Rabie, op. cit., PP. 93 — 94 .

التي تؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر » ولكنه استأنف قائلا : « ربما بلغ ما يستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا ، وربما انحط عن العشرين دينارا ويسمى كلاهما خمسا » (٧٢) . ويبدو أن هذه المسألة بقيت على هذه الحال حتى أواسط القرن الخامس عشر ، على الأقل ، لان المقريري والقلقشندي يؤكدان استمرارها كما ذكرها ابن مماتي (٧٣) .

وحددت المعاهدات التجارية التي وقعتها المدن الإيطالية مع سلاطين الايوبيين والمماليك ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، نسبة الضرائب التي كان يدفعها التجار الإيطاليون . فالمعاهدة التي وقعتها مدينة بيزا مع السلطان الايوبي العادل عام ١٢١٥ م ، اشتملت على أن الرسوم المفروضة على بضائع البيارنة هي ١٦٪ من قيمة هذه البضائع والسلع ، أما الرسوم المفروضة على الذهب والفضة فقد حددتها المعاهدة ب ١٠٪ (٧٤) . كما أن المعاهدة التي وقعتها مدينة جنوة مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون عام ١٢٩٠ م ، قد بينت الرسوم التي كان يدفعها تجار هذه المدينة في مصر فالتنسوجات والاقمشة بكافة أنواعها ، سواء الخام منها أو المصنع ، وكذلك الاخشاب ، كانت تدفع الجنوية عليها رسوما قدرها ١٠٪ ، أما السلع التي كان يتم وزنها ، كالزيوت والحبوب ، فيدفعون عنها رسوما قدرها ١٢٪ . أما الرسوم المتعلقة بالذهب والفضة فكانت تصل الى ٤٪ ، في حين كانوا يدفعون عن السبائك الذهبية ٦٪ (٧٥) . كما أن المعاهدات التي وقعتها مدينة البندقية مع مصر قد حددت الرسوم التي كان يتوجب على التجار البنادقة دفعها ، ففي زمن السلطان الناصر محمد دفع البنادقة ١٠٪ على جميع البضائع والسلع ، عدا الذهب والفضة الذين يؤتى بهما كسبائك ويضربان بدار السك دنائير اسلامية ، حيث كانت الرسوم عليهما ٢٪ . كما دفع البنادقة ١٠٪ على الخشب والحديد

(٧٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ ، ايضا : ربيع : النظم المالية ، ص ٥١

(٧٣) المقريري : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(74) Amari, op. cit., 1, P. 285 ; Heyd, 1, PP. 412 — 413.

(75) Heyd, op. cit., 1, P. 418 .

والقار (٧٦) . ولكن كانت هناك استثناءات بالنسبة الى هذه الرسوم . فمعاهدة عام ١٣٠٢ م ، التي وقعها السلطان الناصر محمد مع البندقية ، اشتملت على أن يدفع التجار البنادقة نصف الضريبة المقررة على تجارتهم في مصر ريثما يتم استيفاء التعويضات عن الاضرار التي لحقت بالسفينة التابعة للبندقية عند غرة في عهد السلطان الاشرف خليل (٧٧) .

وقد دفع تجار المدن الإيطالية جميعا ضرائب اضافية مثل ضريبة السمسة قدرها ٢٥٪ ، وكذلك ضريبة للترجمة على الصفقات التي تتم خارج الجمرک قدرها ٢٥٪ أيضا على كل صفقة (٧٨) .

وتمتع تجار المدن الإيطالية ، في مصر والشام ، باعفاءات جمركية وضرائبية متعددة ، فالمعاهدات التي وقعتها مدينة بيزا مع السلطان الملك العادل ، عام ١٢٠٨ م وعام ١٢١٥ م ، أعفت الخمر والجبن والمواد الغذائية الاخرى ، التي كان يجلبها البيازنة للاستهلاك الشخصي في فنادقهم بمصر والشام ، من أية رسوم أو ضرائب (٧٩) . كما أعفى القنصل البيزاوي ورجال الدين البيازنة الذين كانوا يرعون الشؤون الروحية للبيازنة في مصر والشام ، من أية ضرائب (٨٠) .

كما تم اعفاء التجار الجنوية ، بموجب معاهدة عام ١٢٩٠ م من الضرائب والرسوم الجمركية المتعلقة بالفراء والاحجار الكريمة ، كما أعفى الجنوية من الرسوم الجمركية المتعلقة بكل المواد الغذائية والخمر المخصصة للاستهلاك في فنادقهم بمصر والشام (٨١) .

ويبدو أن التجار البنادقة قد تمتعوا بنصيب كبير من الاعفاءات

(76) Maslatrie, Traite., PP. 89 , 92 .

عفاف صبره : ١٢٩ - ١٣٠ .
(٧٧) انظر ما سبق ، ص ٢٣١ .

(78) Mas latrie, Traité., PP. 79 — 80 , 85 ; Amari, 1, PP. 259 — 60 .

(79) Amari, op. cit., 1, 286 .

(80) Ibid.,

(81) Heyd, op. cit., 1, PP. 414 — 18 .

الضرائب والجمركية في مصر والشام ، فقد أبقى قناصل البنادقة من دفع رسوم على البضائع الخاصة بهم والتي تصل قيمتها الى حوالي ألف بيزانت . كما أبقى البنادقة من الرسوم المتعلقة بالآلئ والفراء والاحجار الكريمة (٨٢) . وكذلك أبقى من الرسوم المتعلقة بالذهب والفضة اللذين يقدمونهما الى دار الضرب لسكهما نقودا . كما تم اعفاء البنادقة من ضريبة الجوالي « الرأس » لانهم ليسوا من مواطني البلاد مع أن غيرهم من الجنسيات الاخرى كانوا يدفعونها . وأبقى البنادقة أيضا من ضريبة الحراسة وضريبة دخول الحجاج البنادقة الى الاراضي المقدسة (٨٣) . كما تم اعفاء البنادقة من الرسوم المفروضة على الجبن والخمر وغير ذلك من المواد الغذائية التي تجلب للاستهلاك الشخصي في فنادقهم بمصر والشام (٨٤) . وفي معاهدة عام ١٢٥٤ م أبقى السلطان المملوكي المعز أيبك البنادقة من رسوم السمسة والترجمة التي كانوا يدفعونها كما أعفاهم من ضريبة العرصة والقوف (٨٥) . ومن رسوم حراسة سفنهم دون غيرهم (٨٦) .

وحددت المعاهدات التجارية ، التي وقعت بين المدن الإيطالية وسلاطين الايوبيين والمماليك ، أصول المعاملات التجارية ، التي كان يمارس على أساسها التجار الايطاليون نشاطهم في المدن والاسواق المصرية والشامية . فلقد سمح للتجار الايطاليين باستخدام قواربهم الخاصة في شحن سفنهم التجارية وتفريغها في الموانئ المصرية والشامية (٨٧) . وخصصت السلطات المصرية للتجار الايطاليين مستودعات في الجمرك لتخزين سلعهم ومتاجرهم ،

(82) Maslatrie, Traite, PP. 79 , 82 .

(83) Ibid., PP. 82 , 89 , 92 ; Prawer, op. cit., P. 403 .

(84) Maslatrie, Traite, P. 92 .

(٨٥) لقد فرضت السلطات المصرية ضرائب على البضائع المستوردة في الاسكندرية ،

منها ضريبة القوف وضريبة العرصة ، ونسبتها تعادل تقريبا ١٩٪ من قيمة

هذه البضائع مهما كانت طبيعتها . انظر مناقشة هذه المسألة في :

Rabie, op. cit., PP. 90 — 91 .

(86) Maslatrie, Traite, PP. 77 ff.

(87) Amari, op. cit., 1, P. 246 .

دون دفع رسوم عليها ، وظلت مفاتيح هذه المستودعات بأيدي التجار الايطاليين (٨٨) .

وكان يتولى موظفو الجمرك ، عند وصول السفن التجارية الإيطالية الى الموانئ ، بيع السلع والمتاجر التي جلبتها ، وذلك عن طريق المزاد العلني الذي يقام لهذا الغرض (٨٩) وسمحت السلطات المصرية أن يكون لكل جالية تجارية ايطالية مشرف تجاري ليكون صلة الوصل بين رجال الجمرك وبين تجار جاليتهم ، وتنظيم الحسابات المالية والتجارية المتعلقة بذلك ، وأن يحتفظ بالسجلات المعنية بعمليات البيع والشراء التي يقوم بها هؤلاء التجار في الجمرك (٩٠) .

وذكرت المعاهدات التجارية أنه في حالة عجز أحد التجار الايطاليين عن أداء الرسوم والضرائب المفروضة على بضائعه ، فإنه يجب على موظفي الجمرك أن يقبلوا كفالة المشرف التجاري الذي يتبع له هذا التاجر ، أو كفالة أحد المواطنين المسلمين ، شريطة أن تتم هذه الكفالة بصورة نظامية أو أمام رجال الجمرك (٩١) .

ويجب أن تكون عمليات البيع والشراء موثقة بعقود تجارية مكتوبة ، سواء تمت الصفقة داخل الجمرك أو خارجه ، ويجب أن يشهد على عقد البيع الكاتب والترجمان والشهود ، ولا يجوز فسخ هذا العقد الا بموافقة الطرفين أو في حالة اكتشاف المشتري أن البضاعة مغشوشة أو مخالفة للشروط المتفق عليها (٩٢) .

وأوضحت المعاهدات ، التي وقعت بين المدن الإيطالية مع مصر والشام ، أنه لا يجوز ارغام التاجر الايطالي على بيع سلعهم ومتاجره ، كما أنه لا يحق لاي موظف في السلطة المصرية ارغام التاجر على شراء سلعة معينة من مكان معين ، وانما يحق للتاجر نقل سلعهم ومتاجره الى أي مكان يرغبه ، وله

(88) Maslatrie, Traite., PP. 75 , 78 , 80 , 82 ; Heyd, 1, P. 417 .

(89) Maslatrie, Traite., P. 85 .

(90) Ibid, PP. 75 , 84 , 91 ; Amari, op. cit., 1, P. 286 .

(91) Maslatrie, Traite., PP. 75 , 84 , 91 ; Amari, 1, P. 286 .

(92) Amari, op. cit., 1, P. 197 ; Maslatrie, Traite, PP. 73 — 74 ;

أيضا : صبره ، ص ١٣٩ .

حرية بيعها في فندق أبناء جلدته أو في الاسواق أو في الجمرك أو في أي مكان يشاء . بل لقد منحت المعاهدات التجار الإيطاليين الحق في إعادة تصدير سلعهم ومتاجرهم التي كانوا قد جلبوها معهم إذا لم يتم بيعها أو لم يجدوا مخازن لها ، شريطة ألا يكون ضمن هذه السلع والمتاجر الخشب والحديد والقار ، حيث كان لدى الجمارك المصرية تعليمات مستمرة في ضرورة شراء هذه المواد ومنع التجار الإيطاليين من إعادة تصديرها (٩٢) .

واستخدام تجار المدن الإيطالية في تجارتهم مع مصر والشام طريقة أخرى في التعامل التجاري ، وهي طريقة المقايضة التي انتشر التعامل بها منذ القرن الرابع عشر ، فالمعاهدة التي وقعتها مدينة بيزا مع مصر عام ١١٧٣ م أشارت إلى حق التجار البيارنة في التعامل مع التجار المسلمين بطريقة المقايضة شريطة أن يكون ذلك برغبة الطرفين (٩٤) . كما استخدم البنادقة طريقة المقايضة في تعاملهم مع التجار المسلمين . وتدخلت السلطات المملوكية لحماية التجار البنادقة والتجار المسلمين فمنعت كل منهما من العدول عن صفقة المقايضة إلى الشراء بالنقد حتى لا يضر أحدهما .

واحتكر سلاطين الأيوبيين والمماليك حق بيع بعض المنتجات المحلية إلى التجار الإيطاليين مثل الشب والنظرون ، ولم يكن بإمكان هؤلاء التجار شراء هاتين المادتين إلا عن طريق السلطة (٩٥) ، وفي الوقت ذاته احتكر المتجر السلطاني حق شراء بعض المواد والسلع من التجار الإيطاليين مثل : الأخشاب والحديد والجلد ، وقد اشترى رجال المتجر السلطاني تلك المواد بأموال الخمس المفروضة على السلع التي جلبها التجار ، فما زاد على أموال الخمس دفعه رجال المتجر إلى التجار الإيطاليين من البضائع المحلية ،

(93) Amari, 1, PP. 243 , 289 ; Maslatrie, PP. 75 , 90 .

انظر أيضا :

Heyd, op. cit., 1, P. 418

(94) Amari, op. cit., 1, P. 209 .

(٩٥) انظر : ابن مياي : ص ٣٢٤ ، القريري : الخطط ج ١ ص ١٠٨ ، ابن الميري : التعريف ، ص ١٧٥ ، القلشندي : ج ٣ ، ص ٤٥٩ - ٤٦١ ، ربيع : النظم المالية ، ٤٥ .

التي أهمها الشب، بما يساوي ثلثي الثمن ومن الذهب بحق الثلث الباقي (٩٦) . وفي ظل السلطان الناصر محمد أصبح المتجر تابعاً للسلطان (٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) (٩٧) .

وكان للتجار الإيطاليين في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، معاملات تجارية ومالية مع تجار الكارم (٩٨) في مصر والشام - وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحدد بدقة طبيعة هذه المعاملات ، إلا أن ازدهار نشاط الكارم وتنظيماتهم في مصر وانتظام حركتهم ما بين اليمن ومصر ، قد سهل وصول متاجر الشرق الأقصى للتجار الإيطاليين المقيمين في مصر والشام أو المترددين عليهما . وقد جلب تجار الكارم إلى مصر التوابل الهندية لبيعوها ثانية ، في فنادقهم إلى التجار الإيطاليين (٩٩) .

وتم توقيع عقود تجارية بين تجار الكارم والتجار الإيطاليين ، فهناك وثيقة تعود إلى عام ١٤٠٠ م تتعلق باتفاقية بين تجار الكارم وقائد سفينة بندقية لنقل سلع ومتاجر إلى مصر (١٠٠) . ويبدو أن التجار الإيطاليين قد تبادلوا القروض التجارية مع تجار الكارم ، فالمقريري يروي واقعة لها دلالتها وملخصها أن السلطان الناصر محمد اشترى عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م جواهر من تجار « الفرنج » بمبلغ ستة عشر ألف دينار ، وأحالهم بها على وكيل السلطان ، وقرر كريم الدين الاقتراض من تجار الكارم لدفع ثمن

(٩٦) انظر : ابن مياي ، ص ٣٢٧ ، المقريري : الخطط ، ج ١ ص ١٠٨ . ربيع : النظم المالية ، ص ٥١ ، أيضا :

Rabie, op. cit., PP. 92 — 93 .

(97) Rabie, op. cit., P. 94

(٩٨) تجار الكارم هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع ومتاجر الشرق الأقصى من اليمن إلى مصر وبخاصة التوابل والفلفل ولهذا عرفوا « بتجار الفلفل والتوابل أو البهار » ، وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر . انظر تفاصيل ذلك :

ابن الجاور ص ١٤٧ ، عبد الباسط ، ج ١ ورقة ٨٨ ، أيضا :

Labib, Handelsyechichte, P. 6 ; Rabie, op. cit., P. 97 — 98 .

Fischel, ' The spice trade in Mamluk Egypt ' , PP. 157 , 161 ;

(99) Lapidus, Muslim cities, P. 125 , Fischel, op. cit., PP. 163 — 64 .

(100) Fischel , op. cit., P. 168 .

الجواهر ، ولكن سرعان ما تبين لكريم الدين أن أحد تجار الفرنج كان قد اقترض من أحد تجار الكارم مبلغ عشرين ألف دينار . فأحال التاجر الفرنجي مبلغ ستة عشر ألف دينار ليتسلمها التاجر الكارمي من كريم الدين ، وهي حوالة السلطان بثمان الجواهر ، ثم دفع التاجر الفرنجي أربعة آلاف دينار إلى الكارمي ، وهي تنمة القرض البالغ عشرين ألف دينار . وتمت عملية التحويل بموافقة الطرفين أمام كريم الدين (١٠١) .

الفصل الثالث

الجاليات التجارية الإيطالية في مصر والشام ونظمها

وعاش التجار الإيطاليون ، في المدن المصرية والشامية ، على هيئة جاليات تجارية ، إلا أنه لم يكن لهذه الجاليات أحياء أو مناطق خاصة بها داخل هذه المدن ، كما هو الحال بالنسبة إلى الجاليات التجارية الإيطالية في القسطنطينية والمدن الصليبية ، وإنما عاش التجار الإيطاليون داخل فنادق وضعتها السلطات المصرية تحت تصرفهم (١) . فقد كان للبنادقة - حتى مستهل القرن الثالث عشر فندق واحد في الاسكندرية ، ولكن السلطان الملك العادل منحهم - بموجب معاهدة عام ١٢٠٨ م - فندقا آخر في الاسكندرية أيضا (٢) أما في الشام فقد كان للبنادقة فندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس واللاذقية (٣) . وكان للبيارة أيام الفاطميين كما بينت معاهدة ١١٥٤ م - فندقان ، أحدهما في الاسكندرية (٤) ، وثانيهما في القاهرة . أما بالنسبة إلى الجالية فقد كان لهم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر فندق واحد في الاسكندرية (٥) وفندقان في الشام أحدهما في بيروت وثانيهما في دمشق (٦) .

وقد أشار بنيامين التطيلي ، الذي زار مصر في بداية عهد صلاح الدين ، إلى الفنادق التي كان يأوي إليها التجار الإيطاليون والتي يسكنون

(1) Heyd, op. cit., 11, P. 431 ; Labib ; ' Egyptian commercial ' P. 71 .

(2) Menahem, op. cit., P. 162 .

(3) Heyd, 1, P. 377 ; 11, PP. 462 — 63 .

(4) Menahem, P. 162 .

(5) Ibid., P. 162 .

(6) Heyd, 11, PP. 462 — 63 .

في « اعاليها ويعرضون بضائعهم في اسفلها » وأكد أن « لتجار كل أمسة فندقهم الخاص بهم ، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشتررون » . ويلاحظ أن فنادق الإيطاليين في مصر والشام ، كانت عبارة عن أبنية مربعة الشكل ومحاطة بسور متين ، وتتألف من عدة أدوار تشرف على ساحة داخلية تستخدم لتعبئة السلع والمتاجر وتفريغها . وكانت مستودعات التجار وحوالياتهم في الدور الأرضي ، في حين استخدمت غرف الأدوار العليا لسكن التجار وإقامتهم فيها . واشتمل الفندق أيضا على حمامات وأفران خاصة بالتجار المقيمين في الفندق ، وكان يحيط بالفندق حدائق جميلة (٧) .

ويبدو أنه كان هناك بعض البيوت أعدت لسكن التجار الأوروبيين في بعض المدن والموانئ مثل دمياط ، والدليل على ذلك ما أشار إليه الرحالة نيقولا ، الذي زار مصر في أواسط القرن الرابع عشر ، من أنه شاهد في دمياط عددا من التجار الإيطاليين في المدينة وأنه نزل ، أثناء وجوده بدمياط ، في بيت تاجر لا تيني يدعى داميان Damian . وعندما زار نيقولا الإسكندرية لاحظ أن عددا من التجار اللاتين ينزلون في بيوت لفتسرة مؤقتة (٨) . ومن ناحية أخرى فقد أشار ابن صصري ، أثناء حديثه عن الحريق الذي اندلع في مدينة دمشق (٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ - ١٣٩٦ م) إلى الخانات التي كان يسكنها « الفرنج . ويودعون فيها متاجرهم » في مدينة دمشق ، مثل : خان الشقق وخان الجبالين وفي قيسارية ابن البابي بصفة خاصة ، وكذلك في قيسارية الصوف وقيسارية الإقباعيين (٩) .

وكان يقوم موظف بندقي بإدارة كل فندق من فنادق البنادقة في مصر والشام ، وآخر جنوي لإدارة فنادق الجنوية ، وكذلك بيزاوي لإدارة فنادق البيارنة ، وكان يطلق على هذا الموظف الإداري اسم الفندق Fonticarium . وكان يتم اختياره من أحد ذوي الجاه والمنزلة ، وكانت مهمته الإشراف على شئون الفندق وإدارة أعماله (١٠) .

(٧) Lane, Amaritime, P. 287 ; Heyd, op. cit., 11, PP. 430—31

(٨) Niccolo, op. cit., PP. 85 , 120 .

(٩) ابن صصري : الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٧٣ .

(١٠) انظر عاشور : المجتمع المصري ص ٥٥ ، العصر المملوكي ، ص ٢٨٩ أيضا :

Heyd, 1, P. 411 ; Atiya, crusade, Commerce, P. 181 .

وبعثت المدن الإيطالية ، البندقية وجنوة وبيزا ، قناصل للإشراف على جالياتهم في مصر والشام ، وكانت تستبدلهم بعد سنة أو سنتين أو ريثما تبعث من يحل محلهم (١١) . وكان لكل من البندقية وجنوة وبيزا قنصل في الإسكندرية (١٢) . وكان لكل من البندقية وجنوة قنصل في كل من مدينتي الرملة وبيت المقدس ، كما كان لكل منهما قنصل في دمشق وبيروت (١٣) . ويرى هايد أنه كان للبنادقة قنصل في دمشق في حين كان في بيروت وحلب وطرابلس موظف آخر اتخذ لقب نائب قنصل (١٤) .

وكان القناصل الإيطالية ، في مصر والشام ، ممثلين لدولهم وصلة الوصل بين أبناء جلدتهم والسلطات المحلية من جهة وحكومات المدن الإيطالية من جهة أخرى ، وكان القنصل مسئولا عن إدارة شئون جالية بلاده ورعاية مصالحها ودفع الظلم عنها إذ كان يحق لكل قنصل مقابلة السلطان عشر مرات في السنة لعرض مشاكل جاليته . وكان عليه مهمة الإشراف على وصول السفن التجارية التابعة لمدينته إلى الموانئ المصرية والشامية ومغادرتها (١٥) . كما كان القنصل مسئولا أمام السلطات المحلية عن كل ما يصدر عن رعاياه من مخالفات للقوانين والتقاليد الإسلامية (١٦) في مصر والشام ، ومن واجبات القنصل أيضا حماية ما يمكن انقاذه من السلع والمتاجر ، عند تحطم سفن بلاده أو غرقها في المياه المصرية والشامية ، وكذلك حماية ممتلكات الذين يموتون من أبناء جاليته وأموالهم وتسليمها إلى ذويهم أو إلى حكومة بلاده (١٧) .

وكان يساعد كل قنصل من قناصل المدن الإيطالية ، في الإسكندرية ودمشق ، مجلس يتألف من اثني عشر تاجرا من التجار المقيمين في هاتين

(11) Heyd, op. cit., 11, P. 464.

(12) انظر عبد الباسط : نيل الأمل في ذيل الدول ، ورقة ١٣٨ ب ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك : ص ٤١ .

(13) Beazley, op. cit., 111, P. 483 .

(14) Heyd, 11, PP. 464 — 465 .

(15) Lane, A Maritime, P. 287 .

(16) ابن شاهين : ص ٤١ .

(17) Mas La trie, Traité des paix et de Commerce, PP. 74,84,90 .

المدينتين . وكانت مهمة هذا المجلس ادارة شئون الجالية التجارية الإيطالية . واختيار خلف للقنصل في حال انتهاء مدة خدمته ريثما يصل من يحل محله من المدينة الام . وكذلك كان من مهمة هذا المجلس اختيار تاجر ليمثلهم أمام السلطان عند الحاجة (١٨) .

ويلاحظ أن قناصمة المدن الإيطالية في مصر والشام اتخذوا من فنادق جالياتهم مقرا لهم (١٩) . في حين كان لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية - كما بينا سابقا - مقر خاص بهم . وفي الوقت الذي كان فيه القناصمة في الدولة البيزنطية والمدن الصليبية يتمتعون بسلطات مطلقة من قبل حكوماتهم ويعقدون المعاهدات التجارية والسياسية مع الاباطرة وامراء الصليبيين ، كان القناصمة في مصر والشام يفتقدون لمثل هذه السلطات ، فلا نسمع أن أحدا منهم قد وقع معاهدة مع السلطات المصرية . فضلا على ذلك كله فقد كان القناصمة في مصر والشام يفتقدون للنفوذ السياسي ، في هذين البلدين ، الذي تحقق لزملائهم في بيزنطة والامارات الصليبية وفي الوقت الذي نجد فيه القناصمة - في بيزنطة والامارات الصليبية - يتدخلون في الشؤون المحلية ويمارسون تأثيرا واسعا على الشؤون السياسية ويتآمرون للإطاحة بامبراطور أو ملك ، فاننا لا نجد أي تأثير أو نفوذ لقناصمة مصر والشام على سياسة السلاطين أو الحكومات الاسلامية في مصر والشام .

وفي مصر والشام تمتعت الجاليات الإيطالية بقسط وافر من الحرية والحماية داخل فنادقهم ، فمن ناحية سمح لهم باقتناء الخزائر وتربيتها في حدائق فنادقهم ، وباحضار الخمر في سفنهم وانزالها الى فنادقهم ، على الرغم من أن ذلك كان محرما في جميع المدن الاسلامية (٢٠) ، كما سمح سلاطين الممالك لسكان بيت لحم بصناعة الخمر في مدينتهم لضمان حاجة تجار الفرنجة وحجاجهم من هذه السلعة (٢١) .

(18) Heyd, 11, P. 464 .

(19) Menahem, op. cit., P. 162 .

(20) Maslatrie, Traité de paix et de commerce, P. 73 ; Heyd., 1, P. 411.

(21) Niccolo, op. cit., P. 51 .

ومن ناحية أخرى عمل السلاطين على حماية الجاليات الإيطالية والسهر على سلامتهم (٢٢) . فعندما طلب البنادقة (١٢٥٤ م) رفع سوق السمك المجاور لأحد فنادقهم في الاسكندرية ، أمرت السلطات المصرية بنقله الى مكان آخر ، وعندما تلقت السلطنة المملوكية عام ١٣٦١ م شكاوى البنادقة في الاسكندرية عن كثرة الضوضاء والسكرى أمام فنادقهم في الاسكندرية ، أمرت والى الاسكندرية بنقل الحانات المجاورة لهذين الفندقين (٢٣) . فضلا على ذلك كله فقد اشتملت المعاهدات التي وقعتها المدن الإيطالية مع سلاطين الايوبيين والمماليك بعض التعليمات التي كان على أبناء الجاليات الإيطالية الالتزام بها وذلك بغية حماية هؤلاء وأموالهم وفنادقهم ، فمن ذلك كان على الجاليات الإيطالية اقفال فنادقها ليلا ، وذلك تحاشيا لأعمال السطو ، كما كان عليها اغلاق فنادقها خلال أوقات الصلاة في كل يوم جمعة ، وذلك تجنباً للاضطرابات مع المسلمين ، كما كان على القناصل اقفال فنادقهم دون استشارة السلطات المحلية ، وذلك لمواجهة الظروف الطارئة التي تهدد حياة الجاليات وأموالها (٢٤) .

ولقد تمتعت الجاليات التجارية الإيطالية ، في مصر والشام بحريتها الدينية ، ومارست شعائرها وطقوسها الخاصة ، فكان لكل جالية طائفة من رجال الدين للاشراف على الشؤون الروحية المتعلقة بالجالية . وسمحت المعاهدات التي وقعت بين المدن الإيطالية ومصر والشام ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بأن تخصص لكل جالية في فندقها مكانا خاصا لممارسة الشعائر الدينية ، كما سمحت المعاهدات أن يمارس التجار الإيطاليون طقوسهم وشعائرتهم في كنائس معينة في المدينة التي يعيشون فيها ففي الاسكندرية اعتادت الجالية الجنوبية تأدية الصلوات في كنيسة القديسة

(22) Maslatrie, Traité., P. 79 ; Heyd, 1, P. 431 .

أيضا : عفاف صبره : ص ٢١٣

(23) Maslatrie, Traité., PP. 80 , 93 ; Heyd, 1, P. 411 ; Labib, Handelsegeschichte., P. 751 .

(٢٤) انظر تفصيل ذلك : عاشور : المجتمع المصري ، ص ٥٦ .

أيضا : Lane, Amaritime, P. 287, Heyd, 1, P. 411 ; 11, P. 431 .
Atiya, crusade, commerce, P. 194 .

مريم والجاليات البيزاوية في كنيسة القديس نيقولا والجالية البندقية في كنيسة القديس ميخائيل (٢٥) . وعندما زار الرحالة لادولف الاسكندرية ، في اواخر ايام السلطان الناصر محمد بن قلاوون شاهد البنادقة يمارسون عبادتهم وطقوسهم الدينية في كنيسة القديس مرقس ، الموجودة في المدينة ويقوم بهذه الطقوس رجال الدين البنادقة (٢٦) .

كما حصلت الجاليات التجارية الإيطالية ، في مصر والشام ، على استقلال قضائي محدود ، وهو يشبه - الى حد ما - ما حصلت عليه هذه الجاليات في الامارات الصليبية ، فاذا كان النزاع بين أبناء الجالية الإيطالية ، فان القضية تعرض امام مجلس هذه الجالية وبرئاسة قنصلها ، وتتم المحاكمة وفقا لقوانين هذه الجالية في بلادهم الام (٢٧) ، أما اذا كان النزاع بين أحد أبناء الجالية وأحد المسلمين وكان المدعى عليه ايطاليا وصاحب الدعوى مسلما ، فان القضية تعرض امام قنصل الجالية التي ينتمي اليها المدعى عليه أما اذا كان المدعى عليه مسلما وصاحب الدعوى أحد أبناء الجالية فانه يتم الفصل في القضية امام القاضي المسلم وفق الشريعة الاسلامية (٢٨) . أما اذا لم يتمكن القاضي من الفصل في هذه القضية وأنه أصدر أحكاما فيها تعسف ، فانه يحق - والحالة هذه - للتاجر الايطالي أن يعرض المسألة امام أحد الامراء ، فيروي المقيزي والعيني ان رجلا « فرنجيا » خاصم شخصا « مسلما » على مال ادعى عليه بين يدي الامير بركة (عام ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م) (٢٩) .

وحرص السلاطين على تحقيق العدالة للتجار الايطاليين ودفع الظلم والاعتداء عنهم دون مسوغ ، فالكثير من نواب الثغور ، في مصر والشام ، كانوا يقفون الى جانب التجار الايطاليين وجالياتهم ضد محاولات الاهالي

(٢٥) انظر تفصيل ذلك في :

Maslatrie, Traité, P. 79 ; Amari, op. cit., 1, P: 281 Heyd : op. cit., P. 417 .

(26) Ludolph, op. cit., P. 46 .

(27) Maslatrie, Traité., P. 91 .

عفاف صبره : ، ملحق رقم ٦ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦ .

(28) Maslatrie, Traité., P. 79 .

(٢٩) المقيزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٣٧٩ ، العيني تاريخ البدر في اوصاف اهل الامير ، مخطوط ، ورقة ١٠٨ .

- ٢٤٨ -

للاعتداء عليهم . ويروي ابن بطوطة أحداث الفتنة التي وقعت في الاسكندرية (عام ٧٢٧/١٣٢٦) ، بين التجار الفرنجة وبعض المسلمين ، ويقول أن متولي ثغر الاسكندرية آنذاك ، ركن الدين الكركي ، وقف يناصر التجار الفرنجة والقي القبض على عدد من التجار المسلمين بعد أن تبين له تحامل المسلمين على الفرنج (٣٠) . كما أن المقيزي يحدثنا عن تاجر فرنجي القى القبض عليه في طرابلس الشام عام (٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م) بتهمة القرصنة وبعثه نائب طرابلس الى القاهرة لعقابه « وأكثر التاجر من التظلم » امام السلطان الناصر محمد « وتبرا من القرصنة » فصدق السلطان أقوال « الفرنجي » وكتب الى نائب طرابلس يأمره باعادة ممتلكات الفرنجي ومركبه وجميع ما أخذ منه ، ونفذت أوامر السلطان على الرغم من احتجاج نائب طرابلس (٣١) .

وهكذا فان النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالاهمية الاقتصادية والتجارية لهذين البلدين ، وبالمصالح التجارية الكبرى للمدن الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتمكنت الجمهوريات الإيطالية من اقامة علاقات تجارية نشطة مع سلاطين الايوبيين والمماليك في مصر والشام واستندت هذه العلاقات على معاهدات تجارية محددة . حاول الاطراف الالتزام بها حفاظا على المصالح التجارية المتبادلة بينهم . وافادت المدن الإيطالية من هذه المعاهدات في الحصول على الامتيازات التجارية وتحقيق الحماية لتجارها وفنادقها ، والاستقرار لتجارتها ومعاملاتها المالية والتجارية في الموانئ والاسواق المصرية والشامية . يضاف الى ذلك أن الجمهوريات الإيطالية تمسكت بمصالحها الاقتصادية والتجارية الكبرى في مصر والشام دون الاهتمام - معظم الاحيان - بالدعوات الصليبية والمواقف البابوية المعادية للمسلمين في مصر والشام .

★ ★ ★

(٣٠) ابن بطوطة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣١) المقيزي : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

- ٢٤٩ -

الباب الخامس

النشاط التجاري للمجهر رايك القديري في جزر المحيط الشرقي
في بحر الشمال في القرنين الثامن عشر والاربع عشر الميلادي

يعتبر النشاط التجاري للمدن الإيطالية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط جزءاً لا يتجزأ من النشاط التجاري لهذه المدن في بيزنطة وفي مصر والشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وأهمية هذه الجزر بالنسبة الى المدن التجارية الإيطالية لا تتوقف على ثروة هذه الجزر فحسب وإنما على أهميتها كمحطات تجارية للاساطيل التجارية الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

الفصل الأول

النشاط التجاري لبندقية في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط

يرتبط النشاط التجاري للمدن الإيطالية في جزيرة قبرص بأهمية موقع هذه الجزيرة من جهة وبثرواتها من جهة أخرى ، فوقع قبرص بين ثلاث قارات جعلها « قنطرة بين الشرق والغرب » ومحطة رئيسية لاساطيل المدن الإيطالية التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ومستودعا كبيرا لسلع ومتاجر الشرق الأقصى وعالم البحر المتوسط والغرب الأوربي ، ونقطة التقاء لكل الطرق التجارية القادمة من الغرب والشرق في البحر المتوسط (١) .

أما ثروات جزيرة قبرص ومنتجاتها ، التي كانت موضع اهتمام النشاط التجاري للمدن الإيطالية ، فقد اشتملت بشكل رئيسي على أجود أنواع الخمور نتيجة ثراء الجزيرة بالكروم (٢) والسكر والملح والقطن والنحاس

(١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢ ، انظر أيضا ٤ .

Ludolph, P. 7, Anonymous ; PP. 14 — 15 .

(2) Ludolph, 44 ; Anonymous, P. 15 .

الوصية بلايسنس Plaisance (١٢٥٣ - ١٢٦١ م) (٩) امتيازات البنادقة في قبرص .

وبالرغم من تجديد آل لوزيجنان لامتيازات البنادقة في الجزيرة ، فإن النشاط التجاري للبندقية في قبرص ، خلال القرن الثالث عشر ، كان مقتصرًا على تصدير السكر والملح والقطن من الجزيرة ونقل الخيول من إسبانيا والبندقية إلى ملوك قبرص ، إضافة إلى استخدام الأساطيل التجارية التابعة للبندقية الموانئ القبرصية محطة لها في رحلاتها إلى الشام وأرمينية والقسطنطينية (١٠) .

وارتبط نشاط البندقية التجاري في جزيرة قبرص بسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١٢٩١ م ، وذلك أن طرد الصليبيين من الشام جعل جزيرة قبرص الحد الشرقي للعالم اللاتيني (١١) . وانتقلت الجاليات التجارية التابعة للبندقية ، وغيرها من المدن الإيطالية ، من الساحل الشامي إلى قبرص ، وتأسست بها المؤسسات التجارية لتكون على اتصال دائم بغنادقها في مصر وآسيا الصغرى (١٢) . يضاف إلى ذلك أن ملوك قبرص دأبوا ، بعد سقوط عكا ، على تشجيع التجارة بين جزيرتهم وموانئ آسيا الصغرى ، وذلك بغية تحويل انظار التجار الأوربيين عامة عن موانئ مصر والشام واجتذابهم إلى الموانئ القبرصية للحصول على ما يريدونه من توابل وحاصلات آسيوية (١٣) .

ورغبت البندقية في توسيع نشاطها التجاري في جزيرة قبرص ، وذلك بغية التعويض عما لحق بها من خسائر بسقوط المملكة الصليبية في الشام ، وعن الضعف الذي أصاب تجارتها مع مصر ، نتيجة موقف البابوية من مسألة التجارة مع المسلمين ، بعد سقوط عكا ، ولهذا كله بعثت البندقية عام ١٣٠٦ م ، سفارة إلى قبرص برئاسة فيتال ميخائيل Vital Michiel

(٩) Ibid. , 11, P. 225 .

(١٠) Lane, A maritime., PP. 130 , 145 .

(١١) Ludolph , op. cit., PP. 43 — 44 .

(١٢) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٣ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

حيث قامت المدن الإيطالية بنقل هذه السلع إلى الغرب الأوربي (٢) ، كما اشتهرت قبرص بإنتاج المنسوجات الصوفية الملونة والمبعة واللاك ويبدو أن التجار الإيطاليين قد نقلوا هذه المتاجر إلى مصر والشام (٤) .

وكانت مدينة البندقية أول مدينة إيطالية تمتعت بامتيازات تجارية في جزيرة قبرص ، ففي عام ١١٤٨ م أصدر الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٨ - ١١٨٠ م) مرسوماً منح بموجبه البنادقة حق المتاجرة في الجزيرة ، واعفاهم من الرسوم الجمركية في موانئها ، وذلك مقابل مساعدة البندقية لبزنطة ضد الملك النورماني روجر الثاني (١١٣٠ - ١١٥٤) (٥) . ومنذ ذلك الوقت أخذ البنادقة يتدفقون على جزيرة قبرص ، وتشكلت لهم جاليات تجارية صغيرة في كل من ليماسول ونيقوسيا (٦) .

وعندما استولى آل لوزيجنان على قبرص ، في ختام القرن الثاني عشر (٧) ، لم يعترفوا بالامتيازات التجارية التي كان مانويل كومنين قد منحها للبنادقة ، واعتبروها امتيازات غير شرعية (٨) ، إلا أن حاجة آل لوزيجنان إلى القوة البحرية للبنادقة ، للحفاظ على قبرص وتثبيت سلطتهم فيها ، اضطرتهم للتودد إلى البنادقة وتشجيعهم على المتاجرة في الجزيرة ، فقد جدد الملك القبرصي هنري الأول (١٢١٨ - ١٢٣٣ م) ، والملكة

(٣) Mandevill, P. 20 ; Hill, 11, P. 197 ; Lane A maritime, P. 145

(٤) الاصطخري : مسالك الممالك : ص ٧٠ - ٧١ ، ابن سعيد : ص ١٣٠ ، ابن إياس ، نشق الأزهار ، ورقة ١٦٨ ب .

(٥) Heyd, 1, P. 200 ; Brown, ' The Venetian ' , P. 74 ; Beazley, 411 — 12 .

(٦) Hill, Hist. of cyprus, P. 224 .

(٧) انتزع ريتشارد قلب الأسد جزيرة قبرص من البيزنطيين (عام ١١٩١) وهو في طريقه إلى عكا في الحملة الصليبية الثالثة ، وباع ريتشارد الجزيرة إلى الداوية ، إلا أنهم أدركوا صعوبة حكمها ومواجهة ثورات سكانها ، فحلوا الصفقة مع ريتشارد الذي باعها عام ١١٩٢ إلى جاي لوزيجنان مقابل تخلي الأخير عن حقه في مملكة بيت المقدس ، انظر :

عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٦ - ٢٨ ، ٣١ - ٣٢ .

(٨) Hill, op. cit., 11, P. 225 .

لتوقيع معاهدة تجارية مع حاكم قبرص وقتذاك عموري (١٤) . ونجح فينال في مهمته ، حيث تم توقيع معاهدة تجارية بين الطرفين في مدينة نيقوسيا في ٣ يونيو عام ١٣٠٦ م . ولعل أهم البنود التي تعيننا في هذه المعاهدة هي : منح البنادقة كنيسة ومقرا للممثل البندقي والموظفين البنادقة المساعدين له في كل من فماجوستا ونيقوسيا وليماسول ، ومنح البنادقة الحق في شراء بيوت سكنية في المدن الآنف الذكر ، واعفاء التجار البنادقة من الرسوم الجمركية في موانئ الجزيرة (١٥) .

كما نصت المعاهدة على منح البنادقة الاستقلال القضائي ، بحيث تتولى محكمة بندقية خاصة معالجة القضايا المتعلقة بالبنادقة أنفسهم ووفق قوانينهم ، ويحق لهذه المحكمة أيضا معالجة القضايا التي يكون فيها أحد البنادقة مدعيا ، أما في حالات القتل والاعتصاب والخيانة والقضايا التي يكون فيها أحد البنادقة مدعى عليه فيجب أن يتم النظر فيها جميعا أمام المحكمة الملكية القبرصية (١٦) . كما انطوت المعاهدة على تعهد الحكومة القبرصية بحماية البنادقة وممتلكاتهم في حال تحطم سفنهم أو غرقها في المياه القبرصية ، ويجب على الحكومة القبرصية ، في هذه الحالة ، أن تسلم ممتلكات البنادقة وما تم انقاذه من متاجرهم إلى ورثتهم أو إلى الحكومة البندقية (١٧) .

وتعتبر هذه المعاهدة أساسا لكل المعاهدات التي وقعت البندقية مع قبرص حتى نهاية القرن الرابع عشر ، ونستطيع القول أن الامتيازات التي انطوت عليها هذه المعاهدة قد مكنت البنادقة من وضع أسس متينة لنشاطاتهم التجارية في الجزيرة ، فعلى اثر هذه المعاهدة اتخذ القنصل البندقي مكانه في الجزيرة ، وشغلت الجالية البندقية الاماكن التي خصصت لها في المعاهدة ، وازدادت حركة أساطيل البندقية في الموانئ القبرصية . ومما ساعد البنادقة على ذلك كله هو أنهم كانوا يتمتعون وقتذاك بسمعة

- (14) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, P. 102 .
- (15) Ibid., PP. 103 — 105 .
- (16) Ibid., 11, PP. 103 — 105 .
- (17) Ibid, 11, PP. 104 P. 106 .

طيبة ، في قبرص ، لان نشاطهم في القرصنة أقل مما كان عليه نشاط الجنوية (١٨) .

وفي ٦ سبتمبر ١٣٢٨ م ، وقع دوج البندقية ، حنا سورانزو : John Soranzo ، معاهدة تجارية مع ملك قبرص هيو الرابع ، ويلاحظ أن بنود هذه المعاهدات هي تجديد كامل لكل البنود التي اشتملت عليها معاهدة عام ١٣٠٦ م اضافة الى بند جديد يحق بموجبه الحكومة القبرصية استيراد الخيول والاسلحة البندقية لسد حاجات الجزيرة (١٩) .

وقبل أن ينقضي ربع قرن على المعاهدة الاخيرة تعرض البنادقة في مدينة فماجوستا الى خسائر فادحة عام ١٣٥٠ م ، نتيجة المنازعات التي نشبت فيها بين الجاليتين البندقية والجنوية . وكان سبب ذلك أن غوغاء المدينة وجماعات من الجنوية استغلوا الفوضى التي دبت في المدينة أثناء النزاع بين الجاليتين ، وهاجموا الحي البندقي فيها ، حيث نهبت بيوت البنادقة وحوانيتهم ومستودعاتهم ودمرت ، وجرحت أعداد كبيرة من الجالية البندقية بما فيهم القنصل البندقي (٢٠) وبعثت جمهورية البندقية مندوبا الى قبرص للمطالبة بمعاقة المسؤولين عن النزاع والتعويضات عن الخسائر التي لحقت بالبنادقة من جراء حوادث الشغب . وبالرغم من أننا لا ندرى فيما اذا تسلمت البندقية التعويضات الا انه من المؤكد ان الملك القبرصي قد عاقب المسؤولين عن الحوادث (٢١) . ويبدو أن الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومة القبرصية لاعادة النظام والامن في المدينة ولحماية المستوطنين جعلت السناتو البندقي يتوقف عن المطالبة بالتعويضات (٢٢) .

وبعثت جمهورية البندقية سفارة الى قبرص سنة ١٣٥٩ م لتهنئة الملك بطرس الاول باعلائه العرش ، ولتجديد الامتيازات التجارية التي يتمتع بها البنادقة في موانئ الجزيرة ومدنها (٢٣) . ونجحت سفارة البندقية

- (18) Hill, op. cit., 11, P. 286 .
- (19) Mas Latrie, Hist. de chypre, 11, PP. 142 — 144 .
- (20) Alastos, Cyprus in history , P. 188 .
- (21) Hill, op. cit. , 11, P. 290 .
- (22) Alastos, op. cit., P. 188 .
- (23) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, P. 228 .

في توقيع معاهدة مع الملك الجديد في ١٦ أغسطس عام ١٣٦٠ م . وبالرغم من أن هذه المعاهدة قد اشتملت على جميع البنود التي وردت في معاهدة عام ١٣٠٦ م إلا أنها انطوت على امتيازات جديدة ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى النشاط التجاري للبنادقة في الجزيرة . وذلك أن المندوب البندقي تعهد ألا ينقل البنادقة في سفنهم سلعا أو متاجر مهربة ، ويحق لمندوب الملك القبرصي تفتيش حمولة سفن البندقية للتأكد من هذه المسألة . كما تعهد المندوب البندقي ألا ينقل البنادقة إلا أبناء مدينتهم أو من يحمل تصريحاً خاصاً بالسفر من الحكومة القبرصية . ومن ناحية أخرى فقد تعهد الملك بأن يدفع كافة التعويضات عن الأضرار أو الخسائر التي يلحقها رعاياه بالجالية البندقية في الجزيرة (٢٤) .

إلا أن العلاقات بين البندقية وقبرص قد ساءت إلى حد بعيد في أعقاب فشل حملة الملك القبرصي بطرس ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . فلقد ألحقت هذه الحملة - كما بينا في الباب السابق - أضراراً فادحة بالنسبة للتجار البنادقة ، في مصر والشام ، وأضعفت العلاقات التجارية بين البندقية وسلطين الممالك . ويبدو أن أخفاق البندقية - في أعقاب الحملة - في اقناع الملك بطرس بضرورة راب الصدع مع مصر وتوقيع معاهدة سلام معها ، جعل البندقية تتخذ موقفاً متشدداً في علاقاتها مع الحكومة القبرصية ، فال مؤرخ ماس لا ترى ينشر مرسوماً كان قد أصدره السناتو البندقي ، بتاريخ ٢٢ أغسطس عام ١٣٦٦ ، يمنع فيه رعاياه من التجار والبنادقة من تصدير الأسلحة والخيول إلى قبرص (٢٥) . ولكن العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص قد عادت إلى حالتها العادية بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وقبرص عام ١٣٧٠ م .

وفي عام ١٣٧٣ م واجهت تجارة البندقية في جزيرة قبرص أخطر مرحلة من مراحلها ، وذلك نتيجة النزاع الذي حدث بين البنادقة والجنوية في فماجوستا ، أثناء حفلة تتويج الملك بطرس الثاني (١٣٧٣ م) ، وما تبع ذلك من احتلال الجنوية لمدينة فماجوستا وأصدر السناتو البندقي

(24) Ibid., 11, PP. 230 — 32 .

(25) Ibid., 11, P. 285 .

تعليمات ، عام ١٣٧٤ ، إلى الممثل البندقي في فماجوستا: يطلب منه أن يغادر جميع التجار البنادقة جزيرة قبرص وأن يظل الممثل في مكانه انتظاراً لتعليمات أخرى ، وفي العام التالي (١٣٧٥) صدرت تعليمات الحكومة البندقية إلى ممثلها في قبرص بأن يغادر الجزيرة في الحال (٢٦) .

وعلى الرغم من أننا لا ندري فيما إذا انسحب كافة التجار البنادقة من الجزيرة ، إلا أننا نستطيع القول أن انقطاعاً قد حدث في العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص ، فطالما أن قرار المقاطعة قد صدر من حكومة البندقية ، فإن الأخيرة لن تسمح للأساطيل التجارية بمغادرة البندقية إلى قبرص ، غير أن السناتو البندقي سحب قراراته عام ١٣٧٨ م . وعاد القنصل البندقي إلى مقر عمله في قبرص ، واستأنف التجار البنادقة نشاطهم في الجزيرة ، وأخذت الأساطيل التجارية للبندقية بالرسو في الموانئ القبرصية (٢٧) . ولقد أثار سحب السناتو لقراراته جدلاً بين بعض المؤرخين المحدثين ، فماس لا ترى يرى أن السبب الذي دفع السناتو البندقي إلى سحب قرارات قطع العلاقات التجارية مع قبرص أن الحكومة الجنوية قد قررت عام ١٣٧٦ إعطاء تعويض للبنادقة عن البيوت التي دمرت لهم في فماجوستا أثناء الفتنة بين الجنوية والقبارصة فيها (٢٨) ، في حين يرى ألاستوس Alastos أن السبب في سحب السناتو لقراراته هو سقوط دولة أرمينية الصغرى عام ١٣٧٥ ، وبالتالي أصبحت قبرص الدولة المسيحية الوحيدة في شرق البحر المتوسط ، ولا بد من وجود علاقات ودية بينها وبين البندقية (٢٩) .

ويتساءل الباحث : ما علاقة سقوط دولة أرمينية الصغرى بعودة العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص . ويبدو أن تفسير ذلك في أنه كان للبندقية مصالح تجارية كبرى في أرمينية الصغرى ، فقد كانت أرمينية منفذاً تجارياً بالغ الأهمية بالنسبة لتجارة الشرق الأقصى ، كما كان للبنادقة جالية تجارية كبيرة في عاصمة أرمينية الصغرى (إياس) . وعلى

(26) Ibid., 11, P. 363 .

(27) Maslatrie, Hist. de chypre, 11, PP. 363 — 64 .

(28) Ibid., 11, P. 365 .

(29) Alastos, op. cit., P. 202 .

الرغم من أنه لم يكن لقبرص - بالنسبة للتجارة البندقية - الأهمية التجارية نفسها التي كانت تتمتع بها أرمينية الصغرى ، إلا أن عودة العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص كانت نوعا من التعويض لما لحق بالبنادقة وتجارهم من خسائر فادحة نتيجة سقوط أرمينية الصغرى بيد المماليك .

وهكذا فإن النشاط التجاري للبنادقة في قبرص خلال القرن الثالث عشر ، كان نشاطا ضعيفا بالنسبة إلى ما كان عليه في الإمارات الصليبية وبيزنطة قبل استرداد البيزنطيين لها عام ١٢٦١ م . إلا أن العلاقات التجارية بين البندقية وقبرص قد انتظمت خلال القرن الرابع عشر . وترسخت أقدم الجاليات التجارية البندقية في مدن الجزيرة ، وبالتالي كانت مرحلة ازدهار واضحة للنشاط التجاري البندقي في قبرص ، وربما السبب في ذلك هو اقتناع البندقية بأن احلامها ، في استعادة مكانتها التجارية ، في بيزنطة والشام ، قد تجاوزها الزمن ، وادراكها أن تثبيت أقدامها في قبرص ، باعتبارها آخر موقع للغرب اللاتيني في شرق البحر المتوسط ، أمر لا مفر منه بالنسبة إلى مصالحها التجارية في مصر والشام بصفة خاصة والحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفة عامة .

أما بالنسبة إلى النشاط التجاري للبندقية في جزيرة كريت فمن المعروف أن البندقية كانت قد حصلت على امتيازات تجارية لها في جزيرة كريت عام ١١٤٨ م ، حيث منحها الإمبراطور مانويل كومنين حق المتاجرة في الجزيرة واعفاها من الرسوم والضرائب (٣٠) . وبعد احتلال اللاتين للقسطنطينة عام ١٢٠٤ م كانت جزيرة كريت من نصيب الماركيز بونيفاس مونترفرت ، وذلك بموجب معاهدة تقسيم الإمبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤ م ، إلا أن بونيفاس سرعان ما باع الجزيرة إلى جمهورية البندقية في ١٢ أغسطس عام ١٢٠٤ م (٣١) .

ولم تتمكن البندقية من امتلاك جزيرة كريت فعلا إلا منذ عام ١٢١٢ م ،

(30) Heyd, 1, P. 200 .

(٣١) انظر نص عقد شراء البندقية للجزيرة من بونيفاس في :

Tafel and Thomas, 1, PP. 512 — 16 .

Miller , The Latins in the Levant, P. 2

وذلك لأنه كان عليها - خلال ذلك - أن تخوض حربا ضد كونت مالطة ، الذي كان قد احتل كريت - قبيل شراء البندقية لها - بدعم من الجنوية ومساندتهم (٣٢) .

وقسمت حكومة البندقية (١٢١٢ م) جزيرة كريت إلى أقطاعات ، ووزعتها بين عدد من الفرسان البنادقة ، شريطة أن يقوم هؤلاء بمهمة الدفاع عن الجزيرة وتوطيد الحكم البندقي فيها وحماية المصالح التجارية العليا للقومون البندقي في الجزيرة (٣٣) . وبهذا فقد بدأ البنادقة عملية استيطان منظمة في كريت ، وكان المستوطنون البنادقة فئتين الأولى فئة الفرسان المحاربين ، الذين امتلكوا أقطاعات موزعة في كل أنحاء الجزيرة ، والفئة الثانية التجار ، الذين استقروا في المدن الرئيسية للجزيرة ، وبصفة خاصة في العاصمة كانديا Candia (٣٤) .

ولقد عينت حكومة البندقية ممثلا لها في جزيرة كريت ، وأعطته لقب « دوق كريت » ، واتخذ من كانديا مقرا له (٣٥) . وكانت سلطته تمتد على البنادقة جميعا ، الفرسان منهم والتجار (٣٦) ، وكان يساعده اثنان من القناصل البنادقة في إدارة الجزيرة ، بصفة مستشارين ، إضافة إلى موظف بندقي آخر يدعى بالرئيس أو النقيب Captain . وكان يتم تعيين هؤلاء الموظفين من حكومة البندقية لمدة محددة ، ومن ثم يتم استبدالهم بآخرين من البنادقة أيضا (٣٧) . وكان يساعد الدوق أيضا في مهمته مجلس مؤلف من عدد من البنادقة المقيمين في كريت (٣٨) . وبذلك استوطن البنادقة جزيرة كريت ، وقامت فيها حكومة بندقية ، وكانت خطة البنادقة جعل كريت بندقية ثانية (٣٩) .

(32) Miller, The latins, PP. 47 — 48 .

(33) Tafel and Thomas, 11, PP. 129 — 36 .

(34) Lane, A maritime., P. 43 .

(35) Tafur op. cit., PP. 50 — 51 ; Miller, The Latins., P: 48 :

(36) Hodgson, op. cit, P. 48 .

(37) Chambers, op. cit., P. 53

(38) Hodgson , op. cit, P. 48 .

(39) Bury ' The lombards ' , 1, P. 329 .

وتعود أهمية جزيرة كريت ، بالنسبة الى النشاط التجاري للبندقية ومستقبله في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، في موقع الجزيرة من جهة وفي ثرواتها ومنتجاتها من جهة أخرى ، وذلك أن كريت كانت جسرا أو محطة بالغة الأهمية للقوافل التجارية التابعة للبندقية والمتجهة الى مصر والشام (٤٠) ، أكثر من كونها محطة لسفن البنادقة التجارية المتجهة الى القسطنطينية (٤١) . أما منتجات الجزيرة فقد اشتملت بشكل رئيسي على أجود أنواع الخمور (٤٢) ، والتي كانت كانديا سوقا رئيسيا للمتاجر بها (٤٣) . وقام التجار البنادقة بنقل خمور كريت الى أوربا الغربية بصفة عامة ومنطقة الفلاندرز بصفة خاصة ، وإلى مدينة البندقية ذاتها من أجل الاستهلاك المحلي ، وإلى أقاليم البحر الاسود (٤٤) ، وكذلك الى مصر (٤٥) . كما اشتهرت جزيرة كريت بانتاج الجبن والعسل ، ونقل التجار البنادقة هاتين المادتين الى بلدان شرق البحر المتوسط ، وبصفة خاصة الى مصر (٤٦) . كما جلب البنادقة من كريت الحبوب والزيت والسكر (٤٧) ، فضلا عن « الذهب والحديد والقصدير وغير ذلك من المعادن » (٤٨) .

وتعرض النشاط التجاري للبندقية ، في جزيرة كريت ، الى أخطار بالغة ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد أدرك سكان كريت من الوطنيين أن ثروات بلادهم تذهب الى جيوب الفرسان البنادقة ومستودعات

(40) Ibid., P. 312

(41) Lane, A maritime, P. 70 .

(42) Canon, op. cit., P. 203.

(43) Ibid., P. 203 — 204 .

(44) McNeill, op. cit., P. 66.

(٤٥) قال ابن اياس « يجلب من جزيرة اقريطش الخمر الاقريطشي وغير ذلك من الاصناف والبضائع وأشياء لا توجد الا بها » انظر : ابن اياس : نشق الازهار ،

ورقة ١٦٨ ب .

(٤٦) قال ابن سعيد أن البندقية صدرت الجبن والعسل من كريت الى الاسكندرية ،

وقال ابو الفدا : أيضا : « ويجلب من اقريطش الى الاسكندرية الجبن والعسل » .

انظر : ابن سعيد ص ١٧٠ ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٩٥ .

(47) Lane, A maritime ; P. 70 .

(٤٨) ابن اياس ، نشق الازهار ، ورقة ١٩٢ أ .

مدينة البندقية وأسواقها ولهذا ثار السكان ضد الحكم البندقي (١٢١٧) — (١٢١٩) . ولعب الجنية دورا كبيرا في تحريضهم ومساندتهم ضد البنادقة . ولم تتمكن البندقية من القضاء على الثورة الا بشراء السلام من الثائرين ، حيث وزعت اقطاعات في الجزيرة على أعداد كبيرة من السكان اليونانيين فيها (٤٩) .

ولم تمض بضع سنوات حتى ثار اليونانيون في الجزيرة ثانية ، ضد البنادقة ، وطلبوا مساعدة امبراطور نيقية حنا الثالث . ورغم الانتصار الذي حققته القوات التي بعثها الامبراطور الى كريت ، الا أن الثورة اخفقت ، واضطرت القوات البيزنطية الى الانسحاب من الجزيرة عام ١٢٣٦ واستعاد البنادقة مركزهم فيها (٥٠) .

وتمكن البندقية فيما بعد من الحصول على اعتراف بملكيتها لجزيرة كريت من الدولة البيزنطية وذلك في المعاهدة التي وقعتها مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن عام ١٢٦٨ م (٥١) ، ومن خلال المعاهدة التي وقعتها مع الامبراطور أندريق الثاني عام ١٢٨٥ م (٥٢) وبذلك فقد اتخذ الوجود البندقي للجزيرة صفته الشرعية ، وأخذ البنادقة يمارسون نشاطاتهم التجارية وغيرها فيها دون خوف من الاباطرة البيزنطيين .

وفي عام ١٣٦٣ م تعرض النشاط التجاري للبنادقة في جزيرة كريت الى خطر كاد يقضي على الحكم البندقي ومستقبل تجارة البندقية في الجزيرة ، وذلك أن سكان الجزيرة ، البنادقة منهم واليونانيين قد ثاروا ضد الادارة البندقية في كريت ، نتيجة استيائهم من الضرائب الباهظة التي كانت حكومة البندقية تفرضها عليهم . وعلى الرغم من أن القومون البندقي قد تمكن من القضاء على الثورة في الجزيرة في العام التالي (١٣٦٤ م) الا أن شللا حقيقيا ألم بتجارة البندقية في الجزيرة خلال ذلك العام ، وخلال الاعوام القليلة التالية لاختفاها وذلك نتيجة أعمال العنف والدمار الذي

(49) Tafel and thomas , 11, PP. 210 — 13 .

(50) Angold, A Byzantine Government., P. 197 .

(51) Tafel and Thomas, 111, PP. 133 FF.

(52) Ibid., 111, PP. 322 FF.

الم بشروات الجزيرة والمستوطنات التجارية البندقية فيها (٥٣) .

وبالرغم من كل الاضطرابات التي حدثت في جزيرة كريت على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد شكل النشاط التجاري للبنداقية فيها فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . واعتبرت مستوطناتهم فيها من أهم المستوطنات التجارية البندقية في شرق البحر المتوسط واكثرها فعالية ، بل « ان السيادة اللاتينية في الشرق استندت على جزيرة كريت » كما قال الدوج البندقي جينو Geno في رسالته الى البابا أوربان الرابع في ٨ سبتمبر عام ١٢٦٤ م (٥٤) .

أما بالنسبة الى النشاط التجاري للبندقية في جزيرة نيقروبولنت Negroponte (٥٥) فمن المعروف أن هذه الجزيرة كانت من نصيب البندقية بموجب معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م (٥٦) الا أن جمهورية البندقية لم تتخذ أية اجراءات لاحتلال الجزيرة ، وذلك لانها لم تكن بقادرة على احتواء كل الجزر والمدن التي خصصت لها بمعاهدة التقسيم (٥٧) . ولهذا قام بونيفاس مونفترات - حاكم سالونيك (١٢٠٤ - ١٢٠٧) - بتقسيم جزيرة نيقروبولنت بين ثلاثة من البارونات للمباردين ، متجاهلا بذلك حقوق البندقية في الجزيرة الا أنه بعد وفاة بونيفاس وضع البارونات جزيرة نيقروبولنت تحت حماية البندقية ، وذلك تجنباً لوضعها تحت سيادة الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (٥٨) .

وقد نشر تافيل وتوماس ، في مجموعتهما ، نص الامتياز الذي بعثه

(53) Mas latrie, Hist. de chypre, 111, PP. 743 — 45 .

(54) Tafel and Thomas, 111, PP. 56 — 59 .

(٥٥) تقع جزيرة نيقروبولنت في بحر ايجه ، وقال ابن سعيد : « وهي من اكبر الجزائر الرومانية وهي مشهورة بخروج السفن والقطائع منها » ، وقال القلقشندي : « ومن أعمال البندقية « جزائر النقرنت » انظر : ابن سعيد ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، القلقشندي ج ٥ ، ص ٤٠٥ .

(56) Robert clari, PP. 125 — 26 ; Bury, ' The lombards ' , 1, P. 311 .

(57) Miller , The Latins, P. 77 .

(58) Hodgson, op. cit., P. 39 .

البارونات المبارديون ، اسياذ جزيرة نيقروبولنت ، الى حكومة البندقية ، وهو مؤرخ في مارس عام ١٢٠٩ م ، وينطوي على وعد بأن يكونوا أتباعا مخلصين لدوج البندقية وأن يبعثوا سنويا الى جمهورية القديس مرقص / ٢١٠٠ / هيبيريون من الذهب وتوبا مطرزا الى الدوج وآخر الى مذبح القديس مرقص . واشتمل الامتياز أيضا على أن يكون للبنداقية الحق في المتاجرة بالجزيرة وامتلاك مستودعات وكنائس في كل مدنها فضلا على ذلك كله فقد تضمن الامتياز على وعد باعفاء البنداقية من كافة الرسوم والضرائب في كل أرجاء الجزيرة (٥٩) .

ورحبت البندقية بعروض البارونات ، وأعلنت حمايتها على الجزيرة عام ١٢١٢ م (٦٠) وعينت من قبلها حاكما عليها وأعطته لقب البايو ، واتخذ مقره في مدينة نيقروبولنت (٦١) . وكانت مهمة البايو هذا أن يكون حاكما على الجزيرة ، وممثلا لحكومة البندقية فيها ، وفي الوقت ذاته أن يكون رئيسا لجالياتها التجارية في مدن الجزيرة . ونظرا لصعوبة هذه المهمة اضطرت حكومة البندقية لتعيين اثنين من القناصل لمساعدة البايو في ادارة مصالح البندقية في الجزيرة (٦٢) .

ومنذ استرداد البيزنطيين للقسطنطينية ، عام ١٢٦١ م أصبحت نيقروبولنت ذات أهمية كبرى بالنسبة الى تجارة البندقية ، فزادت من رواتب البايو البندقي فيها ، وانفقت الاموال بسخاء لحمايتها ، وقامت ببناء سور حول الحي البندقي في العاصمة نيقروبولنت . ويرى بيوري أن هذا الحي أصبح يشبه في مميزاته وأهميته الحي البندقي في القسطنطينية (٦٣) . وفي الوقت ذاته ازدادت أهمية البايو البندقي وسلطاته في الجزيرة ، بحيث أصبح من الناحية العملية الحاكم الاول فيها فقد كان مفوضا بالختم والتوقيع عن دوج البندقية في كل ما يتعلق بشؤون الجزيرة والجالية البندقية فيها (٦٤) . وكان يقوم بتقليد البارونات اللاتين في

(59) Tafel and Thomas, 11, PP. 89 — 96 .

(60) Bury, ' The lombards ' , 1, P. 317 .

(61) Ibid., P. 317 ; Miller, The latins., P. 77 .

(62) Miller, The latins., P. 210 .

(63) Bury, op. cit., 1, P. 320 ; 11, PP. 194 — 95 .

(64) Ibid., 1, P. 319 ; Miller, The Latins., PP. 77 — 78 .

مناصبهم ويتلقى منهم يمين الولاء والطاعة باعتباره ممثلاً للدوج (٦٥) .
وبذلك فإن البايو البندقي في نيقروبول كان أكثر أهمية من دوقات
البنادقة في كريت فيما يتعلق بتأثيره على السياسة العامة للبندقية في شرق
البحر المتوسط (٦٦) .

وتمثلت المصالح التجارية الكبرى للبندقية في نيقروبول في موقع
الجزيرة من جهة وفي ثرواتها من جهة أخرى ، فطالما أن الهدف الأول
للبنديقية ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كان تحقيق السيادة
التجارية والبحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، فإن امتلاك
جزيرة نيقروبول كان خطوة بالغة الأهمية لتحقيق هذا الهدف فموقعها
في بحر إيجه مكن البنادقة من أن يجعلوها قاعدة لهم أو محطتهم
الرئيسية في نشاطهم التجاري وحركة أساطيلهم التجارية بين كريت
والقسطنطينية (٦٧) ، وما بين البندقية والغرب الأوربي من ناحية ،
والقسطنطينية والبحر الأسود من ناحية أخرى . يضاف إلى ذلك ، أن
السفن التجارية البندقية التي كانت تنقل المتاجر والسلع من الغرب
الأوربي ، إلى اليونان وجزر بحر إيجه كانت ترسو عند جزيرة نيقروبول
لكي تنضم في طريق عودتها إلى البندقية ، إلى سفن البندقية القادمة من
القسطنطينية والبحر الأسود (٦٨) . فضلاً على ذلك فقد أفاد البنادقة من
ثروات جزيرة نيقروبول في نشاطهم التجاري ، وبصفة خاصة ما اشتهرت
به الجزيرة من الحرير الخام والحرير المصنع ، إضافة إلى الزيوت والخمور
والحبوب والشمع والعسل (٦٩) .

وقد واجه النشاط التجاري للبنادقة في نيقروبول بعض الصعوبات
خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فادعاءات الأمراء اللاتين في المورة
Morea في أحقيتهم بحكم الجزيرة ومحاولاتهم انتزاعها ، هدد الأحياء
التجارية للبندقية في الجزيرة ، إلا أن البندقية تمكنت من دفع هذا الخطر
عنها بمعاهدات السلام التي وقعتها مع أمراء المورة فيما بين عامي ١٢٥٦ -

(65) Hodgson, op. cit., P. 40 .

(66) Bury, op. cit., 1, PP. 329 — 30 .

(67) Lane , A maritime ., P. 43 .

(68) Ibid., P. 70 .

(69) Miller, The Latins., P. 152 .

١٢٦٢ م (٧٠) . كما تمكنت البندقية من الحصول على اعتراف الإباطرة
البيزنطيين بسيادتها على الجزيرة ، وذلك بموجب المعاهدة التي وقعتها مع
الامبراطور ميخائيل الثامن عام ١٢٦٨ م ، ومعاهدة عام ١٢٨٥ م التي
وقعتها مع أندريق الثاني (٧١) .

وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر تعرض النشاط التجاري
للبنديقية في نيقروبول إلى الخطر التركي العثماني ، فالبايو البندقي
بالجزيرة كتب إلى القومون البندقي ، خلال تلك الفترة يشرح له الأخطار
التي تحيق بنيقروبول من جراء القراصنة الأتراك الذين أجبروا أكثر من
(١٥) ألفاً من سكان سواحل الجزيرة إلى الفرار إلى الداخل ، ويؤكد ميلر
أن البندقية كانت القوة الوحيدة القادرة على الدفاع عن نيقروبول ضد
الخطر التركي ولهذا كان عليها أن تنفق الكثير من مواردها للحفاظ على
مصالحها التجارية وجالياتها في الجزيرة (٧٢) . وفي أواسط القرن الرابع
عشر (١٣٥٠ - ١٣٥٢ م) أغار الجنوية في خيوس على جزيرة نيقروبول
ويقول المؤرخ البيزنطي غريغوري ، الذي كان في زيارة للجزيرة آنذاك
أن الجنوية قد أحرقت أحياء البندقية في مدينة نيقروبول ، ودمروا
مستودعات التجار البنادقة وحوالياتهم وأسواقهم ، ثم عادوا إلى خيوس
حيث علقوا على أبوابها مفاتيح مدينة نيقروبول (٧٣) . إلا أن تجارة
البنادقة وجالياتهم في نيقروبول تعرضت لكراهية سكان الجزيرة
اليونانيين (٧٤) ، فالمؤرخ سانودو يقول أن الفلاحين اليونانيين
في الجزيرة كانوا يهرعون إلى الشواطئ ومعهم المؤن والذخائر عندما
كانوا يشاهدون مركباً جنوبياً يقترب من الجزيرة ، في حين كانوا يظهرون
عدم الاهتمام عندما كانوا يشاهدون مركباً بندقياً (٧٥) .

(٧٠) انظر ذلك في :

Tafel and Thomas, 111, PP. 1—12 , 39—43 , 44—46 .

(٧١) انظر تفصيل ذلك :

Ibid., 111, PP. 62 — 89 , 322 — 39 .

(72) Miller, The latins, PP. 245 ; 588 .

(73) Gregorae, op. cit., 11, P. 878 .

(٧٤) يقول الرحالة طافور أن « حكام جزيرة نيقروبول بنادقة وسكانها اغريقيا » .
انظر : Tafur , P. 152 .

(75) Miller, The Latins, P. 209 .

وبالرغم من هذا الشعور العدائي تجاه البنادقة الا أن نشاطهم التجاري في جزيرة نيقروبولت ازدهر على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وشكلت هذه الجزيرة حلقة هامة في النشاط التجاري للبندقية في شرق البحر المتوسط ، وافاد البنادقة من مميزاتا وثرواتها . وتحولت على أيديهم الى مركز تجاري كبير وملتقى تجار الشرق والغرب ، ومحطة نظامية للأساطيل التجارية البندقية الى بيزنطة والبحر الاسود بل تحولت نيقروبولت على أيدي البنادقة - كما يقول أحد المؤرخين المحدثين - الى أغنى مركز صيرفي بندقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط (٧٦) .

وينبغي لنا ، قبل أن نصل الى نهاية دراستنا عن النشاط التجاري البندقية ، في جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، أن نشير الى أهمية مينائي مدينتي مودون Modon وكورون Coron ، الواقعين على خليج مسينا في شبه جزيرة البليوبونيز ، بالنسبة الى هذا النشاط . وذلك ان مودون وكورون كانتا من نصيب البندقية في معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م ، وتمكن الاسطول البندقي ، عام ١٢٠٦ م ، من احتلالهما (٧٧) . وكانت أهميتهما التجارية بالنسبة الى البندقية لا تنحصر بما اشتهرت به مودون وكورون من حيوب وخمور وزيت فحسب وانما في المقاوم الاول بموقعهما الذي ساعد البندقية لان تجعل منهما محطتين تجاريتين بالغتي الاهمية بالنسبة لاساطيلها التجارية القادمة من البندقية أو الغرب الاوربي الى كريت واليونان والقسطنطينية والبحر الاسود وقبرص ومصر والشام وآسيا الصغرى (٧٨) . ولقد عينت الحكومة البندقية حكام هاتين المحطتين من المدينة الام (٧٩) ، وانتزعت من الاباطرة البيزنطيين ، عام ١٢٦٨ وعام ١٢٨٥ م ، اعترفا بملكيتها لهما (٨٠) وظلت مودون وكورون ذواتا أهمية كبيرة في النشاط التجاري للبنادقة في شرق البحر المتوسط

(76) Ibid., P. 155 .

(77) Miller, The Latins, P. 39 .

(78) Niccolo , op. cit., P. 2 ; Hodgson , op. cit., PP. 133 — 34

(79) Canon , op. cit., P. 194 .

(80) Tafel and Thomas, 11, PP. 62F. , 322 F.

خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وبذلك فان النشاط التجاري للبندقية ، في جزيرة قبرص وكريت ونيقروبولت ومودون وكورون ، جزء لا يتجزأ من نشاطها التجاري بالحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وفصل بالغ الاهمية في التاريخ التجاري للبنادقة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وارتبط النشاط التجاري للبندقية في هذه الجزر ارتباطا مباشرا بعلاقات البندقية التجارية ، مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ويضاف الى ذلك أن الاهمية التجارية والاقتصادية الكبرى لهذه الجزر ، بالنسبة لتجارة البندقية ، كانت بالدرجة الاولى كمحطات لاساطيلها التجارية وأسواق لمتاجر الشرق والغرب ، ومستودعات لمتاجر وسلع الشرق الاقصى وبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

الفصل الثاني

النشاط التجاري للجنوية في جزر القوس الشرقية والبحر المتوسط

ارتبط النشاط التجاري للجنوية في جزيرة قبرص ارتباطاً وثيقاً بالمعاهدات التجارية التي وقعها القومون الجنوبي مع الملوك القبارصة على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وتعتبر معاهدة عام ١٢١٨ م ، التي وقعها القومون الجنوبي مع الملكة آليس شامبيني A. Champagn (١) ، البداية الحقيقية للنشاط التجاري الجنوبي في الجزيرة . فلقد اشتملت هذه المعاهدة على اعفاء الجنوية من كافة الرسوم والضرائب ، المتعلقة بعمليات البيع والشراء ، في كافة مدن الجزيرة وموانئها . ومنحت المعاهدة الجنوية الاستقلال القضائي في الجزيرة من كل القضايا المتعلقة برعايا الجنوية فيها الا جرائم القتل والاغتصاب والخيانة التي يتوجب النظر فيها أمام المحاكم الملكية في الجزيرة ، كما تضمنت المعاهدة منح الجنوية قطعتي أرض في كل من ليماسول وفماجوستا لبناء منازل ومكاتب تجارية ومستودعات ، فضلاً على ذلك كله فقد انطوت المعاهدة على تعهد الحكومة القبرصية بحماية أرواح التجار الجنوية وممتلكاتهم ومتاجرهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها قرب الشواطئ القبرصية ، ومقابل هذه الامتيازات تعهد القومون الجنوبي بتقديم المساعدات البحرية للدفاع عن الجزيرة عند الضرورة (٢) .

ومن المؤكد أن الجنوية رحبوا بالامتيازات التجارية وغيرها التي منحت لهم في جزيرة قبرص . ونظروا إليها على أنها فرصة طيبة للبدء في تشكيل جاليات تجارية لهم في مدنها وموانئها الرئيسية وتثبيت أقدامهم وحماية

(١) كانت آليس شامبيني وصية على العرش القبرصي ، وذلك لان ابنها هنري الاول ابن هيوغ الاول لوزنجيان كان ما يزال قاصراً . انظر :

Hill, Hist. of cyprus, 11, P, 85 .

(2) Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, P. 39 .

مصالحهم التجارية الكبرى فيها (٣) . وفي عام ١٢٣١ م وقع حنادي أبيلين - الذي كان وصياً على هنري الاول ملك قبرص - معاهدة مع الجنوية اشتملت على تجديد للامتياز المتعلق باعفاء الجنوية من الرسوم الجمركية في الجزيرة ، ومنح الجنوية محكمة خاصة بهم في الجزيرة ، وذلك مقابل دعم الجنوية لحنا في صراعه الدائر (٤) مع قوات الامبراطور فردريك الثاني ونوابه في قبرص (٥) . وبذلك فقد جاءت معاهدة عام ١٢٣١ م ، بين قبرص وجنوه ، لتؤكد الروح الحقيقية التي انطوت عليها معاهدة عام ١٢١٨ م .

ووقفت قوات جنوة البحرية الى جانب حنادي أبيلين ، ولعبت دوراً هاماً في اخضاع نواب الامبراطور فردريك الموالين له في قبرص (٦) ، ولهذا صدق ملك قبرص ، هنري الاول ، على المعاهدة الموقعة بين الجنوية وحنادي أبيلين ، وذلك في مدينة فماجوستا بتاريخ ١٠ يونيو عام ١٢٣٢ م ، كما أضاف الملك هنري الى المعاهدة امتيازات جديدة ، اشتملت على حق الجنوية بأن يكون لهم ، في كل من نيقوسيا وبقوس وفماجوستا ، بيوتاً ومساكن ، وأفران خاصة بهم (٧) .

ويلاحظ أن نص المعاهدة التي صادق عليها الملك هنري عام ١٢٣٢ م ، كان في حقيقته تجديداً لبود معاهدة عام ١٢١٨ م التي وقعت جنوة مع الملكة آليس ، الا أن الشيء الجديد في هذه المعاهدة هو منح الجنوية الحق في اقامة جاليات تجارية في مدن جديدة مثل نيقوسيا وبقوس .

ويبدو من خلال الوثائق المتعلقة بمعاهدتي عام ١٢١٨ م وعام ١٢٣٢ م . أنه لم يكن للجنوية حتى ذلك الوقت قنصل في قبرص ، وانما كان لها - ثلاثة من الموظفين Rector في ثلاث مدن قبرصية ، فماجوستا ، نيقوسيا ،

(3) Hill, op. cit., 11, P. 86 .

(4) Novar, The Wars of Fredrick 11, P. 144 .

(٥) عن الصراع بين الامراء الصليبيين وقوات فردريك الثاني في قبرص انظر : عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص ٤١ - ٤٢ .

(6) Novar, op. cit., P. 136

(7) Ibid., P. 148 ; Mas latrerie ; Hist. de Chypre, 11, PP. 51 — 56 .

ليماسول ، مهمتهم معالجة المسائل المتعلقة بالتجار الجنوبي المقيمين في هذه المدن ، وبصفة خاصة ما يتعلق منها بالامور القضائية ، ولكن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أصبح الجالية الجنوبية رئيسا ، اتخذ لقب بودستا ، واتخذ مقره في مدينة فماجوستا(٨) .

وضعف النشاط التجاري للجنوية في جزيرة قبرص ما بين عامي ١٢٩٢ - ١٣٢٠ م ، وذلك لان المنافسة بين البنادقة والجنوية على التجارة الشرقية قد انتقلت من بيزنطة والامارات الصليبية الى قبرص ومياها . ففي عام ١٢٩٢ م هاجمت بعض السفن البندقية سفنا تجارية جنوبية بالقرب من قبرص ، اثناء رحلتها العادية من بيزنطة الى جنوة الا ان الجنوبية انتصروا على البنادقة ، فأرسلت البندقية اسطولا آخر في عام ١٢٩٤ م ، قام بمهاجمة الجنوبي المقيمين في ليماسول وفماجوستا وفي ميناء اياس واستولى الاسطول البندقي على سفينة جنوبية كانت ترسو فيه . وسرعان ما ظهر الاسطول الجنوبي ، الذي تمكن من الحاق هزيمة قاسية بالسفن البندقية ، وانتزع كل السلع والمتاجر التي نهبها البنادقة من ميناء اياس(٩) .

وانتقلت المنازعات بين الجنوبية والبنادقة في البحر الى جاليتهم التي تعيش في جزيرة قبرص ، وذلك عندما أحرق البنادقة في ميناء فماجوستا سفينة جنوبية كانت ترسو فيه وذلك عام ١٢٩٧ م . ولم ينتقم الجنوبية لهذه الحادثة لان الملك القبرصي ، هنري الثاني ، وعدهم بالتعويض لهم عن خسائهم ، الا أن الاخير لم يف بذلك ، مما اضطر الحكومة الجنوبية لان تقطع علاقاتها التجارية مع جزيرة قبرص . وطلبت من جميع رعاياها مغادرة قبرص(١٠) .

وسرعان ما ازداد الموقف سوءا بين الجنوبية والقبارصة ، وذلك عندما رد الملك القبرصي على اجراء الحكومة الجنوبية باجراءات أكثر خطورة ،

(٨) Hill, Hist. of Cyprus, 11, 206, 211 .

(٩) انظر :

Alastos, op. cit., P. 186 ; Hill, op. cit., 11, PP. 207 — 208 ;

Luke, H., ' The Kingdom of Cyprus ' P. 342 .

(١٠) Hill, op. cit., 11, PP. 209 — 210 .

حيث أمر سنة (١٢٩٩م) بمقاطعة السلع والمتاجر الجنوبية وفي الوقت ذاته استولى على ممتلكات الجنوبية في كافة مدن الجزيرة(١١) ، وأجبر سنة ١٣٠٥م الجنوبية الذين لم يغادروا قبرص، على أداء يمين الولاء والطاعة لشعب قبرص وملكها(١٢) ، وجردهم سنة ١٣١٢م من أسلحتهم ونقلهم جميعا الى مدينة نيقوسيا(١٣) .

وازاء الدمار الذي لحق بتجارة الجنوبية وجاليتهم في قبرص على يد الملك القبرصي منحت الحكومة الجنوبية الحماية لكل جنوي يلحق الاذى بالقبارصة والبنادقة في كل مكان . وعلى اثر ذلك بدأ القراصنة الجنوبية بالاغارة على الشواطئ القبرصية . وبملاحقة السفن القبرصية والبنندقية معا في مياه الجزيرة وموانئها(١٤) . ففي عام ١٣٠٣م كتب المندوب البندقي في قبرص - على سبيل المثال - تقريراً الى حكومته ابلغها فيه أن القراصنة الجنوبية قد هاجموا السفن التجارية للبندكية في مياه قبرص والحقوق بها اضرارا بالغة(١٥) . ولقد بلغت أعمال القراصنة الجنوبية ، ضد قبرص ذروتها بمهاجمتهم مقاطعة باقوس عام ١٣١٢ وعام ١٣١٦ م(١٦) .

والحققت القرصنة التي قام بها الجنوبية ، في المياه القبرصية ابلغ الاضرار بتجارة الجنوبية وجاليتهم في قبرص ، أكثر مما ألحقت بالقبارصة . ففي عام ١٣١٦م ، رد الملك القبرصي على أعمال القرصنة الجنوبية باعتقال جميع الجنوبية الذين كانوا يعيشون في قبرص وقتذاك وأودعهم سجون نيقوسيا ، بما في ذلك النساء والاطفال ، ولم يتم الافراج عنهم الا عام ١٣٢٠م نتيجة لوساطة البابا حنا الثاني والعشرين(١٧) .

(11) Ibid., 11, P. 210 .

(12) Ibid., 11, PP. 210 — 211 .

(13) Ibid., 11, PP. 278 — 73 .

(14) Luke, ' The Kingdom of Cyprus ' , P. 348 .

(15) Hill, op. cit., 11, P. 211 .

(16) Luke , op. cit., 348 .

(17) Ibid, PP. 348 — 49 .

— وبعد أن توسط البابا عام ١٣٢٠ ، بين الجنوية (١٨) والقبارصة بدأت السفارات تتردد بين جنوة وقبرص لتوقيع معاهدة سلام وتجارة ، خاصة وأن القومون الجنوي قد أدرك فداحة الخسائر التي أصابت التجارة الجنوية في الجزيرة خلال الفترة من ١٢٩٢ — ١٣٢٠ م ، وخطورة استمرار التدهور في العلاقات بينه وبين الحكومة القبرصية على مستقبل التجارة الجنوية لا في جزيرة قبرص فحسب وإنما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفه عامة . ونجحت السفارات المتبادلة بين الطرفين في توقيع معاهدة في نيقوسيا بتاريخ ١٦ فبراير عام ١٣٢٩ م . جددت فيها للجنوية جميع الامتيازات التي منحت لهم في معاهدة عام ١٢٣٢ م ووعدت الحكومة القبرصية بدفع كافة التعويضات عن الخسائر التي لحقت بالجنوية خلال فترة انقطاع العلاقات بين جنوة وقبرص . كما اشتملت المعاهدة على وعد من الملك القبرصي بأن يدفع ديونا كان قد اخذها الملكان القبرصيان ، عموري وهنري الثاني . من الجنوية ، كما وعد الملك بأن يدفع تعويضا قدره ٢١٠ / الف بيزانت مقابل تدمير القبارصة لسفينة جنوية أثناء فترة سوء العلاقات . وتعهد الملك في المعاهدة أيضاً بأن يسوي المشاكل المتعلقة بالجالية الجنوية في قبرص وأن يعيد كافة الممتلكات والمنازل والأراضي التي انتزعت من أفراد هذه الجالية ما بين ١٢٩٢ — ١٣٢٠ م (١٩) .

وبالرغم من أن المعاهدة السابقة لم تضع حدا نهائيا للمنازعات بين الجنوية والقبارصة في الجزيرة ، وبالرغم من أن القراصنة الجنوية لم يوقفوا نشاطاتهم العدائية في المياه القبرصية بعد توقيع المعاهدة ، فإن الجنوية استأنفوا نشاطاتهم التجارية في مدن قبرص وموانئها (٢٠) حتى أن السفير الجنوي سبينولا Sorleone Spinola قد تمكن من توقيع معاهدة أخرى مع الملك هيو الرابع ، في مدينة نيقوسيا في ٢١ فبراير ١٣٣٨ م (٢١) . وانطوت المعاهدة الأخيرة هذه على تجديد لكل الامتيازات التي منحت للجنوية في قبرص بموجب معاهدة ١٢٣٢ م ، إضافة الى وعد الملك القبرصي بالنظر في عدد من الشكاوى المقدمة من بعض التجار الجنوية ضد القراصنة

(18) Hill, Hist. of Cyprus, 11, PP. 280 — 81 .

(١٩) انظر نص المعاهدة في :

Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, PP. 150 — 58 .

(20) Hill, op. cit., 11, P. 288 .

(21) Mas La trie, Hist. de Chypre, 11, P. 166 .

القبارصة (٢٢) .

وازدهر النشاط التجاري الجنوية في قبرص ازدهارا كبيرا بعد معاهدة عام ١٣٣٨ م ، وازدادت اعداد الجنوية في مدن قبرص وموانئها واتخذت السفن الجنوية من الجزيرة محطة رئيسية لرحلاتها التجارية المتجهة الى مصر والشام ، ولم يمض ربع قرن على المعاهدة الأخيرة حتى انتهز الجنوية فرصة وجود الملك القبرصي ، بطرس الاول ، في مدينتهم ، ووقعوا معاهدة في ٥ مارس ١٣٦٣ م ، اشتملت تجديدا كاملا لجميع الامتيازات التي منحت للجنوية في جزيرة قبرص ، بموجب معاهدة ١٢٣٢ م ، كما تضمنت تثبيت الجنوية في ممتلكاتهم في كل من نيقوسيا وفماجوستا وباقوس ، فضلا عن ذلك فقد أكدت المعاهدة على حقوق الجنوية المتعلقة بالاعفاءات الجمركية والاستقلال القضائي ، وفقا للشروط التي حددتها معاهدة عام ١٢٣٢ ، بالنسبة الى هاتين المسألتين (٢٣) .

وفي عام ١٣٦٤ م ساءت العلاقة بين جنوة وقبرص ، وذلك نتيجة معاقبة السلطات القبرصية لبعض الملاحين الجنوية الذين يخدمون في البحرية القبرصية (٢٤) . واثرت هذه الحادثة أمرت الحكومة الجنوية في سبتمبر ١٣٦٤ جميع رعاياها المقيمين في قبرص بمغادرة الجزيرة خلال فترة أقصاها شهر فبراير من العام التالي ١٣٦٥ (٢٥) .

ويبدو أن الملك القبرصي ، بطرس الاول ، كان حريصا أشد الحرص على ابقاء العلاقات الودية بين بلاده وجنوة ، وذلك لأنه كان يعد لحملة الصليبية ، وبالتالي يحاول كسب القوى البحرية الاوربية الى جانب مشروعه ، بما فيها جنوة . ولهذا وعد الحكومة الجنوية بمعاقبة القبارصة المسؤولين عن الحوادث الدامية عام ١٣٦٤ م ، كما وقع معاهدة معها في العام التالي (١٣٦٥ م) ، اشتملت على تجديد بنود معاهدة ١٢٣٢ م وعلى توسيع الامتيازات القضائية التي تتمتع بها الجالية التجارية الجنوية في الجزيرة

(22) Ibid., 11, PP. 166 — 68 , 170 — 74 , 179 .

(23) Ibid., 11, PP. 248 — 50 .

(24) Hill, op. cit., 11, PP. 312 — 14 .

(25) Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, PP. 254 — 59 .

واشتملت المعاهدة على حق السفن الجنوبية في الالتجاء الى الموانئ القبرصية في حالة الخطر . وحذرت المعاهدة أصحاب السفن الجنوبية من نقل أي شخص غير جنوي الا باذن خاص من الحكومة القبرصية، كما نصت المعاهدة انه لا يجوز للسفن الجنوبية نقل السلع والمتاجر المحرمة من قبل الكنيسة، مثل الخشب والحديد والقار، من قبرص الى المسلمين في مصر والشام (٢٦).

وبالرغم من انه من المشكوك فيه أن يكون الجنوبية قد التزموا بالبند الاخير الذي انطوت عليه المعاهدة السابقة ، الا انه من المؤكد أن المعاهدة كانت تطوراً جديداً في طبيعة المعاهدات بين الجنوبية والقبارصة ، وأن الجنوبية استأنفوا نشاطهم التجاري في مدن الجزيرة وموانئها كما كان قبل احداث عام ١٣٦٤ م .

الا أن الفوضى التي ألمت بالجزيرة ، في أعقاب اغتيال الملك القبرصي بطرس الاول عام ١٣٦٩ ، قد ألحقت أبلغ الأضرار بالنشاط التجاري للجنوبية وجالياتهم في قبرص ، وجعلت الحكومة الجنوبية تدرك أن التجديد المستمر للمعاهدات بينها وبين الحكومة القبرصية من عام ١٢٣٢ حتى عام ١٣٦٥ لم يكن يمنع القبارصة من انتهاك هذه المعاهدات ، فالتجار الجنوبية في قبرص وجالياتهم في الجزيرة ، لم ينسوا ما أصابهم من أعمال الاعتقال والمصادرة على أيدي الملك القبرصي هنري الثاني ، كما لم يكن بإمكانهم تجاهل الاخطار التي تنتج عن استمرار الكراهية التي يظهرها سكان الجزيرة تجاه الجنوبية والتزايد المستمر في أعداد البنادقة ونفوذهم في قبرص . وبهذا فرمما كانت أحوال الجنوبية وتجارهم في قبرص ، بأعقاب اغتيال الملك بطرس الاول ، تشبه الى حد بعيد أحوال البنادقة وتجارهم في بيزنطة قبيل الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤ م) ، فإذا كانت البندقية قد اعتقدت أن حماية مصالحها التجارية والاستيطانية في الامبراطورية البيزنطية ، يقتضي احتلال القسطنطينية فان جنوة قد أدركت بدورها أن حماية مصالحها التجارية الاستيطانية في جزيرة قبرص يقتضي احتلال الجزيرة . وكان أن نشب نزاع بين الجنوبية والبنادقة، في مدينة فماجوستا (٢٧).

(26) Alastos, op. cit., P. 198

(٢٧) لتفصيل ذلك ، انظر :

Alastos, op. cit., PP. 198 — 99 ; Luke , op. cit., P. 362

أثناء حفلة تتويج الملك بطرس الثاني بتاج مملكة بيت المقدس في أكتوبر من العام ١٣٧٢ م ، ووقف القبارصة في المدينة الى جانب البنادقة ، وهاجموا الحي الجنوبي ونهبوا مستودعات التجار الجنوبية وحوالياتهم وبيوتهم ، ودمروا مقر البودستا الجنوبي وذهب ضحية ذلك أعداد كبيرة من الجنوبية المقيمين في المدينة (٢٨).

وصدمت جمهورية جنوة بالتقرير الذي وصلها من ممثلها في قبرص حول هذه الحوادث (٢٩) ، فأرسلت اسطولا الى قبرص تحت قيادة داميان كاتانو Damian Cattano (٣٠) وطالب داميان عند وصوله (٣٠ أبريل ١٣٧٣ م) الحكومة القبرصية بالتعويض عن كل ما لحق بالجنوبية في فماجوستا من أضرار اثناء النزاع وباسترداد كافة السلع والمتاجر التي نهب من مستودعات التجار الجنوبية وحوالياتهم ، وبمعاقبة المسؤولين عن الاحداث القبارصة منهم والبنادقة (٣١) .

وقبل أن تنتهي المفاوضات التي بدأها داميان مع السلطات القبرصية، بدأ الاسطول الجنوبي بمهاجمة شواطئ الجزيرة ، ورد الملك القبرصي على ذلك باعتقال كافة الجنوبية الذين يعيشون في نيقوسيا وفماجوستا (٣٢) ، وعندئذ قررت القوات الجنوبية احتلال الجزيرة ، حيث أحرقت ليماسول ، واستولت على باقوس ، واحتلت فماجوستا ووقع الملك القبرصي نفسه أسيراً بأيدي القوات الجنوبية (٣٣) ومن ثم احتلت القوات الجنوبية العاصمة

(28) Luke, op. cit., PP. 362 — 63 ; Hodgson, op. cit., P. 505.

(29) Hill, op. cit., 11, P. 387 .

(٣٠) قام بتمويل الحملة التي قادها داميان تنظيم تجاري يدعى الماهونا وأصل كلمة Mahona غير معروف بالدقة . ففي الايطالية الحديثة نجد كلمة Manos وتعني تفريغ أو شحن السفن : وفي اليونانية نجد كلمة UOVAS وهي الوحدة وفي اللهجة الجنوبية نجد كلمة Mobba وتعني الاتحاد وفي العربية نجد كلمة المعونة Me—unet انظر :

Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, PP. 366 — 68 .

(31) Hill, op. cit., 11, P. 387 .

(32) Ibid., 11, PP. 387 — 88 .

(33) Tafur , op. cit., P. 64 ; Alastos , PP: 119 — 201

نيقوسيا ، وأعملت في شوارعها السلب والنهب والقتل (٣٤) .

وفي ٢١ أكتوبر عام ١٣٧٤م ، توصل الجنوبية والقبليسة الى معاهدة سلام اشتملت على عدد من البنود تتعلق بالنشاط التجاري للجنوبية ومستقبله في الجزيرة منها : أن تتسلم الماهونا تعويضا قدره مليونان واثنان عشر ألف وأربع مئة دوكلات ، كتعويض على نفقات الحملة ، وان يحتفظ الجنوبية بمدينة فماجوستا ، وان يتخلى الملك القبرصي عن أية سلطات قضائية في فماجوستا (٣٥) .

ان استيلاء الجنوبية على مدينة فماجوستا كان حدثا بالغ الأهمية في تاريخ التجارة الجنوبية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ونقطة تحول في النشاط التجاري للجنوبية في جزيرة قبرص . فبالرغم من أن أعدادا كبيرة من التجار غير الجنوبية قد غادروا فماجوستا بعد احتلال الجنوبية لها (٣٦) ، إلا أن ذلك لم يكن عائقا أمام الجنوبية لاحتكار تجارة فماجوستا من خلال تنظيم الماهونا التجاري ، بل لقد تمكن الجنوبية من احتكار التجارة في جزيرة قبرص كلها تدريجيا (٣٧) ، وذلك لان الجنوبية في فماجوستا كانوا يقومون بمصادرة أو اعتقال أية سفينة تجارية ، قادمة من الغرب الاوربي ، لا ترسو في ميناء فماجوستا . والدليل على ذلك القاء الجنوبية القبض على عدد من السفن التجارية التابعة البندقية ، التي كانت تحاول الرسو في ميناء غير ميناء فماجوستا ، عام ١٣٨٣م . واضطر السناتو البندقي الى اصدار تعليمات ، في ذلك العام ، يمنع بموجبها التجار البنادقة من حمل السلع والمتاجر الى جزيرة قبرص (٣٨) .

وتمكن الجنوبية من تجديد احتلالهم لمدينة فماجوستا وتجديد

(34) Hill, op. cit., 11, PP. 399 — 400 .

(٣٥) انظر تفصيل ذلك في :

Alastos, op. cit., P. 201 , Hill, op. cit., 11, PP. 409 — 414 :
luke, op. cit., PP. 364 — 66 .

(36) Hill, op. cit., 11, P. 413 .

(37) Alastos, op. cit., P. 202.

(38) Hill, op. cit., 11, P. 438 .

امتيازاتهم التجارية والقضائية في بقية المدن القبرصية ، وذلك من خلال معاهدة عام ١٣٨٣م ، التي وقعها القومون الجنوبي مع الحكومة القبرصية (٣٩) .

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها القبليسة ، عام ١٣٩٦م وعام ١٤٠٢م ، لاسترداد فماجوستا من الجنوبية (٤٠) ، فقد استمرت قبضة الجنوبية تمسك لا في ميناء فماجوستا فحسب وانما في معظم تجارة الجزيرة وثرواتها (٤١) . وبذلك حقق الجنوبية تفوقا كبيرا على البنادقة في جزيرة قبرص ، واستعادت التجارة الجنوبية بعضا من مكانتها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

اما بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوبية في جزيرة خيوس Choios فإنه ارتبط بأهمية هذه الجزيرة بالنسبة الى النشاط التجاري للجنوبية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتعتبر جزيرة خيوس من أغنى جزر بحر أيجيه وأكثرها خصبا (٤٢) ، والمكان الوحيد في العالم وقتذاك الذي كانت تنمو فيه أشجار المصطكي (٤٣) ، حتى أن شهرة هذه الجزيرة وأهميتها الاقتصادية والتجارية ارتبطتا ارتباطا كبيرا بإنتاج المصطكي التي كانت تصدر الى معظم بلدان العالم آنذاك (٤٤) .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين ، أمثال بنت Bent (٤٥) ، وفلاستو

(39) Mas latrie, Hist. de Chypre, 11, P. 421 .

(40) Alastos, op. cit., P. 202 .

(٤١) استمرت مدينة فماجوستا بأيدي الجنوبية حتى عام ١٤٦٤م . انظر :
Ibid., P. 213 .

(42) Miller, ' The Genoese in Chios ' , P. 418 .

(43) Tafur, P. 113 .

(٤٤) اشتهرت هذه الجزيرة لدى الجغرافيين والمؤرخين المسلمين باسم « جزيرة المصطكي » انظر : ابن سعيد ، ص ١٨٤ ، القلقشندي ، صبح الاعشي ، ج ٨ ، ص ٥١ ، العمري ، التعريف ص ٥٩ .

(45) Bent, J. T., ' The lords of chios ' , P. 467 .

Vlasto (٤٦) ان جزيرة خيوس كانت من نصيب جمهورية البندقية بموجب معاهدة تقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبنادقة عام ١٢٠٤ م ، الا ان الباحث أرجنتي Argenti (٤٧) الذي نشر كل الوثائق المتعلقة بالنشاط التجاري للجنوية في جزيرة خيوس ، كشف مؤخرا زيف هذه الرواية ، واكد ان خيوس كانت من نصيب الامبراطور اللاتيني القسطنطينية بلدوين ولم تكن من نصيب البندقية . ومعنى هذا انه لم يكن للايطاليين بصفة عامة وللجنوية بصفة خاصة أية نشاطات تجارية في هذه الجزيرة في السنوات التالية لسقوط القسطنطينية بيد اللاتين عام ١٢٠٤ م .

ان البداية الحقيقية للنشاط التجاري الجنوبي في جزيرة خيوس ترتبط - كما بين الباحث أرجنتي - بمعاهدة عام ١٢٦١ م ، التي أبرمتها الحكومة الجنوبية مع الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجرس والتي منح الجنوية بموجبها الحق في اقامة مستوطنة لهم في الجزيرة وامتلاك سوق وكنيسة وابنية فيها ، وان يكون لهم فيها قنصل ومحكمة ذات سلطتين قضائية ومدنية على الجنوبية ومن يسكن معهم في الحي الخاص بهم من غير الجنوبية (٤٨) .

ان العلاقات الوطيدة التي ربطت الجنوبية بميخائيل الثامن كما بينا في الفصل الثاني من هذا البحث ، مكنت التجار الجنوبية من الافادة من الامتيازات التي منحت لهم في جزيرة خيوس بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م . فقد قاموا بتصدير مادة المصطكي من الجزيرة ، واتخذوا منها محطة بالغة الاهمية لقوافلهم التجارية المتجهة الى القسطنطينية والبحر الاسود والشام وآسيا الصغرى (٤٩) .

وكان ان طلب آل زكريا (٥٠) - اصحاب مناجم الشب في فوكيا -

من الامبراطور اندرنيق الثاني (١٢٨٢ - ١٣٢٨) أن يعهد اليهم بالدفاع عن الجزر المجاورة لفوكيا اذا كانت بيزنطة عاجزة عن القيام بذلك . وكانت الدريعة التي استخدمها رئيس آل زكريا ، بينديتو ، في مفاوضاته مع الامبراطور ان الجزيرة كانت محطة تجارية مزدهرة منذ أيام ميخائيل الثامن ، الا ان اعمال القرصنة من جهة وضعف الحكومة البيزنطية من جهة اخرى قد انتقص من القيمة التجارية والاقتصادية للجزيرة (٥١) .

ويبدو أن اندرنيق الثاني لم يعأ بطلب آل زكريا ، ولهذا قام بينديتو باحتلال الجزيرة عام ١٣٠٤ م (٥٢) . وطالما ان الامبراطور لم يكن في وضع يمكنه من الدفاع عنها - نتيجة انشغاله بالخطر العثماني - فقد اضطر الى قبول الامر الواقع ، وأبرم اتفاقية مع بينديتو زكريا اشتملت : على حق الاخير بأن يحكم الجزيرة مدة عشر سنوات ، دون ان يدفع اتاوات الى الدولة البيزنطية مقابل ذلك وعلى اعتراف بينديتو بأن الجزيرة من املك بيزنطة (٥٣) .

وحكم بينديتو زكريا - من مقره في فوكيا - جزيرة خيوس (٥٤) وبذلك احتكرت هذه العائلة - الى جانب الشب - تصدير المصطكي من خيوس حتى ان هذه العائلة تمكنت من الحصول على اذن خاص من البابا ، عام ١٣٢٠ م ، سمح لها بموجبه ببيع المصطكي في الاسكندرية والقاهرة لمدة سنتين ، وحدد آل زكريا هذا الترخيص عام ١٣٢٢ م لمدة أربع سنوات اخرى ، وكذلك عام ١٣٢٥ م لمدة ثلاث سنوات أيضا (٥٥) ويؤيد ذلك ما أشار اليه العمري (٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) عن العلاقات الطيبة التي كانت تربط « اصحاب جزيرة المصطكي » بسلطين المالك وعن تردد السفن التجارية الجنوبية ، الحاملة للمصطكي ، ما بين جزيرة خيوس والموانئ المصرية (٥٦) . ولهذا كله ازدادت ثروات آل زكريا الجنوبية ازديادا كبيرا ،

(51) Argenti, op. cit., 1, PP. 54 — 55 .

(52) Ludolph , op. cit., P. 29 , Argenti, 1, P. 55 ; Geanakoplos, Michael., P. 210 .

(53) Vlasto, op. cit., PP. 14 — 15 ; Argenti, op. cit. P. 55 .

(54) Argenti; op. cit., 1, P. 56 .

(55) Argenti, op. cit., 1, P. 59 .

(٥٦) ابن العمري : التعريف ، ص ٥٩ .

(46) Vlasto, A Hist. of the Island of Chios, P. 13.

(47) Argenti, The occupation of chios by The Genoese, 1, PP. 54 — 55 .

(48) Ibid., 1, PP. 52 — 53 ; Miller, The Latins, PP. 118 ; 578 .

(49) Tafur, op. cit., P. 113 ; Miller , The Latins , P. 423 .

(٥٠) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني .

حتى ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى القول أن الدخل السنوي لجزيرة خيوس ، في ظل آل زكريا بلغ قرابة ١٢٠ ألف قطعة ذهبية (٥٧) . وهذا يفسر لنا اسباب نقل آل زكريا مقر حكومتهم او ادارتهم من فوكيا الى خيوس (٥٨) .

وتعرض النشاط التجاري للجنوية بعمامة ، ومصالح آل زكريا بصفة خاصة ، في جزيرة خيوس ، خلال سيطرة آل زكريا عليها (١٣٠٤ - ١٣٢٩) الى أخطار كثيرة تمثلت في الغارات المتكررة التي كان يشنها البنادقة من ناحية (٥٩) ، والاتراك العثمانيون من ناحية أخرى (٦٠) ، فضلا عن كراهية سكان الجزيرة اليونانيين للسيطرة الجنوية ومقاومتهم لها ، وفي الانقسام الذي دب بين أبناء بينديتو زكريا (٦١) . ويبدو أن كل هذه العوامل قد مكنت القوات البيزنطية من استرداد الجزيرة ، وطرد آل زكريا منها عام ١٣٢٩ م ، بعد ربع قرن من استيلائهم عليها واستثمارهم لثروتها وموقعها (٦٢) .

وكان استرداد البيزنطيين لجزيرة خيوس خسارة تجارية كبرى بالنسبة الى جمهورية جنوة ومصالحها الاقتصادية الواسعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ونظرا لان خزينة القومون الجنوبي ، وقتذاك ، لم تكن بقادرة على تمويل اسطول لاحتلال الجزيرة واعادة السيطرة الجنوية عليها (٦٣) ، فقد اوكلت الحكومة الجنوية هذه المهمة الى عدد من نبلاتها ومواطنيها الاثرياء ، الذين شكلوا تنظيما تجاريا اطلقوا عليه اسم ماهونة خيوس Mahona of chios . وساهم كل منهم بجزء من

- (57) Argenti, 1, P. 60 , Vlasto, op. cit., PP. 15 — 16 .
(58) Argenti, op. cit., 1, P. 56 .
(59) Bent, ' The lords of Chios ' , P. 468 .
(60) Vlasto, op. cit., P. 15 .

(٦١) انظر تفاصيل ذلك في :

Ludolph, op. cit., P. 29 ; Vlasto, PP. 15 — 18 ; Bent, op. cit., PP. 468 — 96 .

(62) Ludolph, P. 29 ; Kantakazuenous, PP. 468 — 96 .

(63) Miller, ' The Genoese ' , P. 418 .

رأس المال اللازم ، لاعداد اسطول قادر على استرداد جزيرة خيوس (٦٤) . وتمهدت الحكومة الجنوية بأن تمنح تنظيم الماهونا الحق في ادارة الجزيرة وجمع الضرائب فيها واحتكار المصطكي والتجارة به وذلك كله بالنيابة عن القومون الجنوبي (٦٥) .

وتمكن الاسطول الجنوبي ، الذي أعدته الماهونا ، من احتلال جزيرة خيوس عام ١٣٤٦ (٦٦) . واعترف سكان الجزيرة اليونانية بالسيادة الجنوية على الجزيرة مقابل اعتراف الجنوية لهم بحقوقهم الدينية وامتيازاتهم التجارية (٦٧) . واضطرت بيزنطة لان تعترف عام ١٣٦٣ م ، باحتلال الجنوية لجزيرة خيوس وحقهم في استثمار مواردها مقابل تعهد الجنوية بحماية الحقوق الدينية والقضائية لسكان الجزيرة (٦٨) .

ولما كان معظم أفراد تنظيم الماهونا من عائلة جنوية ثرية هي عائلة جستنياني (٦٩) . لهذا فعندما احتلت قوات الماهونا الجزيرة غادر جميع آل جستنياني مدينة جنوة الى خيوس (٧٠) ، حيث تسلموا ادارة الجزيرة بالنيابة عن القومون الجنوبي . واحتكروا تجارة المصطكي وبقية ثروات الجزيرة ، وجمعوا الرسوم الجمركية من كافة السفن غير الجنوية التي ترسو في مينائها ، وانتزعوا الضرائب من سكان الجزيرة اليونانيين (٧١) . وبذلك أثرت عائلة جستنياني ثراء فاحشا ، وأصبحت الجزيرة القاعدة الرئيسية لشركة آل جستنياني التي استمرت تمسك بجزيرة خيوس حتى أواسط القرن السادس عشر (٧٢) .

- (64) Argenti, op. cit., 1, PP. 88 — 90 .
(65) Miller, ' The Genoese ' , P. 421 .
(66) Argenti, 1, P. 93 ; Miller, ' The Genoese ' , PP. 418 — 20 ; Vlasto, PP. 20 — 22 .
(67) Argenti, 1, PP. 97 — 102 ; Bent , op. cit., PP. 469 — 70
(68) Bent, ' The lords ' , P. 471 , Vlasto, op. cit., PP. 32 — 33
(69) Bent, op. cit., P. 472 .
(70) Ibid., PP. 472 — 73
(71) Vlasto, op. cit., PP. 28, 42 — 43 .
(72) Ostrogorsky, op. cit., P. 468 .

وتمكنك جمهورية جنوة ، من خلال تنظيم الماهونا وآل جستنياني من تحقيق مصالحها التجارية الكبرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بصفة عامة وفي خيوس وبيزنطة والبحر الاسود بصفة خاصة ، ففضلا عن احتكار الجنوية لتصدير مادة المصطكي الى معظم أرجاء العالم وقتذاك ، فقد كانت الجزيرة تتمتع بميناء تجاري بالغ الاهمية بالنسبة الى حماية القوافل التجارية الجنوبية المتجهة الى الشام والدردنيل ، كما يقرر ذلك بوضوح الرحالة طافور (٧٣) ، وكذلك لحماية القوافل التجارية الجنوبية المتجهة الى البحر الاسود ، وذلك لان الهدف الاول من احتلال الجنوية للجزيرة - كما برهن على ذلك ميلر Miller - هو حماية المستوطنات التجارية الجنوبية في البحر الاسود ، وبخاصة في كافا وطانا ، ضد الهجمات التي كان يقوم بها المغول ضد هاتين المستوطنتين (٧٤) . وشعر البنادقة بالحق لاحتكار منافسيهم الجنوبية تجارة البحر الاسود وبيزنطة من جهة واحتلالهم جزيرة خيوس من جهة ثانية ، ولهذا فقد حاولت البندقية الاستيلاء على الجزيرة ، فأرسلت اسطولا تحت قيادة نيقولا بيزاني لاحتلال الجزيرة ١٣٥١ - ١٣٥٢ ، الا أن الاسطول الجنوبي تمكن من فك الحصار عن خيوس وأجبر الاسطول البندقي على الفرار (٧٥) . وفي أواخر القرن الرابع عشر تعرض الجنوية في خيوس الى الخطر العثماني ، فاضطروا الى دفع اتاوة الى السلطان مراد الاول (ت ١٣٨٩ م) (٧٦) ، وعانوا ضائقة كبيرة عندما منع السلطان بيلايد الثاني عام ١٣٩١ م تصدير الحبوب من آسيا الصغرى الى خيوس (٧٧) . كما دفع الجنوية في الجزيرة منذ عام ١٤١٥ اتاوة سنوية الى السلطان العثماني محمد الاول قدرها أربع آلاف دوكات ذهبية (٧٨) . وذلك لحماية وجودهم في خيوس ومصالحهم التجارية في البحر الايجي .

وهكذا فان النشاط التجاري للجنوية في خيوس يشكل فصلا هاما

- (73) Tafur, op. cit., P. 113 .
 (74) Miller, ' The Genoese in Chios ' , P. 418 .
 (75) Bent, ' The lords of chios ' , P. 474 .
 (76) Miller, ' The Genoese in chios ' , P. 427 .
 (77) Vlasto, op. cit., P. 33.
 (78) Miller, ' The Genoese in chios ' , P. 427 .

في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

والخلاصة أن النشاط التجاري لمدينة جنوة في جزيرتي قبرص وخيوس جزء لا يتجزأ من النشاط التجاري للجنوية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ومرحلة بالغة الاهمية في التاريخ التجاري الجنوبي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وحقق الجنوية تفوقا كبيرا على البنادقة في جزيرة قبرص باحتلالهم ميناء فماجوستا ، وبالتالي امتلاكهم محطة بالغة الاهمية بالنسبة للاساطيل التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . كما أن احتلال الجنوية لجزيرة خيوس ، بواسطة ماهونة خيوس التي ضمت الاثرياء من ابناء مدينة جنوة ، يعتبر تجربة مبكرة للشركات التجارية ، التي ظهرت في العصر الحديث في الغرب الاوربي والتي حققت نفوذا واحتكارا كبيرين في التجارة الشرقية .

المخاتمة

وهكذا فقد كانت التنظيمات التجارية والمالية والمصرفية ، التي تبنتها الجمهوريات الإيطالية التجارية (البندقية وجنوة وبيزا) ، من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار النشاط التجاري لهذه الجمهوريات في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وتمكنت هذه الجمهوريات التجارية ، من خلال تلك التنظيمات من تمويل تجارتها مع بلدان شرق البحر المتوسط باستخدام منظم لاكبر قدر ممكن من رؤوس الاموال ، ومن تحقيق السيادة لعملاتها الذهبية في اسواق مدن وموانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط . يضاف الى ذلك ان الجمهوريات الإيطالية التجارية تمكنت ايضا من خلال هذه التنظيمات التجارية وغيرها من الافادة من ثروات ومنتجات بلدان شرق البحر المتوسط فضلا عن بلدان الشرق الاقصى .

وبرهنت الدراسة على ان البندقية تمكنت من تحقيق التفوق التجاري في بيزنطة والبحر الاسود خلال سنوات الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) ، الا ان البنادقة أخفقوا في اقامة علاقات تجارية مع الاباطرة البيزنطيين في نيقية . وأوضحت الدراسة ، من ناحية أخرى ، التدهور الذي أصاب تجارة جنوة في بيزنطة والبحر الاسود في عهد الاباطرة اللاتين ، وفشل الجنوية في اقامة علاقات تجارية « نشطة » مع امبراطورية نيقية . وأوضحنا في فصول الرسالة أن هذه المعادلة قد انقلبت بعد استرداد البيزنطيين للقسطنطينية عام ١٢٦١ م ، حيث بدأ عصر تدهور تجارة البندقية وانحطاطها في الامبراطورية البيزنطية ، وتفوق تجارة جنوة في بيزنطة والبحر الاسود . وأشرنا الى ان النشاط التجاري للبنادقة والجنوية في الامبراطورية البيزنطية يشكل جزءا هاما في تاريخهم الاقتصادي ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وأوضحت الدراسة الى ان الجمهوريات التجارية الإيطالية نظرت الى الحركة الصليبية على أنها مشروع تجاري . وحصلت على امتيازات

تجارية وغيرها في جميع المدن والموانئ الصليبية ، كما تحقق لها فوائد جمة نتيجة قيام الامارات الصليبية في الشام . وأشرنا كيف تمكن التجار الايطاليون من مضاعفة دورهم في التبادل التجاري بين الشرق والغرب عن طريق المدن الصليبية ، وأثبتنا ان النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الامارات الصليبية ، يشكل فصلا هاما في تاريخهم التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في العصور الوسطى .

وارتبط النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في مصر والشام ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ارتباطا وثيقا بالاهمية الاقتصادية والتجارية لمصر والشام وبالمصالح التجارية الكبرى للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وتمكنت الجمهوريات الإيطالية التجارية من اقامة علاقات تجارية نشطة مع سلاطين الايوبيين والمماليك في مصر والشام ، واستندت هذه العلاقات على معاهدات تجارية واضحة ، حاول الاطراف الالتزام بها حفاظا على المصالح التجارية المتبادلة بينهم . واستفادت الجمهوريات التجارية الإيطالية من هذه المعاهدات في الحصول على مزيد من الامتيازات التجارية وتحقيق الحماية لتجارها وفنادقها في موانئ مصر والشام . وبينت الدراسة ان الجمهوريات الإيطالية تمسكت بمصالحها الاقتصادية والتجارية الكبرى في مصر والشام - دون الاهتمام - معظم الاحيان بالدعوات الصليبية والمواقف البابوية المعادية للعرب المسلمين .

يضاف الى ذلك ان النشاط التجاري للبندقية في جزيرة قبرص وكريت ونيقروبول ومودون وكورون يشكل جزءا لا يتجزأ من نشاطها التجاري في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وفصلا بالغ الاهمية في التاريخ التجاري للبنادقة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وارتبط النشاط التجاري للبندقية في هذه الجزر ارتباطا مباشرا بعلاقات البندقية التجارية مع بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط . اما النشاط التجاري لمدينة جنوة في جزيرتي قبرص وخيوس فقد شكل مرحلة بالغة الاهمية في التاريخ التجاري لجنوة ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وأشرنا الى ان احتلال الجنوية لخيوس ، بواسطة ماهونة خيوس ، يعتبر تجربة مبكرة للشركات التجارية

التي ظهرت في العصر الحديث في الغرب الاوربي ، والتي حققت نفوذا واحتكارا للتجارة الشرقية .

والخلاصة ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، شكل وحدة موضوعية ، وجسد العلاقات الاقتصادية والحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، وقدم تجربة مبكرة لعمليات الاستيطان التجاري الاوربي في بلدان شرق البحر المتوسط ووضع الاصول الاولى للمسألة الشرقية . يضاف الى ذلك ان النشاط التجاري للجمهوريات الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، مهد للنظم الاقتصادية التي انبثق منها اقتصاديا اوربا الحديث بتنظيماته التجارية والمالية والنقدية والبحرية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر الاوربية :

- Anna, Comnen, The Alexiad, (Eng. Trans. by E. A. S. Dawes): London, 1967 .
- Amari, M., Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino ; 1863.
- Anonymous, Pilgrims, in Palestine Pilgrims Text Society (P. P. T. S.) , London, 1897 .
- Anonymous, The city of Jerusalem, in P. P. T. S. , London, 1896 .
- Argenti, P., (ed.) , The Occupation of Chios by the Genoese and the administration of the Island 1346 — 1566, vol, 1, Text, Cambridge , 1958 .
- Adler, E. N. , (ed.), Jewish Travellers, London, 1930 .
- Burchard of Mount Sion , A description of the Holy Land , in P. P. T. S. London, 1897 .
- Carpini, J. P. , The voyage of J. de plano Carpini unto the North East Part of the World in the year 1246, London, 1964 .
- Casola, P. Canon Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester, 1907 .
- Chronicle of Morea, (Eng. Trans.), Newyork and London, 1964 . ;

- Niccolo, Fra. of Poggibonsi, Avoyage Beyond the Seas (1346 — 50), Eng. Trans. , Jerusalem, 1945 .
- Nicetas, Choniates, Historia, in C. S. H. B., Bonn, 1835 .
- Novar, Philip de, The wars of Frederick II, against the Ibelins in Syria and Cyprus, Translated By J. I. Lamont Newyork, 1936 .
- Odoricus, B., The Journal of Friar B. Ordoricus, Newyork and London, , 1964 .
- Otto of Freising ,
 - The Two cities, Trans. By C. C. Mierow , Newyork, 1928 .
 - The deeds of the Frederick Barbarossa, Trans. By C. C. Mierow, Newyork, 1953 .
- Phocas, J., The Pilgrimage of J. Phocas in the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1896
- Poloner, J., Description of the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1894 .
- Roger of Wendover, Flowers of history, Translated By J. A. Giles, London, 1849 .
- Rubruquis, W., The Journal of Friar W. de Rubruquis unto the east parts of the World A. D. 1253 , London, 1964 .
- Sanuto, M., Secrets For True Crusaders to help them to recover the Holyland, in P. P. T. S. , London, 1896 .
- Suchem, Ludolph von, Description of the Holy Land and the Way thither, in P. P. T. S., London, 1895 .
- Tafel, G. L. F. And Thomas, G. M. , (ed.) , Urkunder Zur alteren Handels — und Staatsgeschichte der Republik Venedig Mit besonderer Berücksichtigung auf Byzanz Und die Levante, 3 vols. (1856 — 57).

- Clari, R., The Conquest of Constantinople , (Eng. Trans.), Newyork, 1936 .
- Dennis, G. T., (ed.) , official documents of Manuel, II Palaeologus , Byzantion, XLI (1971), PP. 45—58.
- Ernoul's account of Palestine, in P. P. T. S., London, 1896 .
- Fulcher of Chartres, A Hist. of the expedition to Jerusalem 1095 — 1127 , Translated By F. R. Ryan, Knoxville, 1969 .
- Fetellus, Description of Jerusalem and the Holy Land, in P. P. T. S. , London, 1897 .
- Gesta Francorum, The deeds of the Franks, (Eng. Trans.) London, 1962 .
- Gordon, J., (ed.) , ' The Novgorod Account of the Fourth crusade ' , Byzantion, 43 (1973) .
- Gregorae, N. Byzantine Historia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C. S. H. B.) , 3 vols. Bonn, 1829, 1880 , 1855 .
- Guide — book to Palestine, in P. P. T. S., 1894 .
- Kantakouzenos, Historiarum, 3 vols. in C. S. H. B. , Bonn, 1828 — 32 .
- Kinnamos, J., Epitome Historum, in C. S. H. B., Bonn, 1836 :
- Mandeville, Travels, Texts and translations, London, 1953 .
- Mas La trie, Hist. de L'île de Chypre, 3 vols. Paris, 1861 .
- Mas La trie, Traité des paix et de Commerce et documents divers Concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de L'Afrique au moyen âge, Paris, 1865 .
- Menahem ; M. Ben R., The Journal, in Jewish Travellers (ed. Alder) , London, 1930 .

- Bautier, R. H. The Economic development of Medieval Europe, London, 1971 .
- Baynes, N. H., and Moss, H., Byzantium , Oxford, 1961 .
- Beazley , C. R. The dawn of Modern Geography, 3 vols. Oxford, 1901 — 1906 .
- Bent, J. T., ' The Lords of Chios ' , The English Historical Review, IV (1889) , PP. 467 — 80
- Boase, T. S. R. , Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London, 1971 .
- Boulnois, L. The Silk Road, Trans. by D. Chamberlin, London, 1966 .
- Brand, C. M. , Byzantium confronts the West 1180 — 1204 , Cambridge, 1968 .
- Brundage, J. A., The Crusades, Motives and Achievements, Massachusetts, 1964.
- Brown, H. F., Venice, An Historical Sketch of the Republic, London, 1893 .
 - Studies in the History of Venice, London, 1907
 - The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the close of the twelfth century' , The Journal of Hellenic Studies, XL (1920) .
- Bury, J. B.,
 - ' The Lombards and venetians in Euboia (1205 — 1303) ' , JHS, VII (1886) , PP. 309 — 352 .
 - ' The Lombards and Venetians in Euboia (1303 — 1340) ' , JHS, VIII (1887) , PP. 194 — 213 .

- Tafur, P., Traveles and Adventures 1435 — 1439 , Translated By M. Letts, London, 1926 .
- Theoderich, S. Description of the Holy Places, in P. P. T. S. , London , 1895 .
- Villehardouin, G. The Gonquest of Constatinople, London, 1976 .
- Vitry, de J., The History of Jerusalem , in P. P. T. S., London, 1896 .
- William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, 2 vols. Translated By E. A. B. Bebcock and A. C. Kery, Newyork, 1943 .
- Wurzburg, J., Description of the Holy Land, in P. P. T. S., London, 1896 .

ثانيا - المراجع الاوربية :

- Alastos, D. Cyprus in History , London, 1955 .
- Angold, M., Abyzantine Government in exile, Government and Society under the Lskarids of Nicaea (1204 — 1261) , Oxford. 1975 .
- Ashtor, E., Asocial and Economic history of the Near east in the middle ages, London, 1976 .
- Atiya, A. S.,
 - Crusade in the Later middle ages, London, 1938 .
 - Crusade, Commerce and culture, Bloomington, 1962 .
- Ault, W. O., Europe in middle ages, Boston, 1946 .
- Baker, J. N. L., Medieval Trade Routes, London, 1938 .

- Conder, C. R. ; The Latin Kingdom of Jerusalem (1099 to 1291 A. D.) , London, 1897 .
- Danstrup, J., — ' Indirect taxation at Byzantium ', *classica et mediaevalla*, VIII (1946 — 1947) . PP. 139 — 167 .
 - ' Manuel's Coup against Genoa and Venice in the Light of Byzantine Commercial Policy ', *Classica et Mediaevalla* , X (1949) , PP. 195 — 219 .
- Diehl, C., *Hist. of the Byzantine Empire*, Princeton, 1925 .
- Finlay, G., *Hist. of Greece* ; Vol. 111, Oxford ; 1877 .
- Finley, J. E. ' Corinth in the Middle Ages ' ; *Speculum*, VII (1932) . PP. 477 — 499 .
- Fischel, W. J., ' The spice trade in Mamluk Egypt ' ; *JESHO* , 1 (1958) .
- Fleming, W. B. *The History of Tyre*, Columbia, 1915 .
- Geanakoplos, D., — ' The Emperor Michael Palaeologus and the West, Cambridge, Mass. 1959 .
 - ' Byzantium and the Crusades 1354 — 1453 ' ; in Setton, M. K. , *A Hist. of the Crusades*, Vol. 111, Philadelphia, 1975 .
- Gies, J. , *Life in a medieval city*, Newyork, 1973 .
- Grousset, R. , *Historie des croisades*, 3 vols., Paris, 1934 — 36.
- Goitein, S. D. , — ' The main industries of the mediterranean area as reflected in the records of the Cairo Geniza' *JESHO* , IV (1961) .
 - *A Mediterranean society*, 2 Vols, Berkeley and Los Angeles, 1967 — 1971 .
- Haynes, E. B., *Glass Through The ages*, London, 1970 .

- ' The Lombards and Venetians in Euboia (1340 — 1470) *JHS*, IX (1888) PP. 91—117
- Byrne, E. H. , — ' Commercial Contracts of the Genoese in the Syrian trade of the Twelfth Century ' , *Quarterly Journal of Economic*, XXXI (1916). PP. 128 — 170 .
- ' Easterners in Genoa ' , *Journal of The Economic and Social History of the Orient*, XXXVIII (1918) . PP. 176 — 187 .
- ' Genoese trade with Syria in the twelfth century ' *A merican History Review* XXV (1919 — 1920) . PP. 191 — 219 .
- *Genoese shipping in the twelfth and thirteenth centuries*, cambridge, 1930 .
- ' The Genoese Colonise in Syria ' , in the *Crusade and other historical essays Presented to D. C. Munro* ed. by L. J. Paetow (Newyork 1968) .
- Cahen, C., ' L'alun avant phocéa ' , *Revue d' histoire Economique et Sociale*, 41 (1963) . PP. 433 — 47 .
- Cipolla, C. M., *Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World*, Cincinnati, 1956 .
- Chalandon, F., *Les Comnènes*, Tom. 11, Paris, 1912.
- Chambers, D. S., *The imperial age of Venice 1380 — 1580*, London, 1970 .
- Charanis, P. — ' Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire ' , *The Journal History*, XIII (1953) PP. 412 — 42 .
 - ' Piracy in the Aegean during the reign of Micheal VIII Palaeologus ' , *APHOS*, vol. 8. (1950) , PP. 127 — 136 .

- ' John d' Ibelin ' , Byzantion XII (1937) .
PP. 4 — 17 .
- Lane, F. C. ; — ' Venetian shipping during the commercial
Revolution ' , AHR, XXXVIII (1933) , PP.
219 — 239 .
- ' Family Partnerships ' , JEH, IV (1944) PP.
178 — 96 .
- ' Merchant Galleys ' , Speculum, XXXVIII
(1963) , PP. 179 — 205 .
- ' The Economic meaning of the Invention of
the Compass ' , AHR, LXVIII (1963) , PP.
605 — 617 .
- Venice, Maritime Republic ; London, 1973 .
- / — Lane — Poole, S., A History of Egypt in the middle ages,
London, 1936 .
- The Story of Cairo, London, 1902 .
- / — Lapidus, I., M., Muslim cities in the Later Middle ages, Camb-
ridge, Mass. 1967 .
- ' The Grain Economy of Mamluk Egypt ' ,
JESHO, XII (1969) , PP. 1 — 15 .
- Latouche R., The Birth of Western economy ; London, 1961 .
- / — Lopez, R. S. ; — ' The Dollar of the middle ages ' , JEH, XI
(1951) PP. 209 — 234 .
- Italian leadership in the medieval Business
world ' JEH VIII (1948) . PP. 63 — 68 .
- Market expansion : The Case of Genoa ' , JEH,
XXIV (1964) PP. 445 — 464 .
- The Commercial Revolution of the middle ages,
950 — 1350 , Cambridge, 1976 .

- Heyd, W., Hist. du Commerce du Levant au Moyen age, 2 Vols.,
Leipzig, 1923 .
- Hill, G., History of Cyprus, 3 Vols., Cambridge, 1940 — 52 .
- Hitti, P. K. History of Syria, London , 1951 .
- Hodgett , G. A. , A social and Economic history of Medieval
Europe, London, 1972 .
- Hodgson, F. C., Venice in the thirteenth and Fourteenth centu-
ries., London, 1910 .
- Hoover, C. B., — ' The Sea Lion in Genoa in Twelfth
century ' , QJE, XL (1926) . PP. 495 — 529 .
- Hussey, J. M. , The Byzantine World, London, 1967 .
- Hutchinson, L. , ' Oriental trade and the rise of the Lombard
Communes ' , QJE, XVI (1901 — 1902) , PP.
413 — 432 .
- Jorga, N., The Byzantine Empire, Trans. By A. H. Powles
London, 1907 .
- Labib, S. Y., — Handelsgeschichte Agyptens in spätmittelalter
(1171 — 1517) , Wiesbaden, 1965 .
- ' Egyptian Commercial policy in the Middle
ages ' , in Cook , M., Studies in the Economic
history of the Middle East, London , 1970 .
- Laiou, A. E., — ' Marino Sanudo Torsello, Byzantium and the
Turks ' speculum, XLV (1970) PP. 374—72.
- Constantinople and the latins, The Foreign
policy of Andronicus II 1282 — 1328 , Camb-
ridge, Mass., 1972 .
- / — Lamonte, J. L. , Feudal monarchy in the Latin Kingdom of Jeru-
salem 1100 to 1291, Cambridge, Massachusetts,
1932 .

- Obolensky, D., *Byzantium and the Slaves*, London, 1971 .
- Origo, I., ' The domestic enemy ; The eastern slaves ' , in *Speculum* , XXX (1955) , PP. 321 — 366 .
- Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*, Eng. Trans. By J. Hussey, London , 1956 .
- Pernoud, R., *The Crusaders*, Eng. Trans. By E. Grant ; London, 1963
- Pirenne, H., — *Medieval Cities*, Eng. Trans., By F. D. Halsey, Princeton, 1939
 - *Economic and Social History*, Eng. Trans. By I. E. Clegg, London, 1947 .
 - *History of Europe*, London, 1961 .
- Pounds, N. J. G., *An Economic History of Medieval Europe*, London, 1974 .
- Power, E., ' The Oppening of the land Routes to Cathay ' , in Newton, A. P., *Travel and Travellers of the middle ages*, London, 1926 .
- Prawer, J., — ' The Settlement of the Latins ' , *Speculum*, 27 (1952) , PP. 490 — 503 .
 - *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972 .
- Rabie, H., *The Financial System of Egypt A. H. 564 — 741 A. D. 1169 — 1341*, London, 1972
- Reynolds, R. L. ' in Search of a Business Class in Thirteenth century Genoa ' ; *JEH* , V (1945) ; PP. 1 — 19 .
- Riley — Smith, J. — *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174 — 1277* , London, 1973 .
 - ' Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants ' , in *The*

- Lopez, R. S., and I. W. Raumont , *Medieval trade in the Mediterranean World*, London, 1955 .
- Luke, H., ' The Kingdom of Cyprus 1291 — 1369 ' ; in Setton, K. M., *A Hist. of Crusades*, Vol. 111, (1975) .
- Lybyer, A. H., ' The Ottoman Turks and the Routes of Oriental trade ' *EHR*, XXX (1915) .
- Luzzatto, G., *An Economic history of Italy*, Trans. By P. Jones, London, 1961 .
- Mayer, H. E., — *The Crusades*, Trans. By J. Gillingham, Oxford, 1972 .
 - ' On The Beginnings of the Communal movement in the Holy Land ; The Commune of Tyre ' , *Traditio* , XXIV (1968) . PP. 443 — 457 .
- Messier, R. A. ' The Almoravids ' , *JESHO* , XVII (1974) , PP. 31 — 47 .
- Miller, W., — *The Latins in the Levant*, London, 1908 .
 - ' The Last venetian Islands in the Agean ' , *EHR*, XXII (1907) , PP. 304 — 308 .
 - ' Genoese in Chios ' , *EHR*, XXX (1915) . PP. 418 — 432 .
 - ' The Ionian islands under venetian Rule ' , *EHR*, XVIII (1903) . PP. 209 — 239 .
- Mis Kimin, H. A., 'The Economic of Early Renaissance Europe, 1300 — 1460 , Cambridge, 1975 .
- Muir, W., *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt*, London, 1896 .
- McNeill, W. H., *Venice, The Hinge of Europe 1081 — 1797* , Chicago and London, 1974 .
- Nicholson, R. L., *Tancred*, Chicago, 1940 .
- Nicol, D. M. *The Byzantine Family of Kantakouzenos*, Washington, 1968 .

- Waley, D., *The Italian City — Republics*, London, 1969 .
- Watson , A. M. , ' Back to Gold — and Silver ' , *EHR* , XX
(1967) , PP. 1 — 34 .
- Wolf, R. L. , ' Romania : The Latin Empire of Constanti-
nople ' , *Speculum*, XXIII (1948) PP. 1 — 34 .
- ' The Latin Empire of Constatinople ' ,
Traditio, 11 (1944) , PP. 213 — 244 .
- Yewdale, R. B. , *Bohemond 1, Prince of Antioch* , Princeton,
1917 .

- Relations between East and West (ed. by D.
Baker) Edinburgh, 1973 .
- Roover, R. — ' The Commercial Revolution of the Thir-
teenth Century ' , *Bulletin of the Business
Historical Society*, XVI, no. 1 (1942) ,PP.
34 — 39 .
- Runciman, S., — *A History of the crusades*, 3 vols. Cam-
bridge, 1954 .
- *The Sicilian Vespers*, Cambridge, 1958 .
- Setton, K. M. (ed.) *A History of the Crusades*, 3 vols.
Philadelphia, 1958 — 1975 .
- *The Papacy and the Levant (1204 — 1571)*,
Vol. 1, Philadelphia, 1976 .
- Slessarev, V. ' Ecclesiae Mercatorum and The Rise of
Merchant Colonies ' , *Business History Review*, XLI
(1967) , PP. 177 — 97 .
- Smail, R. C. , *The crusaders* , London, 1973 .
- Stillman, N. A. ' The eleventh century merchant house of Ibn
AWkal ' , *JESHO* , XVI (1973) , PP. 15 — 88 .
- Thompson , J. W. , *Economic and social History of the Middle
ages*, 2 Vols. Newyork, 1959 .
- Tolkowsky , S. *The GateWay of Palestine*, A Hist. of Jaffa,
London, 1924 .
- Vasiliev, A. A., *History of the Byzantine Empire*, 2 vols.,
Madison, 1958 .
- Vlasto, A. M., *A History of the Island of Chios*, London, 1913
- Vryonis, S. , *Byzantium and Europe*, London, 1967 .

المصادر العربية

ثالثا : المصادر العربية :

- ابن اياس (محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) :
- جوهر السلوك في أخبار الخلفاء والملوك ، مخطوط
مكتبة جامعة كمبردج - رقم ٧٤ Add.
- نشق الازهار في عجائب الاقطار ، مخطوط -
المتحف البريطاني - رقم ٧٥٠٣ .
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :
- تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار
جزءان ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :
- رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :
- درة الاسلاك في دولة الاتراك ، مخطوط ثلاثة أجزاء
- مكتبة بودليان (اكسفورد) رقم ٥٩١ ، ٣١٩ ،
٢٢٣ Marsh .
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، مخطوط -
المتحف البريطاني ، رقم ٧٣٣٥
الجزء الاول منه نشره الدكتور محمد أمين ،
القاهرة ١٩٧٧ م .
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) :
- بذل الماعون في فوائد الطاعون ، مخطوط - معهد
الدراسات الشرقية والافريقية (جامعة لندن) -
رقم ١٣٩٩٨

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) :
- الانتصار لواسطة عقد الامصار ، الجزء الرابع والجزء
الخامس ، القاهرة ، ١٨٩٣ م .
- الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ،
مخطوط - مكتبة بودليان (اكسفورد) - رقم ٢٨ .
Digby or
- ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى ، ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م) :
- كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العزبي ، بيروت
١٩٧٠ م .
- ابن صصري (محمد بن محمد)
- كتاب الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق
وليام برينر ، بركلي ولوس انجيلوس ، ١٩٦٣ م .
- ابن طولون (محمد بن طولون الصالحى الدمشقي ، ت ٩٣٥ هـ /
١٥٢٨ م) :
- اعلام الوري بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام
الكبرى ، تحقيق محمد أحمد الدهان ، دمشق ،
١٩٦٤ م .
- ابن ظهيرة (محمد بن محمد ، ت ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م) :
الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق
مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ م
- ابن عبد الظاهر (محي الدين أبو الفضل عبد الله ، ت ٦٦٢ هـ /
١٢٩٢ م) :
- اللطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية
الملكية الاشرفية ، القاهرة ، ١٩٢٠ م .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (النص الكامل
نشره عبد العزيز الخويطر) - رسالة دكتوراه -
جامعة لندن ، ١٩٦٠ م .

- تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ،
تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

- ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم ، ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب - ثلاثة أجزاء - تحقيق
سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٦٨ م .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧ هـ /
١٤٠٤ م) :

- تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات .
المجلد السابع والثامن والتاسع ، تحقيق قسطنطين
زريق ، بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٤٢ م .

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) :
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ م .

- ابن المجاور (جمال الدين أبي الفتح)
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ
المستبصر ، لندن ، ١٩٥١ م .

- ابن مماتي (أبو المكارم أسعد بن الخطير ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) :
قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ،
القاهرة ، ١٩٤٣ م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الثالث :
تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ،
والجزء الرابع : تحقيق حسنين محمد ربيع ،
القاهرة ١٩٧٢ م .

- أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) :
تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ م .

- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن ادريس ، ت ٦٥٠ هـ / ١١٦٠ م) :

- ٣٠٤ -

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ، ١٨٧٨ م .

- البلوي (خليل بن اياس ، ت القرن الثامن) :
تاج الفرق بتحلية علماء المشرق . مخطوط - دار
الكتب المصرية - رقم ٢٠٢ جغرافيا .

- بنيامين التطيلي (رحلته ٥٦١ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣ م) :
رحلة بنيامين ، ترجمها من العبرية عزرا حداد ،
بغداد ، ١٩٤٥ م .

- بيبس المنصوري (الأمير ركن الدين ، ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط - المتحف
البريطاني ، رقم ٢٣٣٢٥ Add.

- الحنبلي (أحمد بن ابراهيم)
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط -
المتحف البريطاني - رقم ٧٣١١ Add.

- الدمشقي (أبو الفضل جعفر بن علي ، ت أواخر القرن الحادي عشر
الميلادي) :

- كتاب الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ،
١٣١٨ هـ .

- الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايوب ، ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ -
١٣٣٦ م) :

- كنز الدرر وجامع الفرر - الجزء التاسع :
الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس
روبرت ريمر ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

- شافع بن علي (نصر الدين العسقلاني ، ت ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م) :
الفضل الماثور من سيرة السلطان الملك المنصور ،
مخطوط ، مكتبة البودليان (اكسفورد) رقم ٤٢٤
Marsh

- ٣٠٥ - العلاقات الاقتصادية م ٢٠

- صالح بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) :
 - تاريخ بيروت . تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي
 وكمال سليمان الصليبي ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- الصفدي (حسن بن عبد الله ، ت القرن الثامن الهجري) :
 - نزهة الملك والممالك ، مخطوط - المتحف البريطاني ،
 رقم ٦٢٦٧ Or.
- الصيرفي (علي بن داود ، ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) :
 - نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، ثلاثة
 أجزاء تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٧٠ -
 ١٩٧٤ م .
- عبد الباسط (القاضي ، ت أواسط القرن التاسع الهجري) :
 - نيل الامل في ذيل الدول ، مخطوط ، جزءان
 بودليان (اكسفورد) رقم ٦١٠ ، ٢٨٥ Hunt .
- العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) :
 - التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، ١٣١٢ هـ .
 - مسالك الابصار وممالك الامصار ، الجزء الاول ،
 تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩٢٤ م .
- العيني (محمود بن أحمد ، ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :
 - تاريخ البدر في اوصاف اهل الاصر ، مخطوط ،
 المتحف البريطاني - رقم ٢٢٣٦٠ Add.
- غرس الدين (خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) :
 - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشره
 بولس راويس باريس ، ١٨٩٤ م .
- القلقشندي (أبو العباس أحمد ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
 - صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ،
 القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٩ م .

- مجير الدين (ابن عبد الرحمن العمري العيلمي) :
 - كتاب تاريخ قاضي القضاة مجير الدين ، مخطوط ،
 المتحف البريطاني ، رقم ١٥٤٤
- المخزومي (علي بن عثمان ، ت أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) :
 - المنهاج في علم خراج مصر ، مخطوط ، المتحف
 البريطاني ، رقم ٢٣٤٨٣ Add.
- المقرئ (أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) :
 - اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشره مصطفى زيادة
 وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف
 بالخطط المقرئية ، جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣ -
 ١٨٥٤ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ثلاثة أجزاء ، الجزء
 الاول والثاني نشرهما محمد مصطفى زيادة ،
 القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م . والجزء الثالث حققه
 سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- كتاب ثغر دمياط - بودليان (اكسفورد) رقم ٣٦١
 شذور العقود في ذكر النقود ، نشره الكرمللي ،
 القاهرة ، ١٩٣٩ م .
- المؤرخ المجهول
 - أوراق جمعت فيها فضائل مصر ، مخطوط ، مكتبة
 جامعة كمبردج ، رقم ٩١ Qq.
- المؤرخ المجهول
 - تاريخ الدولة التركية ٦٥٠ - ٨٠٥ هـ ، مخطوط ،
 مكتبة جامعة كمبردج ، رقم ١٤٧ Qq.
- النويري السكندري (محمد بن قاسم بن محمد ، ت ٧٧٥ هـ /
 ١٣٧٣ م) :

- الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية
في واقعة الاسكندرية ، جزءان ، مخطوط - دار
الكتب المصرية ، رقم ٤١٩٣ تاريخ .

رابعاً : المراجع العربية والمترجمة :

- ابراهيم راشد مصطفى البراوي
حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي - رسالة
دكتوراه - آداب القاهرة ، ١٩٤٤ .

- بلوك (مارك)
« مشكلة الذهب في العصر الوسيط » ترجمة توفيق
اسكندر في كتاب « بحوث في التاريخ الاقتصادي »
القاهرة ١٩٦١ .

- بور (ايلين)
نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد
توفيق حسن بيروت ، ١٩٥٧ م .

- جمال الدين الشيال
الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من اقدم
العصور الى الوقت الحاضر . القاهرة ١٩٥١ م .

- جيبون (ادوارد)
اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء
الاول ترجمة محمد أبو ريده ، القاهرة ١٩٦٩ -
والجزء الثالث ترجمة محمد سليم سالم القاهرة
١٩٦٩ .

- حسنين ربيع
النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ م .

- ديل (شارل)
البندقية جمهورية ارسطراطية ، ترجمة أحمد
عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ م .

- سعاد ماهر

البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة
١٩٦٧ م .

- سعيد عبد الفتاح

- أوروبا العصور الوسطى ، جزءان القاهرة ١٩٧٢ .

- الحركة الصليبية ، جزءان القاهرة ١٩٧١ .

- العصر المالكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة
١٩٦٣ .

- مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة
١٩٥٩ م .

- قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

- الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي - المجلة
التاريخية المصرية - عدد (١١) عام ١٩٦٣ .

- شيخو (الاب لويس)

بيروت : تاريخها وآثارها ، مجلة المشرق عدد (٢٣)
عام ١٩٢٥ .

- عبد العزيز سالم

طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي - الاسكندرية
١٩٦٧ .

- عفاف سيد محمد صبره

علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني
عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر - رسالة دكتوراه
- لم تنشر - كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

- علي ابراهيم حسن

مصر في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٤ .

- كراتشكوفسكي « غناطيوس يوليا نوفتشى »
تاريخ الادب الجغرافي ، نقله الى العربية صلاح الدين
عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ .

- كرامب وجاكوب
تراث العصور الوسطى ، جزءان ، الجزء الاول
ترجمة محمد بدران ومصطفى زيادة ، القاهرة
١٩٦٥ والجزء الثاني ترجمة سعيد عاشور ،
وآخرين القاهرة ١٩٦٧ .

- كولتون ج ج
عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة
جوزيف نسيم يوسف - الاسكندرية ١٩٦٧ .

- ماير ب .
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، القاهرة
١٩٧٢ .

- متز (آدم)
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله
الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريكة ، بيروت
١٩٦٧ .

- محمد جمال الدين سرور
دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
دولة الظاهر بيبرس القاهرة ١٩٦٠ .
سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ .

- نجاه الباشا
التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الى
القرن الثامن للهجرة ، تونس ١٩٧٦ .

- نعيم زكي

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ،
القاهرة ١٩٧٣ .

- نقولا زيادة

دمشق في عصر المماليك - بيروت ، ١٩٦٦ م .

ط . ا . ١٩٨٠ / ٣٠٠٠

م - ر - ٧٦٧١ ت ١٩٨٠ / ١ / ٥